

# شعيب من وحي القرآن والسنة

تأليف

أ. د. عقيل حسين عقيل

2017م

القاهرة

## المحتويات

5	المقدمة
19	شعيب من وحي القرآن
76	من صفات النبي شعيب
76	1 . رسول:
79	2 . ناصح:
92	3 . مُصلح:
94	4 . صالح:
95	5 . مُصلي:
96	6 . حلِيم:
127	7 . رشيد:
142	8 . على البيّنة:
154	9 . مرزوق رزقا حسنا:
166	10 . ناهٍ:
171	11 . موفّق:
172	12 . متوكّل على الله:
173	13 . منيب:
174	14 . عامل على مكانته:
175	15 . رقيب:
200	16 . ناجٍ:
202	17 . مرحوم:
218	18 . مؤمن:

236	19 . أمين:
239	20 . شيخ كبير:
250	مدین مدينة شعيب:
256	مدین وموسى والرّجل الصّالح:
259	الزّمن الفاصل:
262	رسالة شعيب
277	متضمنات رسالة شعيب
293	مستهدفات رسالة شعيب:
294	التصحيح العقدي:
301	الإصلاح الاقتصادي:
306	الإصلاح الأخلاقي:
314	الإصلاح الاجتماعي:
324	قوم شعيب:
337	موقف قوم شعيب:
341	عقيدته
342	بيّنة شعيب:
344	. صلاحه وإصلاحه:
358	موقف الباخسون من رسالة شعيب:
367	الصّد عن سبيل الله:
375	الأوزان والمكاييل:
378	رسالة شعيب لحلّ المشكلّ الاقتصادي
389	الحماية الاقتصادية:
393	النبي شُعيب من السُنّة

398	دعوة شعيب:
402	شعيب نبي مصلح:
404	شعيب نبي متحدّي:
405	شعيب خطيب الأنبياء:
406	التسليم بالمشيئة:
408	أبنت النبي شعيب:
409	حبّ الله وتوحيده:

## المقدمة

بسم الله والصلاة والسلام على رسل الله وأنبيائه أجمعين.

لقد خلق الله تعالى الكون كله، وأرسل رسله مبشرين ومنذرين، وأنزل كتبه هداية بين العباد.

فقد أفلح من آمن بالله واحد أحد، ولا يشرك به شيئاً، ولا يشبهه ولا يثلثه ولا يعدده، إنَّه الله الذي تتعدّد صفاته الحسنى ولا يتعدّد، وقد فاز من استمسك بما جاء به الأنبياء والرُّسل صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين، فما جاؤوا إلاّ بالحقّ، وما أمروا إلاّ بهداية، وما نھوا إلاّ عن ضلال.

فقد جاءت الرُّسل بالحقّ المنزّل تنزيلاً، وبشّروا به، ودعوا إليه، ونھوا عمّا نھى الله عنه؛ فالحقّ تعالى يريد أن يحقّ الحقّ ويزهق الباطل، فاصطرح أنصار الحقّ مع أنصار الباطل، وهكذا هم يختلفون إلى النهاية التي تقود للإيمان والهداية للحقّ والعمل به.

إنّ قضية الصراع بين الحقّ والباطل وبين الخير والشر قضية قديمة بدأت فصولها مع بداية وجود الإنسان على الأرض، وسوف تتواصل هذه الفصول طالما كان هناك إنسان في هذا الوجود، ولقد أرسل الله سبحانه وتعالى أنبياءه ليقودوا صراع الخير ضد الشر، وصراع الحقّ ضد الباطل ممثلاً بجهادهم في سبيل الله بالكلمة والحجّة والمنطق والقول والفعل.

إنّ الله سبحانه وتعالى عندما بعث الأنبياء والرُّسل صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين، كان عماد كلّ دعوة واحد منهم إلى الله ووحدانيته، وإخلاص العبادة له، ودحض الشرك والضلال بكلّ

أنواعه، ودفع الشبهات وقمع الشهوات التي يرفع لواءها المبطلون، في مقاومة ما جاء به الرُّسل من التوحيد والحقّ اللذين تكون عليهما سعادة البشر في الدنيا والآخرة، وبالأنبياء والرُّسل يكون النجاة والخلاص من غضب الله وما ينشأ عنه من الشقاء والهلاك في الدنيا والآخرة.

ولذا، لم تقتصر دعوة الأنبياء والمرسلين صلّى الله عليهم وسلّم، على الدّعوة إلى التوحيد، وإتّما دعوة التوحيد عليها مترتبات تفضي إلى إصلاح الأرض وإعمارها بإصلاح الإنسان الذي حاد عن جادة الصواب والحقّ.

إنّ من سنن الله الكونية أنّ الله قد أوجب على الإنسان السعي في الأرض وبذل الجهد والتعب من أجل الكسب الحلال الذي لا يظلم فيه أحدا ولا أحدٌ يظلم.

أمّا التمتع بدون تعب وجهد وبذل وعطاء وأخذ فهو في الحياة الآخرة، وهذا من الأسرار التي جعلها الله في قلة الموارد وشحّتها ما لم تبذل الجهود في السعي وراءها من أجل الحصول عليها وتوفيرها، ولكن ليس عدم توقّرها في أيدي الناس يعني الانعدام الكليّ أو عدم إمكانية توفيرها، فالندرة والقلة والشُّحّة في الموارد الاقتصادية هي نسبية وليست مطلقة، أي أن الندرة تحدث إذا عطل الإنسان ملكاته وقدراته ولم يعمل على استغلال طاقاته الذهنية والعقلية والبدنية.

إنّ من واجب الإنسان أن يمارس عملية التفكير والاختراع والسعي والعمل على توفير احتياجاته وما يشبع حاجته بالطرق المشروعة التي ترضي العباد بما شرّعه الله تعالى لعباده، فما يصنعه الإنسان أو يكتشفه أو يحصل عليه، إنّما هو من صنع الله وخلقته،

ولذا ينبغي فهم قول الله تعالى على هذه الحقيقة: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾<sup>1</sup>.

إنّ ما يتوصل إليه الإنسان من الحصول على الحاجات أو إبداع مخترعات، أو ما يلهمه الله من معرفة للأسرار الكونية، هو ما أذن الله به للناس ممّا أودعه الله تعالى في هذه الأرض من الأقوات، وقد أذن الله تعالى في زمن من الأزمنة لقوم من الأقسام بفتح من الفتوح باكتشاف حاجة من الحاجات التي تلي متطلبات ذلك الوقت أو العصر أو الفترة الزمنية، ولم يأذن بها إلا في حينها لتشبع حاجة العصر والمجتمع الذي ظهرت فيه، كما أنه يأذن سبحانه وتعالى في اكتشاف حاجات أخرى في وقت آخر للأقسام آخرين، كي نقف على حقيقة ثابتة وان جدل من جادل، وهي أن الله تعالى قد تكفل بتوفير احتياجات الإنسان، وأن الموارد المتاحة كفيّلة بتوفير احتياجات الإنسان بشرط أن يسعى وفق سنن الله وضمن نطاق العبودية له سبحانه تعالى، ولهذا فإن الانحراف عن هذا المنهج سيكون سببا في ندرة الموارد حيث يصبح ذلك أداة لإنزال عقاب الله تعالى على ظلم الإنسان.

وأما من يريد أن يستحوذ على حاجات الآخرين أو ما يشبع حاجاتهم بطرق وأساليب ما أنزل الله بها من سلطان ولم يقرّها شارع ولا شريعة، ولم تدعُ إليها ملّة الله ولا عقيدته، فقد ابتعدوا عن المنهج الحقّ والطريق القويم وسبيل الرشاد الذي يفضي إلى مرضاة الله تعالى، وبالتالي يكونون قد تركوا جبل النجاة الموصل إلى الآخرة بأمان.

---

<sup>1</sup> الصفات 96.

وشرّ مثال على ذلك قوم شعيب صلّى الله عليه وسلّم، الذين يريدون أن يفعلوا بأموالهم ما يشاؤون، وليس كما أمر الله تعالى به عباده.

شعيب عليه السّلام هو رسول الله لأهل مدين، وكان يُعرف بخطيب الأنبياء، وأهل مدين هم عرب ويسكنون أرض (مّعان) في الأردن قريبا من قُرى لوط عليه السّلام. وفي عهد شعيب عليه السّلام، ظهر في مدين قوم يعبدون الأيكة، وهنا قال ابن كثير: "كان أهل مدين كفارا يقطعون السّبيل، ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهي الشّجرة من الأيكة، حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوأ النّاس معاملة، يبخسون المكيال والميزان، ويطفّفون فيما يأخذون بالزائد، ويدفعون بالناقص؛ فبعث الله فيهم رجلا منهم، وهو رسول الله شعيب عليه السّلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن بخس النّاس أشياءهم، وإخافتهم في سبلهم وطرقاتهم، فأمن به بعضهم، وكفر أكثرهم، حتى أحلّ الله بهم البأس الشديد"<sup>2</sup>

ويقال أنّ مدينة مدين التي بعث إليها شعيب نبيا قد كانت من القرى المزدهرة في التجارة، ولكنّ الحياة الدنيا غرّت القوم؛ فكانوا يبخسون في المكيال والميزان ويُطفّفون فيهما، ويأكلون المال الحرام، ويقطعون الطرق، ويعترضون القوافل، ويشيعون في الأرض فسادا وظلما. ومن علامات طغيانهم أنّهم لم يكتفوا فقط بالجحود والتكبر والعصيان وإنكار نعم الله عزّ وجلّ وإيذاء شعيب عليه السّلام، بل أنّهم سألو شعيبا أن يطلب من الذين آمنوا أن يتركوا الدّين والعبادة حتى يؤمنوا بالله، ولكنّ شعيب لا يساوم في دين الله جلّ جلاله؛ فكفر أكثرهم وآمن القليل منهم، فتناول عليه من كفر به وبرسالته،

---

<sup>2</sup> منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، 1، ص 219.

فهددوا شعيب بالقتل لولا شأن قبيلة عليه السّلام، ممّا استوجب غضب الله سبحانه وتعالى، فانزل الله بهم أنواع من العذاب، حيث أصابهم حرّ شديد، ومنع الله عنهم هبوب الرّياح، ولم ينفعهم ماء ولا ظل، فتركوا بيوتهم وما يمتلكون وفرّوا حيث لا فرار ينجيهم من غضب الله جلّ جلاله. وفي تلك البريّة التي فرّوا إليها أظلتهم سحابة سوداء، فاجتمعوا حولها ليستظلوا تحتها، فلمّا اكتمل عددهم، أرسلها ترميهم بشهب وشرار، واهتزت بهم الأرض، ونزلت عليهم صيحة من السّماء فأزهقت وأهلكت الأرواح، وفي المقابل انجى الله شعيبا ومن معه من المؤمنين.

لقد برز في قصّة شعيب أنّ الدّين ليس قضية توحيد وألوهية فقط، بل هو أسلوب حياة النّاس أيضا، فشعيب عليه السّلام بعد الدعوة إلى التوحيد بدأ ينبّه على ما يخالف أمر الله العادل؛ فكانت دعوته حلّ للمشكل الاقتصادي كما يعرفها الاقتصاديون في هذا العصر. ومن هنا كانت قضية المعاملات الاقتصادية والأخلاقية محيّرّة لنبي الله شعيب، لما فيها من مظالم ومفاسد وآلام حيث كان القوم ينقصون المكيال والميزان، ويظلمون النّاس؛ فالنّاس سادت الرذيلة بينهم وهي لا شكّ أنّها تمسّ المروءة والشرف، ذلك لأنّ أهل مدين كانوا يعتبرون بخس النّاس أشياءهم نوعا من أنواع المهارة في البيع والشراء. وفي التفسير جاء قوله تعالى: {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ} <sup>3</sup> (أشياءهم) هنا جاءت بمعنى الجمع وليس المفرد، وهي جمع الشيء؛ ومن ثمّ فالأشياء التي تؤلم النّاس كثيرة منها (المادي ومنها المعنوي) أي أنّها ليست مقصورة على البيع والشراء فقط، بل تدخل فيها الأعمال، أو التصرفات التي تسيء للأخلاق الكريمة. ولهذا جاء

---

<sup>3</sup> الأعراف 85.

التَّهْيِ محَرَّمًا لِارْتِكَابِ الْمَظَالِمِ الَّتِي تَكْسِرُ النَّفْسَ وَتَهْزِمُهَا مِنَ الدَّخْلِ .  
ولذا ينبغي احترام وتقدير واعتبار النفس الإنسانية نفسيًا وأخلاقيًا  
وحياتيًا من حيث العمل وحرية التنقل وعدم الاستغلال أو الإكراه .

إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أرسل إلى قوم مدين أخاهم شعيبًا  
لتصحيح مسار حياتهم في التعامل مع النَّاسِ، وإن عماد المعاملات  
يجب أن يكون له ضابط مما يمتلك :

. الحقّ المطلق .

. العدل المطلق .

. القوّة المطلقة .

ولذلك، قبل الدعوة إلى الإصلاح قال: يا قوم اعبدوا الله  
وحده لا شريك له وانبدوا عبادة الأصنام، فليس لهم من إله يستحقّ  
العبادة سوى الله . ثمّ دعاهم إلى الإصلاح من عدم إنقاص النَّاسِ  
حقّوقهم إذا كالوا لهم أو وزنوهم، وخاصة أنّهم في سعة من العيش  
وكثرة من المال الذي يغنيهم عن التطفيف في المكيال والميزان .

وكان الخوف عليهم أوّلا من جراء عبادتهم غير الله تعالى الذي  
أدى بهم إلى هذا التطفيف الذي بسببه ينزل الله بهم عذاب يوم يحيط  
لا ينجو منه أحد .

فالواجب والحقّ يقتضيان إيفاء الكيل والميزان حقّهما بالعدل  
والقسط، سواء أكان الكيل والوزن لهم أم عليهم، وعدم بخس النَّاسِ  
أشياءهم سواء أكانت هذه الأشياء ممّا يكال أم يوزن أم يذرع أم يعدّ  
أم كانت غير ذلك .

إنّ الذي يصدر عنه مثل هذا الأعمال فلا شك أنّه يسعى في الأرض فسادا يضرّ بمصالح الآخرين، ولذا كان شعيب صلّى الله عليه وسلّم يدعوهم إلى أخذ البقية التي تبقى لهم من الكسب الحلال وإن قلّت، لأنه أفضل من الكثير الذي يأتي من التطفيف والبخس، لما يترتب على الأول من الثواب في الآخرة، وما يلحق الثاني من غضب الله تعالى وعذابه في الدنيا والآخرة.

لقد تناولنا في هذا الكتاب قصّة شعيب صلّى الله عليه وسلّم مع قومه ورسالته التي حملها إليهم بتكليف من الله تعالى، حيث أنهم عاثوا في الأرض فسادا بما كانوا يفعلون من تطفيف الكيل والميزان، وليس هذا فقط، وإنما استنكروا على شعيب صلّى الله عليه وسلّم أن يقول لهم: اعبدوا الله ما لكم من إله غير، ولا تبخسوا الناس أشياءهم،

فهم بهذا ينكرون عليه أن ربط الدين بالدنيا، حيث قالوا له {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ} 4.

فهم أرادوا بهذا ألا يكون للدين أو العقيدة دخل في كيفية الحصول على الأموال واستثمارها وإنفاقها، ومن هذا الموقف يتبيّن لنا أن الاتجاه الذي يدعو إلى فصل الدين والعقيدة عن الحياة ليس ظاهرة جديدة مبتدعة دعت إليها العلمانية الغربية، وإنما هي خصيصة في الإنسان الذي يريد أن يستحوذ على حقوق الآخرين بمنطق القوة والسطوة والجبروت بما يضع من قوانين تؤهله لعمليات السطو والبخس طالما هو مقتدر على ذلك، متجاوزا الفضائل التي تأتي بها

---

<sup>4</sup> هود 87.

العقيدة وتحكم التصرف وفق الحقوق والواجبات بما أحله الله تعالى لعباده.

فهي على هذا سمة دائمة من سمات الإنسان الذي يريد أن يفسد في الأرض ويستعبد بها خلق الله تعالى في جميع مراحلها البشرية وعصورها كلّما سنحت له الفرصة.

ولذا، فقد تناولنا في مؤلفنا هذا عن شعيب صلّى الله عليه وسلّم وقومه بعد رسالته التوحيدية، أهم جانب في حياة الإنسان وهو ما يتعلق في الاقتصاد الذي يمت بعلاقة لا تكاد تنفصل عن حياته المعيشية.

فدعوة شعيب صلّى الله عليه وسلّم انصب اهتمامها على معالجة قضية المشكّلة الاقتصادية، التي هي من أهم محاور اهتمام الإنسان منذ أن أوجده الله تعالى على الأرض، ذلك أنّها مرتبطة بمعيشته وحياته اليومية، ولما كانت المجتمعات الإنسانية تتشكّل من مجموع أفراد، فهذا يعني: أنّ الجانب الاقتصادي يكون محل اهتمام المجتمع بأكمله (أي مجتمع كان). وهذه أبرز سمة عاجلتها رسالة شعيب صلّى الله عليه وسلّم، ولكن قبل هذا فإن رسالة شعيب صلّى الله عليه وسلّم تحمل أشياء أخرى قبل الاقتصاد وبعده، فكان لا بدّ من الوقوف على صفات يتصف بها شعيب صلّى الله عليه وسلّم تناولنا منها ما استطعنا الوقوف عليه بشيء من التفصيل قبل الولوج في ثنايا البحث.

وكذلك فإننا تناولنا في هذا البحث أهم القضايا التي عاجلها شعيب صلّى الله عليه وسلّم في رسالته التي جاء بها إلى قومه، منها:

. التصحيح العقدي.

. الإصلاح الاقتصادي.

. الإصلاح الأخلاقي.

. الإصلاح الاجتماعي.

إنّ المشكلة الاقتصادية عامّة مرتبطة بوجود الإنسان على الأرض، وهي من العوامل المؤثرة في المسيرة التاريخية للإنسان، وهو رهين أثرها وجودا وامتدادا من حيث:

. العيش الكريم.

. البناء والعمران.

. تعاقب الأجيال.

. استمرار الحياة.

ولم تقتصر دعوة شعيب صلّى الله عليه وسلّم على الدعوة إلى التوحيد وإصلاح الجانب الاقتصادي فحسب، وإنما تجاوزت ذلك إلى الجانب الأخلاقي في المجتمع، ذلك أنه ما لم تصلح أخلاق المجتمع وتبتعد عن الفساد المتأصل في النفوس من حب الطمع جريا وراء الدنيا وملذاتها، لا يمكن إصلاح الجوانب الأخرى، لأنّ الفساد الأخلاقي تكون نتائجه السلبية كثيرة منها:

. تحييد الحقّ والعدل.

. إحلال الظلم والطغيان.

وبهذا يسود قانون القوّة محل قوة القانون في الجانب الاقتصادي كما ساد عند أصحاب مدين قوم شعيب الذي قام على:

. الهضم.

. البخس.

. الغصب.

فشعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدعوته ما لم يصلح أخلاق المجتمع، وتكون الدعوة الأساس فيه إلى الأخلاق الكريمة في التعامل القائم على الحق والعدل والتراضي في البيع والشراء، فلن يكون هناك إصلاح اقتصادي.

ولهذا فالصراع سيظل باق ما بقية البشرية بين حق وباطل؛ فالباطل الذي هو نقيض الحق له أتباع يحاولون أن يقبلوا الموازين ليبتلوا الحق ويحقوا الباطل؛ ولأن ما يعبدون من دون الله باطل؛ فالله سبحانه وتعالى يتحداهم بأن يخلقوا خلقا من أضعف خلق الله - سبحانه في قدرته - وهذا المخلوق على ضعفه إلا إنه لا يستطيع أهل الباطل أن يخلقوا مثله لأنهم على ضلال، ولأنهم على ضلال؛ فالله يتحداهم بأن يخلقوا ذبابة، والله يعلم أنهم عاجزون لأنهم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا؛ فكيف يملكون من أمر غيرهم؟

أما المستخلفون فيها بالحق فهم يؤمنون بأن الخلق من عند الحق تبارك وتعالى، وبالتالي لا يراودهم شك في ذلك.

ويبلغ التحدي الإلهي مبلغا آخر وهذا التحدي يثبت العجز التام للباطل فيقول الله لهم: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ} 5.

---

<sup>5</sup>الحج 73.

ولأنّ الكلمة الطيبة كلمة حقّ، فهي باقية مثل كلمة التوحيد،  
واحد أحد، الأوّل والآخر، الملك الحقّ، لا إله إلا هو، محمّد رسول  
الله، كلمات تامة غير منقوصة، كما حال كلمات الكفر والشرك  
بالله، ومثل كلمات النفاق والكذب والبهتان.

وكلمة الحقّ ثابتة كالشجرة الثابتة التي أصلها ثابت وفرعها في  
السماء، ولهذا في المقارنات كلام الله الذي أنزله على عباده الصالحين  
وأرسل به الرسل مبشرين ومنذرين هو كلام باقي يسمع في الأرض  
ويسمع في السماء، ولهذا مهما بلغ حجم الشجرة المباركة المشبه بها  
فإن الكلمة المباركة ذات ظل أكبر وأعظم وإثما ذات امتداد عظيم،

وقد اكشفنا اختلافا على شخصية الرجل الصالح هل هو  
شعيبا أم أنّه غير شعيب؟ ولتبيان ذلك وجب التوقف على حال هذا  
الرجل، وعلى حال شعيب صلّى الله عليه وسلّم، من وصف القرآن  
الكريم لحال كلّ منهما.

فعندما ورد موسى صلّى الله عليه وسلّم ماء مدين وجد  
امرأتين تذودان حيث قال تعالى: { قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي  
حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى هُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ  
رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ }<sup>6</sup>.

فهذا الرجل شيخ كبير ليس له من العصبة من يسقي له  
غنمه، ممّا يضطره إلى الاعتماد على ابنتيه في سقي أغنامه وربّما رعيها،  
إذ لو كان له عصبة ما، أبناء أو قبيلة أو عشيرة لأوكل إليهم ذلك، أو  
لضمّ غنمه إلى ماشيتهم على الأقل.

---

<sup>6</sup>القصص 23، 24.

وَأَمَّا شَعِيبٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} 7.

فقوم شعيب يرونه فيهم ضعيفا، ولكن هذا لا يكفي لإيذائه بالرجم أو غيره، ذلك أنّ خلفه عصابة أشداء، ويبدو أنّ منهم على دينه ممن اتبعه وأنّ رهط شعيب، يحبّون شعيبا، فلما اجتمع مناعة رهطه وحبهم له، لم يجرأ قومه على إيذائه لأنّ هيبة رهطه استمكنت من نفوس قومه؛ فامتنعوا عنه.

إنّ شعيبا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما أراد أن يسوق العبرة لقومه من أجل الاتعاض والعدول عمّا هم عليه من البخس والتطيف وأكل أموال الناس بالباطل، ذكرهم بالأقوام السابقة عليهم ممّن عصوا والمصير الذي آلوا إليه من الأقدم نزولا إلى أقرب قوم لهم زمنا، حيث قال: {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} 8.

فقد تسلسل معهم من قوم نوح إلى قوم هود إلى قوم صالح، ثمّ قال وما قوم لوط منكم ببعيد، والبعيد يحمل معنيين، وقد بيّنا البعد المكاني والزّماني؛ ومن طبعي أنّ البعد الزماني هو المقصود أكثر من البعد المكاني لأنّ البعد الزماني هو الذي يحمل الخبر العبرة من أجل الاتعاض، وليس المكان، فإن كان نوح وهود وصالح وأقوامهم بعيدون عنكم ويفصل بينكم وبينهم زمن طويل، فإنّ قوم لوط ليسوا منكم ببعيد.

---

<sup>7</sup>هود 91.

<sup>8</sup>هود 89.

ومعلوم أنّ لوطا صلّى الله عليه وسلّم قد عاصر إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، فهم ليسوا بعيدين عن إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم.

إنّ كلّ الرّسالات السماوية جاءت لكي تصحح ما انحرف وتعيد الأمور إلى ما كانت عليه، فالانحراف الذي وقع يجب أن يقوم وهذه هي مهمة الرّسول المرسل، ونحن بصدّد رسالة النبي شعيب صلّى الله عليه وسلّم نرى أن دعوته تشعبت، فإنّ دعوة شعيب صلّى الله عليه وسلّم كانت أوسع من دعوة الرّسل من قبله هوّدٍ وصالح عليهم السّلام إذ كان فيها تشريع أحكام فرعيّة ذلك أنّها لم تعالج قضية واحدة، بل كانت قضايا متعددة، فقد انغمس النّاس في الكفر والظلم، وأصبحت حياتهم الاقتصادية تسير في نهر من الحرام ليس له بداية ولا نهاية، هذه الأنهار المتعددة لا يمكن تركها تجري دون وقفها وان لم تقف فيجب تجفيفها حتى لا يبقى الكفر والمعصية يدبون في الأرض كما تدب الحياة في شرايين النّاس، ولهذا جاءت دعوة شعيب صلّى الله عليه وسلّم من أجل الإصلاح وان لم يتحقّق الإصلاح فتكون الدعوة حجّة عليهم يوم القيامة، إذ يقول تعالى: { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَعَرَّهْتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ذَلِكَ أَنَّ لَمْ يَكُنْ رُبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ }<sup>9</sup>.

وإضافة إلى ما تقدم فقد تناول البحث مسائل إشكالية نأمل أنّنا قد وفقنا الله تعالى في الوصول بها إلى نتيجة من خلال المقارنة والتحليل، وبخاصة على سبيل المثال هل أنّ شعيب صلّى الله عليه وسلّم كان معاصرا لموسى صلّى الله عليه وسلّم، أم أنّ الذي زوج ابنته

---

<sup>9</sup> الأنعام 130 – 131.

لموسى هو الشيخ الكبير، ومسائل أخرى سيقف عليها القارئ في ثنايا البحث.

لقد كاد القرآن الكريم أن يكون المصدر الوحيد الذي اعتمدناه في بحثنا إلا ما ندر من كتب أغنت البحث بالمعلومة من بعض كتب الحديث التي تعزز النتائج.

ونحن نأمل ممن يرى اختلافا معنا وله رأي مغاير فيما توصلنا إليه من نتائج وله حجة علينا في ذلك، أن يقدم لنا الحجة المقنعة التي تدعونا إلى العدول عما ذهبنا إليه من رأي أو ما خلصنا به من نتيجة، فإنها قابلة للنقاش مع من له علينا دليل يقيم به الحجة علينا، حيث لا حجة مطلقة إلا ما جاء في كتاب الله تعالى، وفق كل ذي علم عليم.

لقد بذلنا ما وسعنا من البحث والتمحيص والتدقيق والتحليل إلى أن خرج البحث على هذه الصورة بهذه النتائج التي توصلنا إليها، ولكل مجتهد نصيب، فمن اجتهد وأخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران، والله نسأل أن نكون من أصحاب الإصابة والله وليّ التوفيق وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

أد عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

## شعيب

### من وحي القرآن

شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبياً من أنبياء الله الكرام يأمر بالحقّ ويحرض على اتباعه من أجل أن تسود الفضائل الأرض وتسود علاقات الناس في قومه قيم المحبة والمودة والأخوة التي تدعو إلى التي هي أحسن وأقوم.

لقد كان شعيب في قومه داعياً لتوحيد الله وعبادته لا شريك له، قال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} 10.

إذا بُعث شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لدعوة القوم لعبادة الله واحد أحداً، ولقد بُعث رسولا بالبيّنة التي ترشد للحقّ والطريق المستقيم، ومع ذلك لم يستجيب كلّ القوم بل أكثرهم كانوا كافرون ومقللون الكيل ومطففون للميزان، ولذا فالبيّنة التي تهدي للتي هي أحسن تنص وتستوجب إيفاء الكيل والميزان وهم في ضلالهم ماكتنون.

وكذلك بيّنة شعيب تدعو إلى الإيفاء التام، والقوم يفضلون بخس الناس أشياءهم، والبيّنة تستوجب الإصلاح في الأرض وإصلاح ما أفسده المفسدون والفاسدون والقوم على أغليبتهم مفسدون فاسدون.

---

<sup>10</sup>الأعراف 85.

لقد بُعث شعيب بالبيّنة هاديا لقومه من الفساد إلى الإصلاح  
ولكن أكثرهم على ديانة آباؤهم ضالين، قال تعالى: {وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ  
صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا  
وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَإِنْ  
كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا  
حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} 11.

ولأنّ الضالين من قومه هم الأكثرون جلس من جلس منهم  
في الطرقات ليكفروا من آمن من القوم بعد إيمانهم، وقعدوا بكلّ  
صراط يصدّون من يحاول أن يؤمن إذا أحسوا بذلك، ومع ذلك لم  
يقنط شعيب من الدعوة بالبيّنة التي هي أحسن وأقوم وأرشد.

ومع أنّ الكفرة والمشركين والمفسدين هم على الكثرة إلا أنّ  
شعيبا كان باذلا للجهد في سبيل الدعوة للحقّ بالحقّ؛ فكان مبشّرا  
وداعيا بالتي هي أحسن وهم على ضلالهم باقون مكذبون حتى حكم  
فيهم الله وهو خير الحاكمين (فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير  
الحاكمين).

وعليه: لقد نجي الذين صدّقوا شعيب وخسر الذين كذبوه  
مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ  
شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ  
الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ  
الْخَاسِرِينَ} 12.

---

<sup>11</sup>الأعراف 85، 86.

<sup>12</sup>الأعراف 90، 92.

ومع أنّ شعيبا كان ناصحا لقومه بالهداية إلا أنّهم أصروا على الكفر والضلال حتى وقعوا في الهلاك.

غاية شعيب في الأرض هي الإصلاح فعمل على إصلاح قومه ما استطاع إليه سبيلا، { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَن أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ } 13.

لقد كانت أساليب الهداية والدعاية من شعيب لقومه متنوعة بين ترغيب وترهيب وبين ضرب مثل لعلهم يقتدون ويعتبرون ولكن أغلبهم ضلوا فساء القوم الضالون بضلالهم ونعم القوم المهتدون باهتدائهم، قال تعالى: { وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَّوِطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُجْزِيهِ وَمَن هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتِ ثَمُودُ } 14.

ولأنّ شعيبا رسول مُرسل فهو داع للهداية بلا قنوط ولا يأس، فقد اتهمه قومه بالكذب كما اتهمه بالمسحور الذي لم يبلغ العقل

<sup>13</sup> هود 88.

<sup>14</sup> هود 89 95.

المتوازن لما يقول، ولأنه صلى الله عليه وسلم رسول مُرسل فهو من المصطفين الأخيار أصحاب الرّسالات البيّنة الخالدة وأصحاب الحكيم والمواعظ الحسنة؛ فكانت النتيجة على عكس اتهامات قومه له مصداقا لقوله تعالى: {وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَةَ الْأُولِينَ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} 15.

وعليه فالنبي شعيب عادل وحاق للحق وذلك لأنه متخذ صفة الحق من الحق جلّ جلاله، ولهذا فالحق يستوجب القول كونه شهادة لا تكتم. قال تعالى: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} 16، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} 17

ولأنه صفة تنزيهه قال تعالى: {وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} 18. (وامنوا بما أنزلت مصدقا) الذي أنزله هو الحق، وهنا يعد الحق فعل وصفة لموصوف

<sup>15</sup> الشعراء 184 190.

<sup>16</sup> البقرة 283.

<sup>17</sup> البقرة 159.

<sup>18</sup> البقرة 41 44.

بالفعل المسمى به. ثم جاء الأمر في قوله: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ  
وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَثْلَوْنَ  
الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)، هذه الآيات الكريمة السابقة جاءت دالة على  
الحقوق الآتية:

. الصلاة حق.

. إيتاء الزكاة حق.

. الركوع للحق حق.

. إتباع البر حق.

. تلاوة الكتاب حق.

. العمل بما جاء في الكتاب حق، مصداقا لقوله: (أَفَلَا  
تَعْقِلُونَ) أي أفلا تدركون الحق وهو بين بين أيديكم كما نزل، ومن  
يدرك الحق ليس له بد إلا أن يعمل به، أي أن تبيانه لأجل الأخذ به  
قول وفعل وسلوك وتشريع.

ولأن الكتاب جاء به الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه  
تنزيل من الحق العزيز، فإن ما جاء به الرسول هو الحق الواجب  
أخذه، قال تعالى: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا  
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } 19.

نعم الحق هو الله وهو أيضا أمر النبي صلى الله عليه وسلم وما  
جاء به من الحق وهو القرآن الكريم، أما أهل الباطل فقد كذبوا  
بالقرآن وهو كلام الله الحق وكذبوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو

---

<sup>19</sup> الحشر 7.

الحق، ويمثل أهل الباطل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم اليهود ومن شاكلهم ويمثلهم الآن من سار على نهجهم في رفض الحق بطرا وحقدا من عند أنفسهم فيقول الحق تعالى في كتابه الحق: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} 20.

وأهل الباطل من أهل الكتاب رفضوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم لأجل المال والسلطة الدنيوية وقد قال الله عز وجل في كتابه لهم: ﴿وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} 21، ولكن هذا الموقف الراض للحق لم يكن له مبرر منطقي يبرره إلا الحقد والحسد اللذين هما منطلق الضعيف الذي لا حجة له، مع تمنيه أن يعود أصحاب الحق وأهله عن حقهم ويرتدوا إلى الجهل والباطل الذي يتمثل في الشرك بالله وعبادة أحجار وأصنام وخلق من خلق الله لا ينفعون أنفسهم ولا يضرهم غيرهم، قال تعالى: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ

<sup>20</sup> البقرة 39 46.

<sup>21</sup> البقرة 41، 42.

الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ  
أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا  
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ  
فَاعِلِينَ فَلْنَا يَا نَارُ كُوبِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} 22. وهكذا فهم  
يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين، قال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ  
خَيْرُ الْمَاكِرِينَ وَإِذَا تُنذِرَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ  
هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ  
مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَا  
كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ  
يَسْتَغْفِرُونَ} 23 نعم هو الحسد ولا غيره كما قال الله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ  
مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ  
أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ  
إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 24.

وفي معركة الإيمان ضد الكفر معركة الحق ضد الباطل يقذف  
الله بالحق على الباطل فيزهقه ويبطله، وأساس هذه المعركة ومن أول  
أسبابها أن قال أهل الباطل زورا وبهتاناً إن لله زوجة أو ولداً أو أن له  
شريكاً في الملك والإلهية وكل ذلك باطل يرده الله بقوله الحق فيقول  
تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ  
نَتَّخِذَ هَوًا لَّآخُذْنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى  
الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ وَلَهُ مَنْ فِي  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا

22 الأنبياء 59 69.

23 الأنفال 30 33.

24 البقرة 109

يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ  
الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ  
رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمْ اتَّخَذُوا  
مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ  
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ {25.

الحق لا يحقّه إلا الحقّ، والباطل لا يسنده إلا باطل، ولذا  
فالفرق كبير بين من يتصف بالحقّ حتى يسمى به ويتصف وبين من  
يرتكب الباطل حتى يتصف به، وإذا أوضحنا ذلك فإن (الحق لا يحقّه  
إلا الحقّ) يعني:

. الحقّ الأوّل في الجملة السابقة: يدل على التصاق الفعل

بفاعله.

. والحقّ التالية في الجملة السابقة، يدل على المصدر الذي

يُستمد الحقّ منه.

. وكلمة التوسط بين الحقيين (لا يحقّه) تدلّ على أنّ الحقّ لا

يستطيع إحقاقه هو كما هو إلا الحقّ الذي استمد منه.

وفي المقابل لما ذكرنا جاءت الجملة التالية: (الباطل لا يسنده

إلا الباطل)، وهذه الجملة هي الأخرى حقّ، ولكنها ليست الحقّ

الذي جاء بالحقّ، فالباطل الأوّل في جملة ما بين القوسين السابقين،

هي الباطل هو كما هو في ذاته. والباطل التالي للباطل في ذات

الجملة، هو: الفاعل للفعل الباطل، وهو الذي لا تسنده حجّة حقّ.

---

<sup>25</sup> الأنبياء 16، 24.

وقوله عزّ وجلّ: (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما  
لاعبين) معناه ما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما  
بينهما من العجائب للعب واللهو، وسويناها لفوائد منها التفكير في  
خلقهما وما فيهما من العجائب والمنافع التي لا تعد ولا تحصى (لو  
أردنا أن نتخذ لهما) اللهو ضياع الوقت في غير ما يجب، (لاتخذناه من  
لدنا) من عندنا باعتبار كلّ شيء بيده فهو يستطيع أن يفعل ما يشاء  
كما يشاء، ولكنه فعل كلّ شيء لغاية ولهذا لم يكن لا عبا بالشيء  
المخلوق من عنده، وهناك من فسر هذا الأمر في اتجاهات أخرى كما  
هو حال ابن عباس، ونحن لا نفسره بذلك، وهناك من فسره بما في  
معناه لو كان ذلك جائزا في حقنا لم نتخذه بحيث يظهر لكم بل  
نستر، ذلك حتى لا تتطلعوا عليه، وذلك أن النصارى لما قالوا، في  
المسيح وأمه ما قالوا رد الله عليهم بقوله لاتخذناه من لدنا لأنكم لا  
تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لا عند غيره (إن كنّا  
فاعلين) يعني ما كنا فاعلين، وقيل ما كنا ممن يفعل ذلك لأنه لا يليق  
بالرّبوبية بل يعني دع ذلك الذين قالوا فإنه كذب وباطل، (نقذف)  
يعني نرمي ونسلط (بالحقّ) يعني بالإيمان الذي لا يُبطل دليلا وحجّة  
(على الباطل) يعني على الكفر بالحقّ، وقيل الحقّ قول الله أنه لا ولد  
له والباطل قولهم اتخذ الله ولدا (فيدمغه) فيهلكه والدمغ هنا ليس  
مادّي حتى يسيل الدم منه، ولكن تشبيهه بليغ بين قوة الحجّة وفعل  
صاحبها في دحض الباطل الذي لا يقدر الصمود في مواجهة الحقّ،  
ولذا فالمتصف بالحقّ متصف بالقوّة القاهرة للباطل فلا يخاف، والحقّ  
لا بدّ أن يحقّ.

(فإذا هو زاهق) الزهق إبطال والزاهق هو المتولي، والفار من  
الاستمرار في المواجهة، واللغات تلاحقه من كلّ جانب، والمعنى أن

الله يبطل كذبهم بما يبين من الحقّ حتى يذهب ويضمحل ولا يبقى في ميادين المقارعة إلا الحقّ ثابت لا تهزه الرياح ولو أتت من كلّ جانب ومهما عنت فإن الحقّ باق.

ثمّ أوعدهم على كذبهم فقال تعالى (ولكم الويل) يا معشر الكفار والمشركين (مّا تصفون) الله بما لا يليق من عدم القدرة أو الصحابة والولد (وله من في السموات والأرض) يعني عبيدا وملكا وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم (ومن عنده) يعني الملائكة وإنما خص الملائكة وإن كانوا داخلين في جملة من في السموات لكرامتهم ومزيد الاعتناء بهم وهم الذين يأمّانهم به وأحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له شريك في الملك (لا يستكبرون عن عبادته) يعني لا يتكبرون ولا يتعظمون عنها (ولا يستحسرون) يعني لا يراودهم الندم في أنفسهم من طاعة الحقّ وعبادته فهم لا يعيون ولا يتبعون، وقيل لا ينقطعون عن العبادة ثم وصفهم الله تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) لا يضعفون ولا يسأمون ولا ينقصون شيء في عبادتهم له وتسييحهم بأسمائه وصفاته الحسان، وذلك أن تسييحهم متصل دائم لا يفتري في جميع أوقاتهم لا تتخلله فترة بفرغ أو شغل آخر قال كعب الأحبار التسييح لهم كالنفس لبني آدم {أم اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ} 26 يعني الأصنام من الحجارة والخشب وغيرهم ممّا يتخذون شركاءهم يعتقدونها تقربهم إليه زلفى قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ

---

<sup>26</sup> الأنبياء 21.

صَالِحًا فَأَوْلِيكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي العُرْفَاتِ آمِنُونَ  
وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي العَذَابِ مُخَضَّرُونَ قُلْ إِنْ  
رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ  
فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ {27} وقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ  
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ  
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ  
يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ  
كَفَّارٌ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ  
هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى  
النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي  
لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَفَّارُ {28}.

وقوله: (هم ينشرون) يعني يحيون الأموات إذ لا يستحق  
الإلهية إلا من يقدر على الإحياء والإيجاد بأبلغ وجوه النعم، وهو الله  
عزَّ وجلَّ (لو كان فيهما) في السماء والأرض (آلهة إلا الله لفسدتا)  
بالتأكيد لو كان هناك شريك أو شركاء لكان لكل شريك حصة، وله  
في كل حصة رأي، ممَّا يظهر الخلاف، ويؤدِّي إلى الخصام والنزاع  
وهذه الصفات صفات بشرية لا علاقة لها بالصفات الربانية، والحقّ  
دائمًا وأحد أحد لا يمكن أن يكون أكثر من ذلك، فإن زاد عن  
الواحد ظهر الخصام، والواحد الأحد لم يكن طرفًا في مواجهة آخرين  
بل هو الواحد الذي خلقهم جميعًا والحمد لله إنه الواحد الأحد الذي  
لم يكن له شريك في الملك، ولم تكن له صاحبة والولد.

<sup>27</sup> سبأ 34 . 39.

<sup>28</sup> الزمر 2 . 4.

كلّ أمر صدر عن الاثنين فأكثر لم يجر على النظام المطلق،  
والحقّ جلّ جلاله في قوله مطلق وفي فعله مطلق وفي واحدتيه مطلق،  
وفي هذا الأمر قال الإمام فخر الدين الرازي: "القول بوجود إلهين  
يفضي إلى المحال، فوجب أن يكون القول بوجود إلهين محالاً، وإمّا قلنا  
إنّه يفضي إلى المحال لأننا لو فرضنا وجود إلهين، فلا بدّ وأن يكون كلّ  
وأحد منهما قادراً على كلّ المقدورات، وهذا محال"29.

وإبطال الحقّ يكون بكلمة صغيرة لا قيمة لها يتلقفها أهل  
الباطل فيغرسونها في أرض الزور والبهتان والكذب وهذه لا يمكن أن  
تنبت شجرة مثمرة، ومن ينتظر ثمارها فليس له من المجاعة والفاقة  
فك، ولا من الموت مفر، وهذا الأمر الذي يفضي إلى نشر الباطل  
ومحاربة الحقّ قد نبّه الله عليه في كتابه الكريم بقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ  
الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا  
شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا  
حَسَنًا مَّا كَثِيرٍ فِيهِ أَبَدًا وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ  
عِلْمٍ وَلَا لِإِبْنَائِهِمْ كَثِيرَةٌ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا  
كَذِبًا}30.

نعم فقد كبرت كلمة الباطل وتعاضم إفكها وزورها وكذبها،  
لذلك قد وضّح النبي صلّى الله عليه وسلّم خطورة قول الكذب والزور  
وجعله من أكبر الكبائر: فعن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه رضي  
الله عنه قال: قال النبي صلّى الله عليه وسلّم "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر  
ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشرāk بالله وعقوق الوالدين

<sup>29</sup> تفسير الخازن، 4 ص 392.

<sup>30</sup> الكهف 1 . 5.

وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِمًا فَقَالَ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ قَالَ فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ "31.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأَكْبَرَ الْكِبَائِرِ، قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: الْإِشْرَاقُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَكَانَ مُتَّكِمًا فَجَلَسَ فَقَالَ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ لَا يَسْكُتُ "32.

فأكبر الزور نما من كلمة صغيرة من أفواه أهل الباطل بأن ادعوا للرحمن ولدا، وصاحبة، وغير ذلك من الإفك والكذب، ومن الزور كتمان الحق، وقلنا أن الله الحق هو الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

والله أرسل الرسل لتصحيح الزور ونقض الباطل الذي أعلاه الكفر والشرك وجاءت رسالة الإسلام لتعيد البشرية إلى الفطرة السليمة بإعلان أن الله وأحد أحد وهذا يظهر من أول ما يبدأ به الإنسان بالدخول في الإسلام فإنه يقول: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله) وهذا قول الحق وذروته، ثم يتأتى الاعتراف والإقرار بباقي الحقوق التي منها أن الأنبياء حقّ والموت حقّ والساعة حقّ والملائكة حقّ، ولكن من أكبر الزور والافتراء الكذب على الله والكذب على الأنبياء، قال الحقّ تبارك وتعالى: {الَّذِينَ اتَّيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ

<sup>31</sup> صحيح البخاري، 9 ص 136.

<sup>32</sup> صحيح البخاري، ج 18 ص 372.

فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ {33}.

قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ حَسَبُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ {34}.

وعليه فإنَّ أشد الناس عنادا وأخطوهم فعلا وأعظمهم كفرا من اختلق على الله كذبا فزعم أن له شريكا من خلقه وإلها يعبد من دونه كما قال المشركون من عبدة الأصنام، أو ادعى أن له صاحبة وولدا كما قالت النصرى أو كذب بآياته، التي تعد حجة حق على أمر واقع، كما كذبت اليهود بمعجزات الأنبياء وقيل معناه أو كذب بآيات القرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم (إنه لا يفلح الظالمون) أنه لا ينجح القائلون على الله الكذب والمفترون على الله الباطل {35}.

<sup>33</sup> الأنعام 20، 21.

<sup>34</sup> الأنعام 20، 26.

<sup>35</sup> تفسير الخازن، 2 ص 378.

وفي ذات السياق يقول الحقّ جلّ وعلا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يُفَصِّحُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَإِنَّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ 36.

ومدلول "حقّ" لها معان عدة ومن ذلك ما ورد في الكتاب الكريم، في قوله تعالى: (قال الذي حقّ عليهم القول) أي ثبت، وقوله تعالى (ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين) أي وجبت وثبتت وكذلك (لقد حقّ القول على أكثرهم) وحقّ الأمر يحقّه حقّا وأحقّه كان منه على يقين تقول حققت الأمر وأحققته إذا كنت على يقين منه 37.

والحقّ في معناه ما يعاكس معنى الباطل دلالة وإرشادا، وفي التنزيل: (ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحقّ) وقوله تعالى: (ولو اتبع الحقّ أهواءهم)، الحقّ لا يعرف إلا بأنه الحقّ، سواء أسمى أو صفة أو فعل، ولهذا فللحقّ دائما الصفات الحسان، والحقّ أيضا يتوحد مع الذات ويتوحد مع القول ويتوحد مع العمل ويتوحد مع السلوك ويتوحد مع الفعل، وعندما يتم التوحد به يأخذ المتوحد به صفة الحقّ الذي لا يتبدل (هو كما هو) ولذا فإن الله الحقّ مطلق، وقوله مطلق وفعله مطلق، وقوله تعالى (وجاءت سكرة الموت بالحقّ) معناه جاءت السكرّة التي تدل الإنسان أنه ميت بالحقّ بالموت الذي خلّق له،

<sup>36</sup> الأعراف 35. 37.

<sup>37</sup> لسان العرب، ج 10، ص 49.

وروي عن أبي بكر رضي الله عنه وجاءت سكرة الحقّ أي بالموت والمعنى واحد وقيل الحقّ هنا الله تعالى وقولُ حقّ وُصِفَ به كما تقول قولُ باطل، وقوله تعالى: (ذلك عيسى بنُ مريم قول الحقّ) إنّما هو على إضافة الشيء إلى نفسه، وفي الحديث أنه أعطى كلّ ذي حقّ حقه ولا وصيّة لوارث أي حظّه ونصيبه الذي فُرِضَ .

وكلّ ما كان في القرآن من نكرات الحقّ أو معرفته أو ما كان في معناه مصدرا فوجه الكلام فيه النصب كقول الله تعالى وَعَدَّ الْحَقُّ ووَعَدَ الصِّدْقِ.

والحقيّة ما يصير إليها حقّ الأمر ووجوبها وبلغ حقيّة الأمر أي بلغ اليقين في الحقيّة<sup>38</sup>.

والحقيّة تعني ظهور الحقّ بشكلّ جلي ولذلك لا يبلغ المرء الحقيّة إلا بحب الحقّ وقول الحقّ وعمل الحقّ والإيمان بالحقّ.

والحقيّة هي كما هي كاملة قد لا يكون بلوغها بالكمال ولكن بلوغها وفقا لدائرة النسبية، وفي الحديث: "لا يبلغ المؤمن حقيّة الإيمان حتى لا يعيب مسلما يعيب هو فيه" وهذا يدل على خالص الإيمان ومحضه وكُنْهه وعن حقيّة الإيمان ممّا ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الكثير لأن الإيمان الحقّ يصل بالمرء إلى معرفة الحقّ ومن قول النبي صلّى الله عليه وسلّم في ذلك: عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ"<sup>39</sup>.

---

<sup>38</sup> المصدر السابق.

<sup>39</sup> مسند أحمد، ج 56 ص 26.

عن عطاء بن يسار قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم:  
"من قال حين يمسي: رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً،  
فقد أصاب حقيقة الإيمان" 40.

وعن ميمون أبي عمر، قال: "لا يصيب عبد حقيقة الإيمان  
حتى يدع المرء، وإن كان محمّلاً" 41.

وعن عمرو بن الحمق قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه  
وسلّم: «لا يحقّ العبد حقيقة الإيمان حتى يغضب لله، ويرضى الله،  
فإذا فعل ذلك فقد استحقّ حقيقة الإيمان، وإن أحبائي وأوليائي  
الذين يذكرون بذكري، وأذكر بذكرهم" 42

قال الحسن: "ابن آدم كيف تكون مؤمناً ولا يأمنك جارك؟  
ابن آدم كيف تكون مسلماً ولا يسلم الناس منك؟ ابن آدم لن  
تصيب حقيقة الإيمان في قلبك حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك،  
حتى تبدأ بإصلاح ذلك العيب، فإذا فعلت ذلك لم تصلح عيباً إلا  
وجدت آخر، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة بدنك، وخير  
عباد الله من كان كذلك" 43.

وقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم: "ثلاث من كن فيه  
وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه ممّا سواهما وأن

---

<sup>40</sup> مصنف ابن أبي شيبة، ج 7 ص 42.

<sup>41</sup> الإبانة الكبرى لابن بطة، ج 2 ص 157.

<sup>42</sup> المعجم الأوسط للطبراني، ج 2 ص 161.

<sup>43</sup> شعب الإيمان للبيهقي، ج 14 ص 280.

يحب المرء لا يحبه إلا الله وألا يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه  
كما يكره أن يلقي في النار"44.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "ثلاث من كن فيه فقد ذاق طعم الإيمان من كان لا شيء أحب إليه من الله ورسوله ومن كان أن يحرق في النار أحب إليه من أن يرتد عن دينه ومن كان يحب الله ويغض الله"45.

عن ابن عمر عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "خمس من الإيمان من لم يكن فيه شيء منها فلا إيمان له التسليم لأمر الله والرضا بقضاء الله والتفويض إلى أمر الله والتوكل على الله والصبر عند الصدمة الأولى ولم يطعم امرؤ حقيقة الإسلام حتى يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم فقال قائل: يا رسول الله أي الإسلام أفضل قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده علامات كمنار الطريق شهادة أن لا إله إلا الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحكم بكتاب الله وطاعة النبي الأمي والتسليم على بني آدم إذا لقيتهم"46.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ثلاث من كن فيه استوجب الثواب واستكمل الإيمان خلق يعيش به في الناس، وورع يحجزه عن محارم الله، وحلم يرده عن جهل الجاهل"47.

وحقيقة الرجل ما يلزمه حفظه ومنعه ويحق عليه الدفاع عنه  
من أهل بيته، والعرب تقول فلأن يسوق الوسيقة وينسل الوديقة

---

44 صحيح مسلم ج 1، ص 48.

45 المعجم الأوسط للطبراني، ج 11، ص 133.

46 مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج 1، ص 63.

47 مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج 1 ص 27.

ويَحْمِي الحَقِيقَةَ فالوَسِيقَةُ الطَّرِيدَةُ من الإِبِلِ سُمِيت وَسِيقَةً لأن طَارِدَهَا يَسْفُهَا إِذَا سَاقَهَا أَي يَفْبِضُهَا وَالوَدِيقَةُ شِدَّةُ الحَرِّ والحَقِيقَةُ مَا يَحْقُّ عَلَيْهِ أَن يَحْمِيَهُ وَجَمَعَهَا الحَقَائِقُ.

والحَقِيقَةُ فِي اللُّغَةِ مَا أُقِرَّ فِي الاسْتِعْمَالِ عَلَى أَصْلِ وَضْعِهِ وَالمِجَازُ مَا كَانَ بَضْدَ ذَلِكَ وَإِنَّمَا يَقَعُ المِجَازُ وَيُعَدَّلُ إِلَيْهِ عَنِ الحَقِيقَةِ لِمَعَانٍ ثَلَاثَةٌ وَهِيَ:

1 . الاتساع.

2 . والتوكيد.

3 . والتشبيه فإن عُدِمَ هذه الأوصافُ كانت الحَقِيقَةُ البَتَّةَ

وَمِنَ اللُّغَةِ وَدَلَالَتِهَا يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ "الحَقُّ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ وَتَجَلٍّ مِنْ تَجَلِّيَاتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَرِيدُ أَنْ يُوَكِّدَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَنَّهُ حَقٌّ، فَالْقُرْآنُ الكَرِيمُ حَقٌّ وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، وَلَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ لِأَنَّه قَوْلُ اللَّهِ الحَقِّ المَنْزَلُ عَلَى الرِّسُولِ الحَقِّ المَتَّعِدِّ بِهِ تَعَبُدَ الحَقِّ، وَهُوَ مَنْهَجُ الأُمَّةِ الَّتِي لَا تَبْغِي إِلَّا الحَقَّ وَتَوَكَّلُ بِالحَقِّ فِي دَارِ الِاخْتِبَارِ وَدَارِ الِاعْتِبَارِ.

وَعَلَيْهِ فَإِنَّ الحَقَّ المَطْلُوقَ مَخْتَصًّا بِاللَّهِ، وَالحَقُّ بِالإِضَافَةِ نَسْبِيٌّ وَصَاحِبُهُ هُوَ الخَلِيفَةُ الَّذِي يُؤْمِنُ بِالحَقِّ رَبًّا أَعْلَى، وَمِنْ خِلَالِ الإِيمَانِ بِالحَقِّ رَبًّا يَتَأْتَى الإِيمَانُ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَسُولًا حَقًّا مِنْ لَدُنِ الحَقِّ العَلِيِّ، ثُمَّ يَتَأْتَى الإِيمَانُ بِالحَقِّ كِتَابًا وَمَنْهَجًا، ثُمَّ الإِيمَانُ بِالحَقِّ غَيْبًا نَعِيمًا وَجَحِيمًا، جَنًّا وَمَلَائِكَةً، وَبِالعَمُومِ غَيْبًا وَشَهَادَةً.

- الله سبحانه هو الحق المطلق في الدنيا وفي الآخرة وَسَتُرَدُّ  
إليه الأعمال وأصحابها فيحكم بينهم بالحق لأنه أسرع الحاسبين ولا  
يظلم من لديه مثقال ذرة أو أصغر لأنه الحق يقول الله تعالى: { وَهُوَ  
الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى  
أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ وَهُوَ الْقَاهِرُ  
فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ  
رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ لَا لَهُ الْحُكْمَ وَهُوَ  
أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ } 48، فعندما تقبض أرواح الخارجين عن المنهج الحق  
ويعرضون على الله الملك الحق المبين الذي ليس في ظهور استحقاقه  
ملكه منازع يحكم بين الجميع بالحق ليحقق الحق بكلماته { وَإِذْ يَعِدُكُمُ  
اللَّهُ أَحَدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ  
لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ  
وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ } 49. وعد الله هو الحق، وذلك  
لثبوت حدوثه، في الزمان والمكان المحددين له، فعندما يأتي حقه يحقه  
ولو كرها ذلك الحق المجرمون،

ومن الآيات السابقة يتبين أن خليفة الاسم الحق يؤمن بالآتي:

1- الحق إرادة الله سبحانه وتعالى.

2- الله يمكِّن ويهيئ لأصحاب الحق الوصول إلى مبتغاهم.

3- إرادة الله سبحانه وتعالى متحققة لا محالة لأنه؛ { بَدِيعُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } 50.

<sup>48</sup> الأنعام 60 . 62.

<sup>49</sup> الأنفال 7، 8.

<sup>50</sup> البقرة 117.

ولا راد لإرادته ومشيتته فهو سبحانه قد خلق الخلق من دون معين ولا شريك إبداعا لا على مثال سابق، وأنزل الإنسان على الأرض لحكمة وهي تعميمها بالحق لا بالباطل وهذه إرادته ولا يعجزه فيه أحد لأنه القائل الحق: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}، الذي بيده الأمر والملك بطبيعة الحال إذا أراد شيئا أن يكون حركة وزمانا يكون في الحال مع فعل الأمر (كن) الذي لا يحدث إلا بمشيئة الخالق محق الحق جل جلاله، ولأن إرادته متحققه فهو سبحانه وتعالى يسعد فريق الحق ويشقي فريق الباطل بما قدمت أيديهم وهنا لا ينفعهم باطلهم من فكرة باطلة ومن آلهة باطلة التي كانوا يتخذونها من دون الله وفي هذا إنذار لمن يتعد عن منهج الحق ويحيد عنه، وفي ذلك القول الحق دليل دامغ يؤكد أن المؤمن بالحق سيلقى جزاء عمله سعادة مقيمة في يوم يجمع الله فيه الفريقين ويكون الشقي بعمله الإفسادي والسعيد برحمة الله والعمل الصالح، وهذا اليوم الحق الذي يبرز فيه الحق ويختفي فيه الباطل، وهذه إرادة الله وهي نافذة لا راد لها، ويبين ذلك بشكل جلي قول الله تعالى: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِيلٍ وَكَذَلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ

جَذُودٍ {51 ويقول تعالى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ} 52.

4- يريد فريق الباطل أن يفسدوا في الأرض وهؤلاء هم الكافرون المجرمون الذين قال الله فيهم: (لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ).

5- الهدف الذي يسعى إليه المتحقق والمتخلق بمنهج الحق يتمثل في:

أ. إحقاق الحق في كافة صوره.

ب. القضاء على الكافرين المجرمين بالحق.

والحق الذي يريد الله أن يحقّه هو الإسلام بمعنى التسليم لله والانقياد له بطاعة أوامره واجتناب نواهيه وإتباع سنن أنبيائه المشمولة في سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم منهجا قرآنيا وتنفيذا محمديا وإتباعا صادقا، وبهذا يتحقق الحق في كافة صوره لأن الإسلام ما ترك قضية إلا ووضع لها حلا، وبهذا يقوم الحق وتكون الخيرية في الخلافة المتمثلة في خير أمة أخرجت للناس التي يشهد عليها قول الله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} 53.

<sup>51</sup> هود 101. 108.

<sup>52</sup> البروج 12. 16.

<sup>53</sup> آل عمران، 109. 111.

فقوله الحقّ يتعدد في هذه الآيات الكريمة:

1. (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) إنه الحقّ.
2. (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) إنه الحقّ.
3. (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) إنه الحقّ.
4. (تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) إنه الحقّ.
5. (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ) إنه الحقّ.
6. (منهم المؤمنون) إنه الحقّ.
7. (وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) إنه الحقّ.
8. (وَإِنْ يُقَاتِلُواكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ) إنه الحقّ.

ولأنّ الحقّ بيّن والباطل بيّن، جاء قوله لا إكراه لأي إنسان في أن يتبع أو يُتبع بالإكراه، والحقّ في أساسه ليس في حاجة لمدافعين عنه، الحقّ هو خير من يدافع عن حاله، ولكن الحقّ في حاجة لمن يظهره ويبشر به وينذر ويحرض، ولكلّ من هذه القيم والفضائل الإنسانية أسباب ودواعي تستوجب مراعاة الزمان والمكان المناسبين للقول والفعل والسلوك، قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} 54. بعد أن بيّن الله قوله في رسالته الخاتمة وأظهره على العالمين به فسيظل في اللوح المحفوظ الذي لا يدخله الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، ولذا فقد نهي

---

54 البقرة 256.

الحقّ عن الإكراه في الدين الحقّ، الذي لم يعد خافيا على أحد من العالمين، ولهذا فالمستمسكين بالحقّ هم على حقّ، والمستمسكين بالباطل هم على باطل، ولكلّ ثوابه، أو عقابه. ولا تزروا وازرّة وزر أخرى قال تعالى: {قُلْ أَعْيَزَ اللَّهُ أَنْعِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ} 55.

فأمة الحقّ يطمئنّها ربّها بالحقّ الذي لا يقبل جدالا ولا نزاعا بأنّ السماوات والأرض له وحده دون شريك، والأمر كلّه يرجع له عزّ وجلّ ويلخص الأمر في الآتي:

1- لله أمر السماوات والأرض بالحقّ وإليه يرجع أمر الخلق جميعا ثوابا على طاعتهم وإتباعهم المنهج الصحيح وتعميرهم الأرض ومحاربتهم الباطل في كلّ أشكاله، وعقابا لأهل الباطل الذين حاربوا الحقّ وأهله.

2- الأمة التي تتبع الحقّ هي خير أمة، مصداقا لقوله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِجَبَلٍ مِنَ اللَّهِ وَجَبَلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِعِزِّ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا

<sup>55</sup> الأنعام 164، 165.

عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}56، وهذه الخيرية التي هي خير أمة لها تستوجب من المستخلفين في الأرض أن لا يغفلوا عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومن أعظم الأمر بالمعروف: الإيمان بالله وأحداً أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وهذا هو حق الله على العباد، كما أن لهم على الله حق إن هم أدوا حق الله وهذا ما وضحه سيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم فعن مُعَاذِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: "كُنْتُ رَدَفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُقَيْرٌ فَقَالَ يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ لَا يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكَلُّوا"57.

ولبُّ الحقِّ عبادة الله وحده دون سواه والانصراف قلباً وقالبا عما سواه فلا يعتقد الإنسان في حجر ولا شجر ولا يتوجه بالعبادة والدعاء إلا لله وحده لأنه لا نافع بحقِّ إلا الله ولا ضار بحقِّ إلا الله ولا حكيم بحقِّ إلا الله وهكذا فهو الحقُّ في أسمائه وصفاته وأفعاله.

ولكن فريق الباطل لم يدرك حقَّ الله على العباد ولم يؤده فعبدوا من دون الله أرباباً باطلة لا تملك من أمر نفسها شيء فكيف تملك من أمر غيرها؟! وهذا الصنف الذي قال الله فيه من خلال خطابه الناس جميعاً: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسئَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ

<sup>56</sup> آل عمران 110 . 112 .

<sup>57</sup> صحيح البخاري، ج 9 ص 459.

اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} 58.

فالباطل الذي هو نقيض الحق له أتباع يحاولون أن يقبلوا الموازين ليطلوا الحق ويحقوا الباطل ولأن ما يعبدون من دون الله باطل فالله سبحانه وتعالى يتحداهم بأن يخلقوا خلقا من أضعف خلق الله- سبحانه في قدرته- وهذا المخلوق على ضعفه إلا إنه لا يستطيع أهل الباطل أن يخلقوا مثله لأنهم على ضلال، ولأنهم على ضلال فالله يتحداهم بأن يخلقوا ذبابا، والله يعلم أنهم عاجزون لأنهم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا فكيف يملكون من أمر غيرهم؟ أما المستخلفون فيها بالحق فهم يؤمنون بأن الخلق من عند الحق تبارك وتعالى، وبالتالي لا يراودهم شك في ذلك.

ويبلغ التحدي الإلهي مبلغا آخر وهذا التحدي يثبت العجز التام للباطل فيقول الله لهم: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} 59.

<sup>58</sup>الحج 73 .78.

<sup>59</sup>الحج 73.

والإيمان بالله واحداً واحداً من أهم ما يؤكد خليفة الحق وإثبات أن الله واحد في ملكه وأن دعوته وولايته حق وأنه كما قال في كتابه الحق: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أوديةً بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئسَ الْمِهَادُ {60}.

ومن هنا فالولاية الحقيقية المطلقة لله الواحد الحق لأن الذي يدعو ربا يدعو بالحق ويعلم أن دعوته غير مردودة، لأن الله عز وجل هو الذي دعاه لذلك بدعوة الحق، ومن هنا فخليفة الحق يعمل جاهداً لإحقاق الآتي:

1 . الله سبحانه وتعالى هو الحق المبين وهو جل وعلا سيوفى الجميع بما عمل ثواباً وعقاباً: وكلمة المبين تعني الواضح الذي لا لبس فيه {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْعَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا

<sup>60</sup> الرعد 14 . 18.

وَالْآخِرَةَ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ  
وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ  
اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ {61}.

2- دحض فريق الباطل الذي يحارب الحق ويدعو من دون  
سلطان أو حجة دامغة. قال تعالى: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ  
بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرٌ مِّمَّنَّا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكِ يَطْبَعُ  
اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} {62}، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ  
يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا  
هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَخَلْقِ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَمَا  
يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ  
قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ} {63}.

3- تأكيد أن الحكم الحق والقضاء الجذ الذي لا هزل فيه من  
خصوصية الحق، لذا فإن الله الحق يدعو نبيه الحق صلى الله عليه وآله  
وسلم، ومن أراد أن يتخلق بالحق ويحقق خلافة الحق بقوله: {إِنَّ رَبَّكَ  
يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ  
الْمُبِينِ} {64}.

أمَّا فريق الباطل فقد نعتة الله بالموت يعني الموت المعنوي فهم  
إن كانوا أحياءً جسداً فهم أموات لأنهم لم يستطيعوا التمييز بين الحق  
والباطل، كما نعتهم بالعمى لأنهم بإتباعهم الباطل أرادوا أن يثبتوا

---

<sup>61</sup> النور 23 . 25.

<sup>62</sup> غافر 35.

<sup>63</sup> غافر 56 . 58.

<sup>64</sup> النمل 79.

الباطل ويدحضوا الحقّ وهذا يؤكد قول الله جل في علاه: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ} 65.

وفريق الباطل قالوا للحقّ لما جاءهم: {وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 66 فمن سار ضد الحقّ فهو فاقد للدراية وبهذا وكأنه ميت وذلك بأسباب غفلة العقل والقلب والسمع والبصر والبصيرة، وهذا الصنف من البشر لا فائدة ترجى منه لأنه أعمى البصيرة في الدنيا وأعمى البصر والبصيرة في الآخرة، وذلك بإعراضه عن الحقّ في الدنيا، والحقّ في الدنيا متمثل في:

<sup>65</sup> النمل، 78، 81.

<sup>66</sup> الأحقاف 7، 14.

1 . التوحيد الخالص لله عز وجل: قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} 67، وقوله تعالى: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 68.

2 . اليقين بالقلب بهذه الوجدانية: قال تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} 69، وقال تعالى: {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} 70.

3 . متابعة اليقين القلبي بالقول الثابت أي بالنطق بكلمة الحق ألا وهي "لا إله إلا الله محمد رسول الله". قال تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَنَسَّ الْقَرَارُ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} 71.

4 . الحق ثابت عال مثل الشيء النافع الذي يثبت في الأرض ويثبت الله لينفع الناس مصداقا لقوله تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ

---

67 الإخلاص 4 . 1 .

68 الحديد 23 .

69 الحجر 98 ، 99 .

70 التكاثر 3 . 8 .

71 إبراهيم، 27 . 30 .

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ  
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَى وَالَّذِينَ لَمْ  
يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ هُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ  
أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}72.

5 . لا فائدة من الباطل وإن أخذ صورة نافعة فهو هاو لا  
أساس له ويذهب وينتهي سريعا دون فائدة، قال تعالى: (فَأَمَّا الزَّبَدُ  
فَيَذْهَبُ جُفَاءً).

6- أهل الحق لهم الثواب العظيم والبشرى بالمغفرة والجنة وهذا  
ثابت بقول الله تعالى: (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَى).

7- فريق الباطل جزاؤه من جنس عمله لأنهم لم يؤمنوا بالحق  
وكذبوه وأرادوا أن يدحضوه بعدم استجابتهم للحق ودعوته وهؤلاء لا  
ينفعهم يوم القيامة أموالهم ولا أبنائهم ليفتدوا بهم من عذاب الجحيم،  
فهم لهم سوء الحساب وسيكون مصيرهم جهنم (وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا  
لَهُ لَوْ أَنَّ هُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ  
الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ).

والخليفة يعلم أن الله هو الحق وأن دينه الحق فهو يستشعر  
الحق ويعمل على ظهوره وبزوجه وإذ كان إحقاق الحق من الله الحق  
بكلماته التي جعل فيها قدرته وإرادته لأنه سبحانه إذا قال للشيء كن  
فيكون فهو، {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ  
كُنْ فَيَكُونُ}73.

<sup>72</sup> الرعد 17، 18.

<sup>73</sup> البقرة 117.

والله هو الحقّ ودعوته الحقّ يقول الله تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ  
وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى  
الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} 74.

ولسان حال الخليفة الذي يسير على منهج الحقّ يقول كما  
ورد في كتاب الحقّ:

{وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي  
لِالْكُفْرِ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَقَّارِ  
لَا جَرَمَ أَمَّا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ  
مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسْتَدْكُرُونَ مَا أَقُولُ  
لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} 75.

فالباطل ليس له أساس في الدنيا ولا في الآخرة، أما الحقّ فله  
الدعوة الصادقة لأنه كما سبق أن بينا فإن الحقّ راسخ في القلب يقينا  
ثابتا بالقول والفعل وذلك لأن الله خلق السماوات والأرض بالحقّ،  
والحقّ أن يعبد وحده دون شريك من صنم أو حجر أو عقل ضال  
قاصر أو إتياع شيطان من شياطين الأنس والجن، والله سبحانه وتعالى  
لما خلق السماوات والأرض بالحقّ وجعل الإنسان في الأرض ليخلفه  
فيها ليعمرها بالحقّ فتفرق الإنسان إلى فريقين:

أ . فريق الحقّ يتبع الحقّ قلبا، ولسانا، وعملا. قال تعالى:  
{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ  
الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا

---

74 الرعد 14.

75 غافر 41 - 44.

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا  
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ {76}.

ب . فريق الباطل الذي وجد في نفسه ضعفا واتبع الشيطان  
أو اتبع أهل الباطل فلم ينفعه ذلك إلا بالخزي في الدنيا والعذاب  
والخسارة في الآخرة ومثل الحق والباطل في هذا الموقف مثل الكلمة  
الطيبة التي هي كلمة الحق والتوحيد والصدق ومثل كلمة الباطل التي  
هي نقيض الحق وهذه الصورة يلخصها الله في قوله تعالى مخاطبا النوع  
الإنساني من خلال خطابه للنبي صلى الله عليه وسلم: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ  
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ  
وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ وَبَرُّوْا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ  
اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ  
شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا  
مِنْ مَحِيصٍ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ  
وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ  
فَأَسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ  
بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ  
وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ حَيْثُ شَاءُوا فِيهَا سَلَامٌ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا  
كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا  
كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ  
كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ  
يُثْبِتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ  
وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ

اللَّهُ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ الْقَرَارُ وَجَعَلُوا  
لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ قُلْ لِعِبَادِي  
الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ  
يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بِنِيعٍ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ  
وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ  
الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ  
وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} 77.

الكلمة الطيبة هي كلمة الحق، وطيبة لأنها تاركة للأثر الذي  
به تطمئن الأنفس، والكلمة الطيبة لا تمت ستظل مع الحق عبر  
العصور، وكل شيء يتغير إلا هي ثابتة صامدة في مواجهة الكلمة  
الظلمة التي دائما اللعنات تلاحق قائلها أو المستشهادين بها أو  
المحتكمين بها. قال تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ  
وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ  
وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الظَّالِمِينَ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ  
خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا  
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ  
إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازدادوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ} 78.

إذن الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة تؤتي أكلها كل حين، متى  
ما يستشهد بها أو يحتكم بها تكون حجة حاققة للحق وزاهقة للباطل،  
والشجرة التي تؤتي أكلها كل حين، ذات منافع كثيرة، ففي دائرة  
الممكن من منافعها الآتي:

<sup>77</sup>، إبراهيم 19 . 33.

<sup>78</sup> آل عمران 85 . 90.

1 . عندما تكون شجرة طيبة وتؤتي أكلها كل حين يستظل بظلها، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} 79، وعندما تكون الكلمة طيبة يحاجج بها حتى تدخل الطمأنينة في القلوب. قال تعالى: {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا} 80. أما عندما تكون الشجرة خبيثة فإن الأمر يختلف، فهي لا تؤتي أكلها وإن أتت فيكون ذا ضرر مثلها مثل الكلمة الخبيثة التي تفرق بين المرء وزوجه وتفسد في الأرض وقد تؤدي إلى سفك الدماء فيها بغير حق.

2 . الشجرة الطيبة النافعة يؤكل من ثمارها، وهي في شبه كبير بالكلمة الطيبة النافعة التي بها يتم تقصي الحقائق وتتبع مكانها في ميادين البحث العلمي والازدياد المعرفي فتضيف الجديد النافع. والشجرة الخبيثة ثمارها كالحنظل وهي المحرمة على المستخلفين فيها قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا

<sup>79</sup> إبراهيم 24 . 27.

<sup>80</sup> النساء 85، 86.

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَىٰ  
 آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ {81، وعليه  
 فالشجرة الطيبة قول الله لآدم: (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكَلَا مِنْهَا  
 رَعَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)، وقوله  
 تعالى: (فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ  
 الرَّحِيمُ)، والكلمة الخبيثة ما قالوه إبليس لأبونا آدم وأمنا حواء (فَأَزْهَمَا  
 الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ)، وقوله تعالى: { كَمَثَلِ  
 الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي  
 أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ } 82.

3 . يغرَس منها في أماكن أخرى، وهي في التشبيه كالسنبلة  
 التي تتضاعف من حبة واحدة مصداقا لقوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ  
 يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ  
 سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ  
 يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَىٰ لَهُمْ  
 أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ  
 خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا  
 تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا  
 يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ  
 فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
 الْكَافِرِينَ } 83. ولذا فالكلمة الطيبة هي كلمة الحكمة مصداقا لقوله  
 تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا

<sup>81</sup> البقرة 34 . 37.

<sup>82</sup> الحشر 16.

<sup>83</sup> البقرة 261 . 264.

كثيراً وما يَدَّكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ {84، إما الكلمة الخبيثة فهي التي تبطل الصدقات قال تعالى: (لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ).

ولأنّ الكلمة الطيبة كلمة حقّ، فهي باقية مثل كلمة التوحيد، واحد أحد، الأوّل والآخر، الملك الحقّ، لا إله إلا هو، محمّد رسول الله، كلمات تامة غير منقوصة، كما حال كلمات الكفر والشرك بالله، ومثل كلمات النفاق والكذب والبهتان.

وكلمة الحقّ ثابتة كالشجرة الثابتة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، ولهذا في المقارنات كلام الله الذي أنزله على عباده الصالحين وأرسل به الرسل مبشرين ومنذرين هو كلام باقي يسمع في الأرض ويسمع في السماء، ولهذا مهما بلغ حجم الشجرة المباركة المشبه بها فإن الكلمة المباركة ذات ظل أكبر وأعظم وإتّما ذات امتداد عظيم، ولهذا فإن كلمة الحقّ تنصف المظلوم لتعيد إليه حقّه وهذا أكبر ظل يمكن له أن يستظل به، الحكم العدل والوزن بالقسطاس قال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَسْبِيَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلَّ

أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْسِرِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ  
الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلَّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ  
مَكْرُوهًا} 85. وفي مقابل ذلك الكلمة الخبيثة التي قال عنها تعالى:  
(كُلَّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا). أي كل ما يخالف ما جاء  
في الآيات الكريمة السابقة هو في محل الشجرة الخبيثة وهي التي عند  
الله مكروهة.

والخليفة من يدعو لظهور الحقّ عاليا بالدعوة الصادقة لله  
ليعيه على ذلك امتثالا لقوله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم:  
{الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى  
رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ هُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ  
رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ إِنَّ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا  
مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مَنْ بَعَدَ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ إِلَيْهِ  
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ  
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ  
وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} 86.

فالثواب والعقاب بيد الله وهذا هو الوعد الحقّ لمن سار على  
المنهج الحقّ أو خالفه والمنهج الذي يسير عليه خليفة الحقّ فيه الآتي:

1- إقامة الصلاة: الصلة علاقة ورابطة عندما تكون بين  
الخليفة وربه تكون بالحقّ على الحقّ وطاعة للحقّ، ومن أهم العلاقات  
صلة بين الخليفة وربه جلّ جلاله، هي الصلة بالصلاة ركوعا وسجودا  
لله وتسليما خالصا بالرسول صلوات الله وسلامه عليه مع إتياء الزكاة

85 الأحقّاف 31. 38.

86 يونس 1. 4.

وحج البيت والصوم في الشهر الكريم الذي انزل فيه الحق القرآن الكريم تكريماً له وتكريماً للصائمين، ولذا فإن هذه العبادات تربط الصلة بين الخالق والمخلوق الذي هو على الطريق المستقيم. قال تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 87، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} 88.

2- تدبر الكتاب: الذي يحوي المنهج الصحيح والفكر المستنير. قال تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} 89، وقال تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} 90.

87 البقرة 3 . 5.

88 البقرة 277.

89 النساء 82، 83.

90 محمد 20 . 24.

3- تحري الصدق: الكذب هو القول الفاقد للمصدقية، أي أنه خالٍ من الحقيقة، وهو تعمد لتجنبها، وقد يترتب على القول الكذب فتنة أو اقتتال قال تعالى: {قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنذِرُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} {91، قال تعالى {وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهِ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصْرِؤُونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} {92، وقال تعالى: {إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ} {93.

وعليه فإن الخليفة هو متحري الصدق في كل الأحوال لأنه لا حقّ دون صدق وجزاء الصدق القبول عند الله تصديقا لقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} {94.

4- التوكّل على الحقّ: ومن يتوكّل على الله فهو حسبه {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} {95، وباليقين يكون الحقّ غالب والباطل زاهق مدحور لا محالة تصديقا لقوله تعالى: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ

<sup>91</sup> يونس 69، 70.

<sup>92</sup> النساء 111 . 113.

<sup>93</sup> النحل 105.

<sup>94</sup> الأحقاف 16.

<sup>95</sup> الأنفال 49.

فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ {96.

5 . الحكم بالعدل: العدل أسم الله، وصفته الحسنة، وفعله الحق، والعدل من عمل به عمل بكلمات الله التامة، ومن لم يعمل به فقد ضل، والحكم العدل هو الذي لا مظالم فيه ولهذا لا يقوم به إلا خليفة قال الله تعالى: { وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا {97.

6 . إيفاء الكيل والميزان: الإيفاء بالكيل والميزان اعتراف بإحقاق الحق ومخافة من باطل، ولهذا من يتبع ذلك يجد نفسه في طاعة ما أمر به الحق تعالى: { وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ {98.

7 . أن لا يزني: الزنا عمل من أعمال الشيطان به تختلط الدماء فتختلط المحرمات مع الحلال وفي هذا إثم كبير، وفيه من الأمراض ما يسبب العلة والموت وفيه فتنة بين من يكتشف أمرهم مع

<sup>96</sup> آل عمران 160.

<sup>97</sup> النساء 58، 59.

<sup>98</sup> الأنعام 152، 153.

المحرمات، قال تعالى: {وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوَاجَ إِنَّمَا كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} 99، وقال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَالَاتُكُمُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَالنِّسَاءُ الَّتِي أَهْلَيْتُمْ فِي كُفْرَانِكُمْ أَنْ تَبْتَاعُوا بِهِنَّ إِنْ أَسْرَيْتُمْ مِنْهُنَّ مِنْكُمْ فَمَا فِيكُمْ مِنْكُمْ وَإِنْ أَسْرَيْتُمْ مِنْهُنَّ مِنْكُمْ فَمَا فِيكُمْ مِنْكُمْ وَإِنْ أَسْرَيْتُمْ مِنْهُنَّ مِنْكُمْ فَمَا فِيكُمْ مِنْكُمْ وَإِنْ أَسْرَيْتُمْ مِنْهُنَّ مِنْكُمْ فَمَا فِيكُمْ مِنْكُمْ} 100.

ولذلك فمن يستعصم يفوز فوزا كبيرا قال تعالى: {قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لَمُنْتَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرْتُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 101.

8 . ألا يسرق: الخليفة هو الذي يستمد صفاته من صفات مستخلفه في الأرض ولذا من يسرق لا صفة له من صفات مستخلفه في الأرض، ولهذا نهى الحق تبارك وتعالى عنه وأوجب حكما مصداقا لقوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ} 102

9 . أن لا يوقد نار الفتنة: الفتنة اشد من القتل فهي تؤدي إلى الفرقة والعداء بين الأقارب، وكذلك بينهم وبين الأبعد، ولهذا

99 الإساءة 32.

100 النساء 23.

101 يوسف 32 . 34.

102 المائة 38، 39.

فالخليفة هو من يصلح ويفلح ولا يوقد نار الفتنة في الأرض التي استخلفه الله فيها، فمن يوقدها لا يكون من المستخلفين فيها، وذلك لأن نار الفتنة تفسد ولا تصلح وتؤدي إلى سفك الدماء، قال تعالى: {لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} 103، وقال تعالى: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ} 104.

10 . أن لا يشرب مسكرا: الخليفة دائما على الحق، وهو للظلم من الكارهين، ولهذا لا يشرب مسكرا حتى لا يفقد صوابه الذي به اهتدى إلى الحق والطريق المستقيم، إنه الذي يتجنب كل ما من شأنه أن يؤدي به إلى فقدان عقله أو ذاكرته التي بها يميز بين الخبيث والطيب والحلال والحرام قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} 105، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ

<sup>103</sup> التوبة 48، 49.

<sup>104</sup> التوبة 46، 47.

<sup>105</sup> البقرة 219.

وَالْمَيْسِرِ وَيُصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ {106}.

11 . أن يعمل على إحقاق الحق وإزهاق الباطل: الحق هو دائما في مرضاة الله، ومرضاة النفس مطمئنة، ولهذا فالخليفة بإقدامه على القول الحق والفعل الحق يرضي ربه عز وجل ويرضي نفسه وضميره، فإحقاق الحق لا يترتب عليه ندم، إما أفعال الباطل فيترتب عليها الندم الشديد، وقد تضيع فرصة الندم فلا يتمكن الإنسان من الاستغفار في الوقت المناسب له، قال تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} {107}. ولذا عندما يفوت وقت الاستغفار يظل الحكم بالعقاب أمرا لا مفر منه والحمد لله رب العالمين الذي يمهل ولا يهمل. ولهذا فالمستخلفين فيها هم الذين يعملون على إحقاق الحق وإزهاق الباطل بكل ما يكسبون ويستطيعون. قال تعالى: {لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} {108}، وقال تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} {109}، وقال تعالى: {نَقَذُفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَعُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} {110}.

106 المائدة 90، 91.

107 التوبة 80.

108 التوبة 48، 49.

109 الإسراء 81.

110 الأنبياء 18.

ومن يخالف ذلك المنهج هو من فقد الصواب وعميت بصيرته وموقفه في الآخرة يوضحه الله في قوله تعالى الذي يقص علينا قصة الحق وصراعه ضد الباطل منذ البداية فلنرى ماذا يقول ربنا جل في علاه فيقول تعالى لفريق الباطل الذي اعتمد على الشيطان لينصره، والشيطان قد يكون إبليس نفسه أو فكرة خاطئة أو اعتماد على مال أو جاه أو غير ذلك من دون الله عز وجل ولكن الشر الأكبر متمثل في الملعون الذي يُرِين الباطل، فيقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ هُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرُبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} 111.

والله أعلى - من كيد الشيطان وفريق الباطل - علوا كبيرا لأنه الملك الحق، ويقص الله علينا قصة الصراع الذي لا ينتهي إلا بنهاية الكون قصة الحق والباطل فيقول تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ

111 الأنفال 48 . 51.

هُمَا سَوَاءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ  
فَعَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ  
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا  
يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ  
أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ  
يُؤْمَرْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى {112}.

هي القصة بعينها... الحق والباطل في صور متعددة، وأصلها  
أن الله أراد أن يستخلف خليفة لتعمير الأرض، فاعترض الشيطان  
على الخليفة وعصى أمر الله سبحانه وتعالى، فتشعب الأمر إلى  
شعبتين حق وباطل ... هدي وضلال... صدق وكذب... نور  
وظلام... جنة ونار.

والحق والهدي والصدق والنور في المنهج الذي يحض على  
الصلة بالله عز وجل للوصول إلى الحق والله هو القائل لنبيه صلى الله  
عليه وسلم: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ  
إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ  
يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي  
مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ  
الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} 113 فكان صلى الله عليه وآله وسلم  
يقوم الليل بهذه الكلمات فإنها مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه  
وسلم في قيامه للتهجد "اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض  
ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت رب

<sup>112</sup> طه 114 . 127.

<sup>113</sup> الإسراء 78 . 81.

السموات والأرض ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليت توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وأسرفت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم أهدني لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المفتقر الذليل فلا تجعلني بدعائك رب شقيا وكن بي رءوفا رحيفا يا خير المسئولين وأكرم المعطين.

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها "كان صَلَّى الله عليه وسلّم إذا قام من الليل افتتح صلاته قال: اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون أهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم" 114.

والحقّ كما ورد على لسان رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلّم يتمثل في: الله الحقّ ومنك الحقّ ولقاؤك حقّ والجنة حقّ والنار حقّ والنشور حقّ والنبيون حقّ ومحمد صَلَّى الله عليه وسلّم حقّ.

ونعود للغة التي تؤكد معاني الحقّ التي تكلمنا فيها فقد جاء معنى الحقّ على النحو الآتي:

الحقّ: نقيضُ الباطلِ 115.

---

<sup>114</sup> السنن الكبرى للنسائي، ج 1 ص 417.

<sup>115</sup> المحيط في اللغة، ج 1 ص 151.

- والله حقّ وما دونه الباطل فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أصدق كلمة قالتها العرب:

ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطل ... وكلّ نعيمٍ لا محالة زائل!

وكلّ أناسٍ سوف تدخل بينهم... دويهيّة تصفر منه الأنامل!

وكلّ امرئٍ يوماً سيعلم سعيه... إذا كشفت عند الإله

الحصائل 116.

والحديث كما في الصحيح نصه " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةٌ لَبِيدٍ أَلَا كُلَّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ " 117.

ومن معاني "الحقّ اللغوية" بَلَغَتْ حَقِيقَةَ الأَمْرِ: أَي يَقِينٌ شَأْنُهُ" 118 وهذا اليقين في بلوغ الحقيقة ما وجدناه في القرآن الكريم معبراً عنه بقوله تعالى: { إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } 119.

(إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) بقمعهم وإهلاكهم. قيل كانوا خمسة من أشرف قريش: الوليد بن المغيرة، والعاص ابن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، بيالغون في إيذاء النبي صلّى الله عليه وسلّم والاستهزاء به فقال جبريل عليه السلام

<sup>116</sup> ديوان المعاني، ج 1 ص 46.

<sup>117</sup> صحيح البخاري، ج 12 ص 212.

<sup>118</sup>، المحيط في اللغة، ج 1، ص 346.

<sup>119</sup> الحجر 95 - 99.

لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أكفيكمهم، فأوماً إلى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظماً لأخذه، فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات، وأوماً إلى أخص العاص فدخلت فيه شوكة فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات، وأشار إلى أنف عدي بن قيس فامتخط قيحا فمات، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات، وإلى عيني الأسود ابن المطلب فعمي والحمد لله رب العالمين.

وقوله (الذين يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) عاقبة أمرهم في الدارين.

(وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنتَكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ) من الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء بك (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) فافزع إلى الله تعالى فيما نابك بالتسبيح والتحميد يكفك ويكشف الغم عنك، أو فنزهه عما يقولون حامداً له على أن هداك للحق (وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) من المصلين الخاشعين لله وحده، وعنه عليه الصلاة والسلام "أنه كان إذا حزه أمر فزع إلى الصلاة" (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أي الحقيقة التي تبحث عنها وتريد معرفتها فالله عليم كريم وحكيم فلا تستغرب أن أظهرك على شيء من الحقيقة أو أظهرك عليها فاحمده واشكره كثيراً. ولذلك فاعبده ما دمت حيا ولا تخل بالعبادة لحظة (إِنَّ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) الذي لا شك ولا ظن من ورائه فهو الحق الذي لا يتبدل ولا يتغير ولو كرر الفاسقون والكفرة والمجرمون.

ونرى أن عين اليقين هو اليقين الذي لا لبس فيه، واليقين لا يظهر إلا بالحق ومن هنا فالحق يكشف ما كان غائبا حتى ينكشف الغطاء وتبرز الحقيقة ويتحول البصر إلى آلة حادة في الإبصار فيري

الإنسان ما لم يكن قادرا على رؤيته من قبل، وحتى نبسط الأمر أكثر من ذلك نعود إلى قول الله الحق في كتابه الحق الذي يقول فيه: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلَّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} 120.

قال تعالى: (لقد كنت في غفلة من هذا) الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمور وسهو يعتريه من قلة التحفظ والتيقظ، والمعنى يقال له يوم القيامة أو وقت النشور أو وقت العرض: لقد كنت أيها الشخص في الدنيا في غفلة من هذا اليوم وغوائله. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الغفلة من عاقبة الكفر ومن السائق والشهيد. وخطاب الكلّ بذلك لأنه ما من أحد إلا وله غفلة، وقيل الخطاب للكافر وقرئ كنت بكسر التاء على اعتبار تأنيث النفس وكذا الخطابات الآتية (فكشفنا) أي أزلنا ورفعنا (عنك غطاءك) الذي كان على بصرك ولغطاء الحجاب المغطى لأمر المعاد وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات والألفة بها وقصر النظر عليها والغطاء ما يجعل فوق الشيء من لباس ونحوه كما إن الغشاء كذلك وقد استعير للجهالة قال تعالى فكشفنا الآية. (فبصرك اليوم حديد) أي نافذ ثاقب لا ستار يحول بينه وبين ما تود النظر إليه. تبصر ما كنت تنكره وتستبعده في الدنيا لزوال المانع للإبصار ولكن لا ينفعك وهذا كقوله أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا يقال حددت السكين رقت حدها ثم يقال لكلّ حاذق في نفسه من حيث الخلقة من حيث المعنى كالبصر والبصيرة حديد فيقال هو حديد النظر وحديد الفهم ويقال لسان

---

120 ق 19 . 22.

حديد نحو لسان صارم وماض وذلك إذا كان يؤثر تأثير الحديد وفي الآية إشارة الى أن الإنسان وان خلق من عالمي الغيب والشهادة فالغالب عليه في البداية الشهادة وهي العالم الحسي فيرى بالحواس الظاهرة العالم المحسوس مع اختلاف أجناسه وهو بمعزل عن إدراك عالم الغيب فمن الناس من يكشف الله غطاءه عن بصر بصيرته فيجعل بصره حديدا يبصر رشده ويحذر شره وهم المؤمنون من أهل السعادة ومنهم من يكشف الله عن بصر بصيرته يوم القيامة يوم لا ينفع نفسا إيمانها وهم الكفار من أهل الشقاوة.

ومن كلمات أمير المؤمنين على رضي الله عنه: (لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا)، يعنى إن عين اليقين الحاصل لأهل الحجاب في الآخرة حاصل لأهل الكشف في الدنيا فإنهم ترقوا من علم اليقين إلى عين اليقين في هذه الدار فطابوا وقتا فكائنهم في الجنان في الحال وكلّ يوم لهم يوم المزيد<sup>121</sup>.

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} 122.

الحقّ وأحد لا يتغير ولا يبلى ولا يزول ولا يتعدد وهكذا الحقيقة وأحدة لا تتجزأ فإن قبلت التجزئة فلا علاقة لها بالحقيقة، ولذا ففريق الحقّ يصدق بالحقّ وهم حسن الثواب، يقول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ

---

<sup>121</sup> تفسير حقّي، ج 14 ص 130.

<sup>122</sup> التوبة 111.

وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا {123}.

يقول الله سبحانه وتعالى في فريق الحق: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا {124}.

ويقول في فريق الباطل: {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ {125}.

ووجهة الحق واحدة لذا نقول في القول الشائع أن الحقيقة لها وجه واحد، ولما أراد الله أن يجمع الخلق على جهة الحق اعترض أهل الباطل بالزور والسفاهة وضيق الأفق، وهم ما زالوا إلى الآن يشككون في وجهة الحق فقد طلعت علينا إحدى الفضائيات التي تتهاجم رسول الحق ودعوة الحق لتشكك في قبلة الحق وتقول هل الله في جهة واحدة أو أنه غير قادر على رؤية من يصلي له في الجهات الأخرى؟ وكأنهم لا يعلمون من الأمور أبسطها أن الله أراد أن يجمع الإنسانية على جهة واحدة هي جهة الحق وعلى رسول واحد هو رسول الحق، الذي بالصلاة والسلام عليه تصلي على جميع الأنبياء والرسل، أي أن الصلاة علة والسلام على محمد صلاة وسلام على جميع الرسل مصداقا لقوله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ

---

<sup>123</sup> النساء 150، 151.

<sup>124</sup> النساء 152.

<sup>125</sup> البقرة 42 . 46.

أَمَنْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا  
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ {126 ولهذا الدين الواحد  
له ربُّ واحد وجهة واحدة ورسول واحد، والله قد وصف هؤلاء ورد  
على أسلافهم بقوله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَنَّا  
قَبْلَتْهُمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى  
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ  
وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا  
لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا  
عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ  
لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً  
تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا  
وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ  
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ  
مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ  
وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ  
الظَّالِمِينَ {127.

ويرد الله على أهل الكتب الخارجين عن الحق الذين يعرفون أن  
النبى حق وينكرون تلك الحقيقة بقوله تعالى:

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ  
فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ  
الْمُتَمَرِّينَ وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبَشِرُوا خَيْرَاتِ آيِنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ  
بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ

<sup>126</sup> البقرة 285.

<sup>127</sup> البقرة 142 . 145.

وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا  
تَعْمَلُونَ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ  
مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا  
الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تُمَيِّزْ عَالِيكُمْ وَاعْلَمُوا  
تَهْتَدُونَ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ  
وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَادْكُرُونِي  
أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ  
وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ {128}.

والحقّ هو الحقّ له سبيل واحد كما قال الله على لسان النبي  
صلّى الله عليه وسلّم في الكتاب الحقّ: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ  
عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {129}.

الدّعوة (على بصيرة) يعني على يقين ومعرفة والبصيرة هي  
المعرفة التي بها يتم التمييز بين الحقّ والباطل (أنا ومن اتبعني) من آمن  
بي وصدّق بما جئت به أيضا يدعو إلى الله، ويدكّر بالقرآن وقيل تم  
الكلام عند قوله أدعو إلى الله ثم استأنف على بصيرة أنا ومن اتبعني  
بعدي أنا على بصيرة ومن اتبعني أيضا على بصيرة قال ابن عباس إن  
محمّدا صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه كانوا على أحسن طريقة وأفضل  
هداية وهم معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرحمن.

ولقد صدق من قال:

الطرق شتى وطرق الحقّ مفردة .. والسالكون طريق الحقّ أفراد

<sup>128</sup> البقرة 146 . 153.

<sup>129</sup> يوسف 108.

لا يعرفون ولا تدري مقاصدهم... فهم على مهل يمشون

قصاد

والناس في غفلة عما يراد بهم ... فجلبهم عن سبيل الحق

رقاد130

وعلى الجملة فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفى وطباعهم فإن الحق مر والوقوف عليه صعب وإدراكه شديد وطريقه مستوعر ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة فإن ذلك نزع للروح على الدوام، وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه فهو يقاسي الشدائد ليكون فطره عند الموت131.

وصراع الحق ضد الباطل من صورته مسألة كلمة الباطل التي قال بها من أشرك بالله من أهل الكتاب واختلفوا في حقيقة سيدنا عيسى عليه السلام روح الله وكلمته التي أرسلها إلى السيدة العذراء عليها السلام: لا يوضح الحق ويظهره في هذه القضية إلا كتاب الله وسنختر منه آيات على سبيل المثال لا الحصر فيقول وهو أصدق القائلين:

{رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ  
وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ  
وَرَأْفِعَكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ  
فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَاَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْدِبْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

130 إحياء علوم الدين، ج 1 ص 83.

131 إحياء علوم الدين، ج 1 ص 84.

وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ  
أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ  
الْحَكِيمِ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ  
كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ  
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا  
وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ  
إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ  
الْحَكِيمُ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا  
إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا  
يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا  
مُسْلِمُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ  
وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ  
بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ  
مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ  
مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ  
آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ  
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ  
اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ {132

ويقول الله تعالى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ  
وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا  
بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرُهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ  
وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ  
مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ

يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ  
وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ  
بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ  
عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ بَلَى  
مَنْ أَوْفَى بَعْدَهُ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ  
اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ  
وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ {133}.

أما موقف الذين آمنوا منهم فلسان حالهم يقول كما أخبرنا  
الله عز وجل: { وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ  
الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا  
لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ  
الصَّالِحِينَ فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ  
فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ  
أَصْحَابُ الْجَحِيمِ {134}.

---

133 آل عمران 71 . 77 .

134 المائدة 83 . 86 .

## من صفات النبي شعيب

### 1 - رسول:

الرَّسُولُ هو من تكون له رسالة مُرسل بها، والرَّسُولُ الذي نحن بصدده تعريفه اصطلاحاً هو من يصطفيه ويحببه الله لقومه أو لقرية أو أمة أو كافة الناس ليكون هادياً ومبشراً للتي هي أحسن وأقوم وأنفع وأفيد على التوحيد الذي به ينتهي الكفر والشرك، وتستقيم أمور الحياة بين الناس على العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإيفاء الكيل والميزان كما هو مبين في رسالة نبي الله شعيب صلى الله عليه وسلم.

وفي اللغة: "سُمِّي الرَّسُولُ رسولاً لأنه ذو رَسُولٍ أي ذو رسالة والرَّسُولُ اسم من أرسلت وكذلك الرسالة وأرسلت فلانا في رسالة فهو مُرْسَلٌ ورَسُولٌ"135.

والرَّسُولُ المرسل من عند الله رسالته تتمركز على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولذا لا يمكن أن يكون الرَّسُولُ وفقاً لرغبات البشر وأطماعهم وما تهوى أنفسهم بل الرَّسُولُ حاق للحق؛ فهو لن يأتي إلا بما يحقُّه عدلاً ومساواة مع مراعاة ظروف الخاصّة المتميزين بالعلم والحكمة وأولئك الذين يعانون من تخلف ذهني أو عقلي أو معرفي أو بدني فهؤلاء ومن على مثلهم هم في حاجة لمن يقدم لهم المساعدة ممّا يجعل العلماء والحكماء يضحون من أجل أن يكون لكلّ نصيب وحقّ في الحياة كغيرهم من الأسوياء مع فائق تقديم الرعاية والعناية.

---

<sup>135</sup>لسان العرب، ج 11، ص 281.

إذا الرُّسل الكرام لم يأتوا إلا بالحقّ، ولهذا فهم لم يأتوا بما تهوى  
أنفس البعض الذين يسعون في الأرض فسادا ممّا يجعلهم مستكبرين  
على ما يأتوا به الرُّسل فيضلوا السبيل ويظنون على غير هداية  
يُفسدون في الأرض ويسفكون الدماء فيها بغير حقّ، قال تعالى:  
{ أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ  
وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ } 136.

ومن الرُّسل الذين تم تكذيبهم نبي الله شعيب مصداقا لقوله  
تعالى: { الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا  
هُمُ الْخَاسِرِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي  
وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ } 137.

ومع أنّ شعيبا مُرسل وله رسالة كريمة آياتها لازالت محتواه في  
الرسالة الخاتمة للناس كافة (رسالة محمد) صلى الله عليه وسلّم، إلا أن  
الذين أرسل إليهم كذبوه وكثير منهم لم يهتد للتي هي أقوم؛ فمع أن  
شعيبا قد بذل جهدا عظيما في سبيل أن يؤمنوا إلا أنهم كفروا وأشركوا  
فكانوا الخاسرون (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ).

وهكذا حال الرُّسل الكرام هم في بدايات رسالاتهم مكذبون  
ومتهمون بالجنون والضلال وكثير من الصفات التي لا تلحقهم لاحقة  
منها، ولننظر ما قيل في بعض منهم، قال تعالى: { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا  
إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ  
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ  
قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ  
رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ

<sup>136</sup>البقرة 87.

<sup>137</sup>الأعراف 92، 93.

جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ {138} ومع ذلك فإن رُسل الله دائما هم الفائزون والمنتصرون، ولهذا لم يرسل الله رسول إلا ليطاع ولو كره الكارهون، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ} {139}.

هناك أقوام كلما جاءها رسول من رُسل الله تعالى كذبوهم؛ فأصحاب الأيكة لقد بعث الله لهم الرُسل مبشرين وهادين ومنذرين بالحق إلا أنهم كذبوا الرُسل الكرام صلى الله عليهم وسلم كما كذبوا شعيب الرسول الأمين، قال تعالى: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} {140}.

ومع أن الكفرة والمشركين ينظرون في آيات الله ومعجزات رُسله إلا أنهم يغضون أبصارهم وهم في غفلتهم لأنفسهم يظلمون، ولكن يوم يحشرهم الله ستري كل نفس ما قدمت وما فعلت ويومها تعرف كل نفس أنها قد خسرت الحياة الآخرة وهي ترمى حطب في نار جهنم دون أن تُظلم، ويومها لا ينفع النادمين ندم، قال تعالى:

<sup>138</sup>الأعراف 59 . 67.

<sup>139</sup>النساء 64.

<sup>140</sup>الشعراء 176 . 180.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ وَيَوْمَ يُحْشِرُهُمُ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ وَأَمَّا نُورُكَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّئُكَ فَالْيَنَّا مَرَجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعِدُّونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ } 141.

## 2 - ناصح:

الناصح: هو إخلاص تام لا غش فيه ولا خيانة ورائه، فهو إظهار صفاء النفس تجاه الآخر.

والناصح: هو المخلص الحريص على الآخر كي لا يقع في المحذور أو المنهي عنه بهدف تجنبه وتحقيق السلامة في صواب القول والفعل.

والمنتصح: هو من أخذ بما قيل له من نصيحة وعمل بها فكانت له الفائدة والحفظ من أيّ انزلاق في غير مرضاة الله تعالى.

وفي النصيحة قال ابن الأثير: "النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له فليس يمكن أن يعبر عن هذا المعنى بكلمة واحدة تجمع معناها غيرها وأصل النصيحة الخلوص ومعنى النصيحة لله صحة الاعتقاد في واحديته وإخلاص النية في عبادته

<sup>141</sup> يونس 43 . 50.

والنصيحة لكتاب الله هو التصديق به والعمل بما فيه ونصيحة رسوله  
التصديق بنبوته ورسالته والانقياد لما أمر به ونهى عنه"142.

ولذا؛ فالناصح هو من أخلص في عمله وعبادة ربه وأداء  
رسالته التي يجب عليه أدائها على الوجه الأكمل، والناصح هو  
الواعظ بالتي هي أحسن وذلك بأسباب معرفته وعلمه بما لم يعرف  
ويعلم الآخرين، ولهذا، كان شعيب ناصحا وواعظ لقومه، قال تعالى:  
{الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ  
الْحَاسِرِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي  
وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ}143.

ولأنّ النصح على الترادف اللغوي هو الموعظة جاء في لسان  
العرب "الوعظ والعظة والعظة والموعظة النصح والتذكير  
بالعواقب"144.

والواعظ بالمطلق هو الله الذي يعلم بالشيء وحاله والمخلوق  
وحاله وما يجب حياله فيعظ بما يجب قبل الإقدام على أي خيار من  
الخيارات في دائرة الممكن على المستوى البشري، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا  
النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى  
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}145.

الموعظة هي فضيلة حسنة فمن أخذ بها أخذ بما هو أحسن  
تفضيلا، ولذا فالموعظة تُذكِّر العباد بما ينبغي أن يفعلوا حتى لا يضلوا  
السبيل الحق فيصبحوا على ما يفعلون نادمين، والموعظة إن أخذ بها

---

<sup>142</sup>لسان العرب، ج 2، ص 615.

<sup>143</sup>الأعراف 92، 93.

<sup>144</sup>لسان العرب، ج 7، ص 466.

<sup>145</sup>يونس 57.

أصبحت هي الشفاء للصدور إي شفاء للأنفس والعقول من الجهل الذي يقود للتهلكة، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ).

ولأنّ الله عزّ وجلّ هو الواعظ فقد بيّن كلّ شيء تبينا وتفصيلا ففيما يتعلق بالأمانات والحكم قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} 146.

إذا من مواعظه كما جاء في الآية الكريمة السابقة:

. أن تؤدّي الأمانات إلى أهلها وإلا ستكون المشاكل والمفاسد في الأرض.

. وإذا حكم أحد بين الناس أن يحكم بالعدل وإلا ستنتشر المشاكل والفتن والمحن في الأرض.

ولأنّ الواعظ جلّ جلاله؛ فهو الذي أنزل الحكم والفضائل الحسنة التي ترشد لأفعال الخير، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 147.

يفهم من هذه الآية الكريمة مجموعة من المواعظ التي إن سادت بين العباد ساد بينهم النصح والرّحمة ومن هذه المواعظ:

. العدل: فضيلة مرضية لجميع الأطراف حيث لا ظلم من بعد سيادة العدل.

---

<sup>146</sup>النساء 58.

<sup>147</sup>النحل 90.

- . الإحسان: فضيلة وقيمة تربط النَّاس بأحاسيس المودة والمحبة والألفة فإن سادت ساد التلاحم والوحدة وانتهت الفتن بين العباد.
- . إيتاء ذي القربى حقوقهم التي أوجبها الله في شرعه.
- . النهي عن الفحشاء التي تُفسد مكارم الأخلاق.
- . النهي عن المنكر الذي نهى الله عنه وجرّم فاعليه.
- . النهي عن البغضاء الذي يملأ الأنفس بالحقد والكراهية ويؤدّي إلى المكائد والدسائس بين النَّاس.

ولهذا كان شعيب ناصحا وواعظا بقوله كما هو منزل في القرآن الحكيم: {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ وَانْتَفُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ} 148.

في الآيات الكريمة السابقة مواعظ ونصائح مقدمة من نبي الله شعيب لقومه الذين بُعث لهم رسول ليهديهم للتي هي أحسن، ومن نصائحه الكريمة والحميدة والمفيدة والشفافية للمشاكل التي يعاني منها قومه الآتي:

<sup>148</sup>الشعراء 177 . 190.

أ . تقوى الله (أَلَا تَتَّقُونَ إِلَيَّ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ).

ب . طاعة شعيب طاعة الله تعالى (وَأَطِيعُونَ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ).

ج . إيفاء الكيل وأن لا يكونوا من المخسرين (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ).

د . الوزن بالقسطاس المستقيم (وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ).

هـ . أن لا يبخسوا الناس أشياءهم (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ).

و . أن لا يعتوا في الأرض فسادا (وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ).

ز . اتقاء الخالق جلَّ جلاله (وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ).

ح . اتقاء ما وقع فيه السابقون بالاعتاظ بقصص الأولين (وَالْحِجَابَةَ الْأُولِينَ).

وفي مقابل نصائح شعيب لقومه واجهه قومه بما لا يليق بمقام رسول مُرسل من عند الله ومكرم برسالة عدل ومساواة، ومن ما قيل لشعيب وهو ينصح قومه:

أ . إنه من الخلق المسحورين (إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ).

ب . إنه بشر لا يختلف في شيء عنهم (وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا).

ج . إته من الكاذبين أي وكأنهم يقولون مع أنك بشر مثلنا إلا أنك تزيد علينا بكذبك هذا الذي به تدعي ما تدعي (وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ).

د . وقالوا له إن لم تكن من الكاذبين فأسقط علينا كسفا من السماء (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

فكان رده أنّ الأمر بيد الله فهو أعلم بكم وبما ينبغي أن تعاقبوا به، أي أنه قد أكد لهم أنّ أمر العقاب بيد الله فصدقه الله القول بأن أنزل عليهم كسفا السماء فأخذهم عذاب يوم الظلة {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ} 149.

وعلى المؤمن أن يتعظ بمكارم الأخلاق وبالأخذ بالفضائل التي وعظ بها الأنبياء الكرام كما وعظ ونصح شعيب قومه ليكون الإنسان خير خليفة على الأرض، ولا يمكن أن يكون الإنسان خليفة إن لم يأخذ بما وعظ الواعظ جلّ جلاله في كلّ ما يجب أن يقال وكلّ ما ينبغي أن يفعل ويعمل ولهذا فإتباع الموعدة يؤدي إلى سلامة القول والفعل والسلوك وسلامة النفس والقلب والبدن من الذنوب وارتكاب الأخطاء.

ولأنّ المؤمن الذي أسلم وجهه لله تعالى هو الخليفة فهو الذي يأخذ بما أمر الواعظ وينتهي عما نهى عنه ويعلمه وإيمانه بالنعم التي تُجنى من وراء الأخذ بالمواعظ عليه أن يُسهّم في وعظ الآخرين الذين في حاجة لأن يوعظوا حتى تسود القيم الحسنة النظم الاجتماعية

---

149 الشعراء 89 . 90.

والإنسانية ويؤخذ بها في المقررات والمناهج التربوية والتعليمية من أجل  
جيل حميد السلوك والسيرة.

ولذا؛ فالناصح هو من يخلص في عمله بعد الصدق في نيته  
وقوله، فالذي يكيل عليه بأن يوفي الكيل ومن يزن فعله أن يفي  
الميزان وهذه تعاليم شعيب ونصائحه الحميدة التي بُعث بها نبيا كريم  
ورسول كريم.

والموфи هو من يزيد عطاء من بعد إعطاء الحق لمستحقه،  
ولهذا؛ فالإيفاء اتقاء عن النقص وهو متنوع، ومنه.

أ . الإيفاء المادي للخصوص: وهو عطاء بلا منة ورحمة  
بأسباب الصلاح والفلاح فمرمى رضي الله عنها جاءها الإيفاء من  
الرزق وهي في المحراب تتعبد، قال تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ  
وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ  
وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ  
اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} 150.

ب . الإيفاء المادي للعموم النسبي: وهو الإيفاء الذي رحمته  
تعم الناس في المكان والزمان وفقا للمشئة التي يريدتها الموфи عز وجل،  
قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ  
زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} 151. وقال تعالى:  
{وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا  
بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا

---

<sup>150</sup>آل عمران 37.

<sup>151</sup>، السجدة 27.

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ  
السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْئَرُ {152}.

ج . الإيفاء المعنوي (الروحي): وهو يتعدد أيضا ومنه:

. الإيفاء بالمغفرة: ولأنه الغفَّار فلا مغفرة إلا منه، ولهذا فالموфи هو الله الذي يوفي بمغفرته لمن يستغفر ربه من كلِّ ذنب، قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} {153}، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَنْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جِزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} {154}.

. الإيفاء بالتوبة: وهذا الإيفاء رحمة من الموفى على المؤمنين بالحقّ المبين ولذلك فقد يسَّرَ لهم ما يكفِّر به لهم عن أخطائهم، قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} {155}.

. الإيفاء بالرضا: فمن يرضى عنه الله فقد فاز فوزا كبيرا، ولذلك لقد رضي الله على المؤمنين الذين بايعوا الرسول محمد صلى

<sup>152</sup>فاطر 9، 10.

<sup>153</sup>المائدة 9.

<sup>154</sup>آل عمران 135، 136.

<sup>155</sup>النساء 92.

الله عليه وسلّم تحت الشجرة، قال تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} 156، وقال تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَعَافٍ كَثِيرَةً يَأْخُذُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} 157.

وعليه: فالموфи هو من يوفي العاملين أجورهم بإحسان ولا يظلم أحدا، قال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} 158.

ولأنه الموفي فهو الذي يوفي الأجر ويزيد من فضله ليكون الإيفاء أكبر وأكثر من الأجر الوافي، ولهذا بُعث شعيب لقومه لكي لا ينقصوا الكيل والميزان، بل لأن يفوا الكيل ويزنوا بالقسطاس المستقيم، (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) أما الذين يستكبرون عن طاعته وعبادته وتوحيده فلهم العذاب الشديد، قال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} 159.

ولأن الله جلّ جلاله هو الموفي فهو الذي يوفي للمؤمنين الذين أسلموا وجوههم لربّ العالمين أجورهم وهؤلاء المؤمنون هم الطائعون

---

156 المائدة 119.

157 الفتح 18، 19.

158 آل عمران 57.

159 النساء 173.

التائبون المنفقون في سبيله تعالى سرا وعلانية وهم الآمرون بالمعروف  
والناهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ  
الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً  
يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ  
شَكُورٌ} 160.

ولأنَّ الله تعالى هو الموفي بعث رسوله شعيبا ليعلم النَّاس في  
زمنه الإيفاء الذي به تصلح أحوالهم من المفسد الأخلاقية والقيمية  
حتى ترسم حياتهم على الوفاء والإيفاء، ولذا فجلَّ جلاله هو الموفي  
اختيارا من حيث:

أ. يوفي للذي يريد الحياة الدنيا: قال تعالى: قال تعالى: {مَنْ  
كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا  
يُبْحَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا  
فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 161.

وقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ  
أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا  
لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ  
لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ} 162.

---

<sup>160</sup>فاطر 29، 30.

<sup>161</sup>هود 15، 16.

<sup>162</sup>الحج 11، 13.

وقال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 163.

ب - يوفي للذي يريد الحياة الآخرة: قال تعالى: {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} 164.

وقال تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} 165.

وقال تعالى: {وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} 166.

ج - يوفي للذي يريد الحياتين (الدارين): قال تعالى: {وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} 167.

وعلى الخليفة في الأرض أن يعمل صالحا يرضاه الله تعالى فإن آتاه الله مالا فليتقى الله في ماله بالصدقة والزكاة والأعمال الحسنى، وأن يكون من الذين يوفون بعهودهم إذا عاهدوا، وأن يكون من الصابرين على الوفاة للحق واتباعه. قال تعالى: {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ

---

<sup>163</sup>هود 15، 16.

<sup>164</sup>الأعلى 17.

<sup>165</sup>آل عمران 145.

<sup>166</sup>الأعراف 169.

<sup>167</sup>البقرة 130.

وَأَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ  
وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ  
الْمُتَّقُونَ {168}.

والخليفة في الأرض هو من لا يقرب مال اليتامى إلا بالتي هي  
أحسن عندما يكون اليتيم غير بالغ سن الرشد التي بها يتمكن من  
حسن التصرف فيما يملك، قال تعالى: {وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا  
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا  
تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ  
أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ {169}.

تحتوي هذه الآية الكريمة على مجموعة من الفضائل التي يُنصح  
أن يأخذ بها الخليفة في الأرض، ومنها:

أ. أن لا يقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ اليتيم  
أشده.

ب. أن يوفي الكيل.

ج. أن يوفي الميزان بالقسط.

د. لا يكلف نفسا إلا وسعها.

هـ. أن يعدل في قوله ولو كان على ذي قربي.

و. أن يفي بعهد الله تعالى.

---

<sup>168</sup>البقرة 177.

<sup>169</sup>الأنعام 152.

وإلى جانب ما ذُكر من فضائل فالخليفة أساس استخلافه في الأرض هو:

. أن يصلح الأرض ولا يُفسد فيها، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} 170.

. أن لا يسفك الدماء في الأرض بغير حقّ: قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 171.

. أن لا يبغض الناس أشياءهم، قال تعالى: {وَلَا تَبْغَضُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ} 172.

وعلى الخليفة الموفي أن يتخذ من يوسف صلّى الله عليه وسلّم أسوة حسنة له في إيفائه للكيل إن كال لأحدٍ من الناس، لينال مكانة مرموقة من مكانات المنزلين الكرام، قال تعالى: {وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ} 173، وقال تعالى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} 174.

---

<sup>170</sup>الأعراف 85.

<sup>171</sup>البقرة 30.

<sup>172</sup>الأعراف 85.

<sup>173</sup>يوسف 59.

<sup>174</sup>الإسراء 35.

ولذلك فعلى الخليفة الموفى أن يتبع أمر الموفى المطلق في تعامله مع الناس ليكون من الوارثين. قال تعالى: {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} 175.

وعلى الخليفة أن يوفى بعهده إن عاهد ولا ينسى ما أمر الله به ليعمل وفقا لأمره في الأرض مصلحا لا مفسدا فيها ولا سافك دما بغير حق، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} 176.

### 3 - مُصْلِح:

المصلح من كان قوله صالحا وفعله صالحا وعمله صالحا وسلوكه صالحا ويأمر بالصلاح والإصلاح وينهى عن الفساد والمفاسد.

والمصلح هو من يَصْرُّ على إصلاح ما يفسده المفسدون الفاسدون في أخلاقهم وإيمانهم وأعمالهم وأفعالهم، قال تعالى: {قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} 177، وقال تعالى: {أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} 178.

---

<sup>175</sup> الشعراء 181، 183.

<sup>176</sup> الفتح 10.

<sup>177</sup> يونس 81، 82.

<sup>178</sup> الأحزاب 70، 71.

ولأنّ من مشيئة الله في خلقه أن جعل منهم الصالحين والمصلحين كان شعيب في طبعة مُصلحاً، مصداقاً لقوله تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ} 179؛ فقول شعيب (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ) يدل على حُسن إرادته الطائفة لأعمال الخيرات الحسان التي بها يتم الإصلاح في الأرض وإعمارها وفلاحها، ولذا فقوله: (مَا اسْتَطَعْتُ) تدل على إصراره على الإقدام على أفعال الإصلاح في الأرض من خلال الفضائل التي بعثه الله بها رسولا كريم ومن خلالا القيم الخيرة والعمل في الأرض بين الناس ومعهم حتى لا يسود الفساد فيها، ولذلك فشعيب صلّى الله عليه وسلّم مُصلح في الأرض طاعة لأمر الله الذي جعله مُصلحاً فيها.

وفي معنى إصلاح شعيب قال الرازي: "ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي، وقوله: (ما استطعت) فيه وجوه:

الأول: أنه ظرف والتقدير: مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكناً منه لا آلو فيه جهداً.

الثاني: أنه بدل من الإصلاح، أي المقدار الذي استطعت منه.

الثالث: أن يكون مفعولاً له أي ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه 180.

<sup>179</sup>هود 87، 88.

<sup>180</sup>تفسير الرازي، ج 8، ص 458.

#### 4 - صالح:

الصالح من كان على الصواب في القول والفعل والعمل والسلوك، وهو المناسب لأداء الأفعال الحسان، فإذا قال صدق فيما قال، وإذا عاهد أوفى، وإذا عمل أحسن عمله، ولذلك كان شعيب صالحاً لأداء الأعمال والأفعال والمواثيق والعهود مع فائق الالتزام التام بالهداية والطاعة لله رب العالمين، قال تعالى: {قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} 181؛ فقلوه: (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) في الوفاء بما عهدت لك يا موسى، أي في حُسن الصحبة والالتزام بما قلته لك في هذا اليوم ستجده بالتمام بإنشاء الله يوم أن تتم الثمانية حُجج، وهذا وعد لا يتمه إلا صالح، ولهذا قال شعيب لموسى (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ).

ولذا؛ فالصالحون هم الذين يؤمنون بالله ويتلون آياته أنا الليل ويسجدون لله طاعة تامة ولا يسجدون لغيره وإن أصدر لهم الأمر بذلك كرها، وهم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر مصداقاً لقلوه تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنْاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْتُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} 182.

والصالح في الدنيا هو الصالح في الآخرة، ولهذا فمن عمل صالحاً يجده يوم القيامة صالحاً لأنه يدخله الجنة، قال تعالى: {وَمَنْ

---

<sup>181</sup>القصص 27.

<sup>182</sup>آل عمران 113 . 115.

يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا  
وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ {183}.

والصالح هو من أعدّه الله على الصلاح في خلقه وحُلقه،  
ولهذا كان شعيب من الصالحين كغيره من الرُّسل الكرام صَلَّى اللهُ  
عليهم وسلّم؛ ومن دعا ربّه طاعة و يقينا تامّا تكون له الاستجابة  
ويرزقه من حيث لا يحتسب كما رُزِقَ زكريا يحيى سيدا وحصورا ونبيا  
من الصالحين مصداقا لقوله تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ  
هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنادته الملائكةُ وهو  
قائمٌ يُصَلِّي في المِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ  
وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ {184}.

## 5 - مُصَلِّي:

المصلي كثير الصلّاة وهو المتعبد بالطاعات لله تعالى سواء  
أكانت صلّاته قولية (تسبيح كريم) أم أكانت سلوكية فعلية (ركوعا  
وسجودا)، أم أكانت رحمة (من الخالق على المخلوق).

ومع أنّ الصلّاة من المخلوق للخالق عبادة إلا أنّها من الخالق  
إلى المخلوق رحمة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا  
كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ  
لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا {185}.

---

<sup>183</sup>البقرة 130.

<sup>184</sup>آل عمران 38، 39.

<sup>185</sup>الأحزاب 41، 43.

إذ الخالق يصلّي على ما خلق رحمة بهم لأنهم خلقه، والخلق يصلون للخالق طاعة وعبادة، ولذا فالصلاة عبادة يُظهر فيها المخلوق طاعته للخالق في كلّ ما أمر ونهى وكيفما أمر ونهى في كتابه الحكيم وسنن رُسله الكرام كلّ وفق الزمان الذي ظهر فيه لقومه أو قريته أو شعبه أو أمته إلى أن جاءت الرّسالة الهادية الخاتمة على الرّسول الخاتم للناس كافة فكانت الهداية لله كما أمر وكيفما أو ضح سنة رسوله الكريم محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

وجاءت الصّلاة صفة لسيدنا شعيب صلّى الله عليه وسلّم لأنه وصف بها من قبل قومه مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} 186. أي لو لم يكن شعيب مداوم على صلاته ما كان قومه قد وصفوه بها، ولأنه المداوم على الصّلاة طاعة لله تعالى فكانت له صفة الصّلاة ثابتة خاصة وان القوم غير مصلين كما يُصلي شعيب، ولهذا تفرّد شعيب بالصّلاة عبادة حتى أصبحت الصّلاة وكأنها جزء منه ممّا جعل القوم يصفونه بها متسائلين بقولهم الارتباطي: (أَصَلَاتُكَ؟! ) أي الذي يربط صلة ويوثقها بين شعيب والصّلاة حتى وصفت الصّلاة بأنها صلاته التي بها يوصف.

## 6 - حلیم:

الحليم: "الذي قد كمل في حلمه" 187.

<sup>186</sup>هود 86، 88.

<sup>187</sup>القائد إلى العقائد، ج 1، ص 158.

الحليم: "هو الذي يشاهد معصية العصاة ويرى مخالفة الأمر ثم لا يستفز غضب ولا يعتريه غيظ ولا يحمل على المسارعة إلى الانتقام مع غاية الاقتدار عجلة وطيش"188.

الحليم: الصفوح عن الذنب مع القدرة على المؤاخذة به، وهو الدائم على الصفح دون كَلَل ولا ملل، ولذا في أسم الحليم صفة الرِّحمة متصلة لا تنقطع ولا تنفصل.

قال النابغة الجعدي:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له . . . موارد تحمي صفوه أن  
يكذرا

الحليم هو الله عزّ وجلّ بيده أمر كلّ شيء؛ بيده الثواب وبيده العقاب، ألا أنّ ثوابه أوسع من عقابه، ورحمته أعم وأشمل من نقمته؛ فرحمته تعم المخلوقات جميعا والبشر جميعا المطيع منهم والعاصي، أمّا نقمته فهي لا تكون إلا على مشرك وكافر وعاصٍ ومعاند ومتكبر على ذاته العلية، وهي أيضا تلحق كلّ مفسد وسافك للدماء في الأرض بغير حقّ، وتلحق كلّ ظالم.

والحليم في اللغة صفة للموصوف بالحلم، فعله حَلِمَ يَحْلِمُ حِلْمًا، وصفة الحلم تعني الأناة ومعالجة الأمور بصبر وعلم وحكمة، وفي مقابلها العجلة المفسدة لأموال الدين والدنيا. والحليم هو الذي يرغب في العفو ولا يسارع بالعقوبة، قال الله تعالى في وصف نبيه إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}189.

---

<sup>188</sup>المقصد الأسنى، ج 1، ص 103.

<sup>189</sup> التوبة، 114.

وفي لسان العرب الحِلْمُ: الأناة والعقل ويجمع على أحلام  
وحُلُوم، قال تعالى: {أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ  
طَاعُونَ} 190.

وقال جرير:

هل من حُلُومٍ لأقوامٍ فتندرهم. . ما جرب الناس من عصِي  
وتضريسي.

وفي تفسير الحليم أنه الذي لا يعجل بالعقوبة والانتقام، ولا  
يحبس عن عباده بذنوبهم الفضل والإنعام، بل يرزق العاصي كما يرزق  
المطيع، وإن كان بينهما تفاضل على مقتضى الحكمة، وهو ذو  
الصفح مع القدرة على العقاب.

والصفوح ذو الصفح الذي لا يستفزه غضب فيعجل، ولا  
يستخفه جهل جاهل مع قدرته على الانتقام، وقال أحد الشعراء في  
هذا المعنى:

لا يدرك المجد أقوامٌ وإن كرموا حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام

ويشتموا فترى الألوان مسفرة لا صفح ذلٍ ولكن صفح  
أحلام 191.

والأخذ بالعمو بالنسبة للحليم بالإضافة يعني أن تعطي من  
حَرَمِك، وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، وأن تحسن إلى من  
أساء إليك وأنت تقتدي بالحليم المطلق الذي تؤمن بأن كل شيء

---

<sup>190</sup> الطور، 32.

<sup>191</sup> زاد المسير، ج 1، ص 222.

بيديه وهو يعفو بجلمه وقدرته ورحمته، ولذا فالعفو من صفاته جلّ جلاله.

ولأنّ في الحُلم اللين كان شعيب صلّى الله عليه وسلّم لينا مع قومه بالرغم من كفرهم بما يدعوهم له وذلك حتى لا يكرههم بأسلوب أو منهج وهو يؤمن بأن الدعوة لله تعالى لا تكون إلا باللين وبالتي هي أحسن، ولهذا كان متصفا في قومه بالحلم، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾<sup>192</sup>.

ولذا؛ فإن حُلم شعيب كان دليل محبة وطاعة، محبة لرسالته وطاعة لله بالدعوة للتي هي أحسن بالتي هي أحسن، فكان شعيب مُعرضاً عن الجاهلين وذلك بعدم مكافأتهم في السفاهة، وعدم مماراتهم فيها، وهو يقابل سيئات قومه بالحسنات التي أعده الله عليها نبيا رسولا.

وعليه فالحلم لا يكون حلما مع الضعف والعجز عن المعاقبة، والجهل بالفعل المحلوم عنه، ولذلك فلا بدّ أن يستوجب الحلم عدة أشياء ضرورية لاعتباره حلما، منها:

أ - القوة:

فالحلم يعتبر ضعفا إذا لم يكن الحلیم قويا فيكون بذلك مثلبة لا مكرمة.

وقد قال النابغة في ذلك:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له موارد تحمي صفوه أن يكدر

---

<sup>192</sup>هود 87.

وقد بيّن الله عزّ وجلّ مدى قوته في كثير من الآيات منها قوله سبحانه وتعالى: {كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {193}، أي أنّ الله سبحانه وتعالى عاقب الكفار من أهل الشرك الذين ماتوا في غزوة بدر بالموت والهلاك قتلا، كما أنّه عزّ وجلّ عاقب آل فرعون بالموت والهلاك غرقا.

وهذا يدل على أنّ الله عزّ وجلّ قوي في أخذه للكفار شديد العقاب لمن عصاه، ولا شيء يعجزه من إنزال عقابه على من يستحقّه، ولكنه يصبر عليهم، ويؤخر معاقبتهم حلما بهم، ولإتاحة الفرصة لهم للتوبة والرجوع عن الخطأ.

ب - العلم بالشيء ونفي الجهل به:

إن الله سبحانه وتعالى عالم عليم بدقائق الأمور وأخفاها، كما يعلم عظام الأمور وأظهرها، ولا يُخفي عنه شيء في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: {لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} {194}، وقال عزّ وجلّ: {أُولَئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} {195}، وقال تعالى أيضا: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} {196}، وقال جل من قائل: {قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {197}، وقال جل وعلا: {يَعْلَمُ

---

193 الأنفال، 52.

194 سبأ، 3.

195 البقرة، 77.

196 التوبة، 78.

197 الأنبياء، 4.

مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا  
وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعُفُورُ {198}.

والآيات الدالة على علم الله كثيرة جدا، وتشير كلها على أن الله عز وجل لا تخفى عليه خافية في هذا الكون كله، وأن علمه ببعض المعلومات لا يمنعه عن العلم بغيره فإنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن، فقد قال تعالى في كتابه الكريم: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} {199}، وبالبديهي أن الله تعالى يعلم أعمال عباده المسيء منهم والمطيع، وما يجول في نفوسهم وعقولهم، فنحن جزء بسيط من هذا الكون الكبير الذي يديره الله ذو القوة المجيد، وما العقاب والجزاء الذي كتبه الله سبحانه وتعالى على عباده إلا عن علمه بمن يستحق الجزاء الحسن، ومن يستحق العقاب، وإن أخره عنه في الدنيا ولم يعجل له به، فلا يظن العبد العاصي أن الله تعالى غافل عنه بتأخير عقابه، لأن الغفلة في حقه مستحيلة وقد ذكر الله تعالى ذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم مثل قوله تعالى: {وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} {200} وأيضا قوله تعالى: {وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} {201}.

وأيضا حذر الله عز وجل العباد من نفسه ومن عقابه مع تركه باب التوبة مفتوحا أمام مرتكب المعاصي رحمةً به وحلما عليه، وذلك

---

198 سبأ، 2.

199 الأنعام، 56.

200 آل عمران، 99.

201 الأنعام، 132.

في قوله تعالى: {وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاخْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ} 202، ولأنَّ الله جلَّ جلاله هو الغفور الحليم، وإن شعيب من المستخلفين فيها، إذا هو من استمد صفاته من صفات الحليم، ولهذا كان شعيب حليماً باستمداده صفة الحلم من الحليم المطلق.

ولأنَّ شعيب مستمد صفة الحلم من الحليم جلَّ جلاله كان شعيب حليماً مع الآخرين يعفو عن سيئاتهم حُلماً عن قدرة وقوة وعلمٍ استمدها من القادر القوي العليم الحليم، فهو إن لم يكن قويا في دائرة الممكن والنسبية يعتبر حلمه ضعفاً، وإن لم يكن قادراً يُعْتَبَر حلمه عجزاً، وإن لم يكن عالماً يُعْتَبَر حلمه غفلة وحققاً.

ولأنَّ الأنبياء والرُّسل الكرام الذين منهم شعيب صلَّى الله عليهم وسلَّم مستمدين صفاتهم من صفات خالقهم الذي اصطفاهم واجتباهم ووهبهم أنبياء ورُّسل كانوا على العلم التام بالنبأ العظيم الذي أظهرهم الله عليه وأظهرهم به للآخرين وكانوا على العلم التام بالرسالات إلى بعثهم بها مبشرين وهادين وداعين ومنذرين بالتي هي أحسن، فهم جميعهم كانوا قوة وكان السلام غاية رئيسة لهم، ولهذا فمع حلمهم ولينهم مع الآخرين إلا أنهم في إحقاق الحق أشداء عظماء، قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 203، وفي كلِّ هذه القوَّة الواجبة الإعداد والعدة هم أكثر

---

202 البقرة، 235.

203 الأنفال 60، 61.

محبة عند الله تعالى، كما جاء في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير" 204.

### ج - القدرة:

إذا كان الحليم قادرا على مجازاة المسيء الذي حَلَمَ عليه وعفا عن إساءته، برد الإساءة بمثليها أو بإنزال عقاب آخر قد يكون أكبر منها أو مساوٍ لها، فإن عفوه وصفحته عن الإساءة مع هذه القدرة يكون حِلْمًا، أمّا إذا لم تكن لديه القدرة على المعاقبة، فلا يكون عفوه حِلْمًا بل يكون ضعفاً وعجزاً، ولهذا القوي الحليم يمد أنبيائه بالقوّة والقدرة والاستطاعة إيماناً تامّاً وإرادة تامّة، وبقدرته المطلقة يجعلهم هم الغالبون كما جعل شعيب بقدرته عزّ وجلّ هو الغالب قال تعالى: { فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ } 205

قدرة الله عزّ وجلّ على أفعاله لا حد لها ولا يحتاج في فعله إلى آلات وأدوات، ولا يحتاج إلى تقدم المادة والمدة، بل أمره إذا أراد أن يفعل فعلاً ما أن يقول له كن، وبذلك أعلمنا الله تعالى في كتابه الكريم: { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } 206، وبهذا الأمر نصر الله تعالى رسله وأنبيائه وجنده، على أعدائهم الذين عادوهم في الله عزّ وجلّ، فكان الله عزيزاً ذو انتقام، قال تعالى: { قَدْ

---

<sup>204</sup> صحيح مسلم، ج 13، ص 142.

<sup>205</sup> الأعراف 91، 92.

<sup>206</sup> النحل، 40.

مَكْرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ {207}.

ولأنه لا مغالبة إلا بقدرة، لذا جاءت مغالبة شعيب قومه بقدرة القادر المطلق بالأمر (كن) (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ) ولأنه على كل شيء قدير، لقد انتهى قوم شعيب وهم خاسرون إلا من آمن منهم فهو الحليم الذي بحلمه يعفو عن كثير ويغفر الذنوب لمن تاب واستغفر وآمن بالله الحليم المطلق.

قدرة الله سبحانه وتعالى لا تفاوت فيها بين الأفعال الكثيرة والأفعال القليلة فقال عز وجل: {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلِمَحٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {208}، ولا يعود على الله تعالى من أفعاله تعب، ولا يمسه نصب، قال سبحانه تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} {209}.

ولأن الحلم صفة للحليم تعالى، لذا قد رعب الله سبحانه وتعالى أنبيائه صلى الله عليهم وسلم في الحلم وذلك في قوله سبحانه وتعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا} {210}، حيث أنه في إجراء صفتي (عليما حليما) على اسم الجلالة في هذه الآية إيماء إلى ذلك، فمناسبة صفة العليم لقوله تعالى: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) ظاهرة، ومناسبة صفة الحليم باعتبار أن المقصود هو الترغيب في أليق الأحوال بصفة الحليم، فكان هم الأنبياء الذين منهم

---

<sup>207</sup> إبراهيم 46، 47.

<sup>208</sup> النحل، 77.

<sup>209</sup> ق، 38.

<sup>210</sup> الأحزاب، 51.

شعيب ومحمد صلى الله عليهم وسلم هو التخلق بخلق القرآن، ولهذا  
لقد اتصف شعيب بصفة الحليم كما اتصف سيدنا محمد بصفة  
الرؤف الحليم مصداقا لقوله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ  
عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} 211.

وفي كل الآيات الكريمة المنزلة في الكتاب الحكيم دلالات  
واضحة على أنّ الله سبحانه وتعالى جعل أنبياءه الذين هم خلفائه في  
أرضه يتخلقون بصفات من صفاته عز وجل حتى يسيروا كما يحب  
الله بين خلقه، فهذا هو يصف نبيه إبراهيم صلى الله عليه وسلم  
بالحليم، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} 212؛ فقد  
أجرى تعالى وصف الحليم على سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم في  
معاملته مع أبيه وقومه، ليسرّ لنا منهاج وأسلوب راقيا في تعاملنا مع  
ظروف الحياة وعلاقاتنا مع الأقارب والأبعد، ولهذا فالخليفة هو الذي  
يكون حليما مع والديه ومع بني جنسه على الحق وفي غير معصية الله  
تعالى.

وبما أن الأنبياء هم أفضل من وطئت أقدامهم وجه الأرض بما  
خصوا به من الرسالات، فيكونوا قدوة حسنة لنا نقتدي بهم في  
أفعالهم وأخلاقهم وأقوالهم حتى نكون ممن يستحقون أن يكونوا خلفاء  
الله عز وجل. فقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يغري  
أصحابه بالحلم في كثير من المواقف، فهذا هو يقول لعمر بن الخطاب  
— رضي الله عنه — "يا عمر، أمّا علمت أن الحليم كاد أن يكون  
نبيا" 213، وهذا يبيّن لنا مكانة الإنسان الذي يتّصف بصفة الحلم

---

<sup>211</sup> التوبة، 128.

<sup>212</sup> التوبة، 114.

<sup>213</sup> دلائل النبوة للبيهقي، ج 6، ص 168.

فلا يستخفه طيش ولا غضب بل يتأني ويفكر ويعفو عن المسيء إليه  
فيكون في ذلك خير كبير.

اللهم اجعلنا ممن يتخلقون بأخلاق أنبيائك ويتصفون  
بصفاتك العُلا، واجعلنا من الطائعين لأمرك واستغفر الله من كل  
خطيئة أو ذنب ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والحلم صفة من صفات الله عزّ وجلّ ولا بدّ أن نقدر صفات  
الله وأسمائه جميعاً حقّ قدرها فلا نكون كالذين استخفوا بها واستعجلوا  
عقاب الله استهزاء، كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ  
هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} 214.

فالحلم فوق أنّه صفة كريمة تدل على الحكمة والعلم والصبر إلا  
أنه يدل بالضرورة على عدة صفات أخرى، فهو يدل على الحياة  
والسمع والبصر والعلم والقدرة والغنى والعزة والرفقة والرّحمة وعلو الشأن  
والعظمة وغير ذلك من صفات الكمال، وهي صفات ثابتة في ذات  
الله عزّ وجلّ ويستحيل في حقه عكسها.

أمّا في ذات الإنسان وهو مخلوق، فإن هذه الصفات ليست  
ثابتة في ذاته، ولا يستحيل عكسها في حقه، فإنه لا يتصف بهذه  
الصفات الكريمة إلا من تقرب إلى الله عزّ وجلّ بالطاعة والعبادة ومن  
حرص على الاقتداء بالأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم في أخلاقهم  
فيتخلّق بأخلاق القرآن الكريم ويعمل جاهداً على الاتصاف بصفات  
الله سبحانه وتعالى، فيكون بذلك قد دخل دائرة الخليفة الذي قصده

تعالى في قوله: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} 215. والإنسان المستخلف في الأرض لا بد أن يكون راجح العقل حتى يكون حلمه في موضعه ومع من يستحقه، فالحلم في غير موضعه لا يعد حلما.

ويدخل تحت صفة الحلِيم أيضا صلة الرحم، فالإنسان يجب عليه أن يصل رحمه ولا يقطعه أبدا، وإن كان منهم إساءة في حقه، فالواجب عليه أن يتجاوز عن هذه الإساءة بحلمه، ويقابلها دائما بالإحسان إليهم، ومداومة وصلهم فهم أولى بحلمه من غيرهم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أبو هريرة: "ألا أدلكم على مكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة" قالوا بلى يا رسول الله، قال: "صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعفو عن ظلمك" 216.

وكلّ هذه الأخلاق تكون حلما على الآخرين لأن فيها صبرٌ على أذاهم، بل أكثر من ذلك أنه يقابل إساءتهم من قِطِعةٍ وحرمان وظلم، بالإحسان إليهم المتمثل في الوصل والعطاء والعفو عن الظلم مع القدرة على الانتقام.

والحلم صفةٌ عامةٌ يتبعها عدة صفات داخلية فيها، أو هي من توابعها، وكلّ هذه الصفات هي صفات حميدة، يُمدّح من يتصف بها وتحفو إليها كلّ النفوس السليمة والقلوب المؤمنة، ومنها:

- الكرم:

فالحلم يعتبر كرما من الحلِيم على المحلوم عنه بتجاوزه عن إساءته وعدم إجراء العقاب في حقه مع استحقاق المسيء لذلك العقاب قصاصا عادلا، ولكن تكرما من الحلِيم لم يعاقبه على إساءته

---

215 البقرة، 30.

216 شعب الإيمان للبيهقي، ج 17، ص 118.

مع قدرته عليه بل تسامح تاركاً باب الإصلاح مفتوحاً، ولهذا قال قوم شعيب كما جاء في القرآن الكريم: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)، فقولهم (إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) دليل اعترافي منهم بأنه حلِيم متسامح فلماذا لا يتسامح معهم حتى بالتخلي عما يدعو إليه، ويتركهم وشأنهم يعبدون ما يشاءون مما كان آبائهم يعبدون؟

ولأنّ شعيب مكلف برسالة من الله تعالى وهو رسول نبيا كريما ليس له بدا إلا أن يدعوهم إلى التي هي أقوم بالتي هي أحسن.

وفي معنى الكرم قد ورد هذا المعنى في تفسير قول الله تعالى: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} 217. أي؛ المتجاوز الحلِيم عن جهل العباد 218، "وهو الأكرم الذي له الكمال في زيادة كرمه على كلّ كرم، يُنعم على عباده النعم التي لا تحصى، ويحلّم عنهم، فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه، وركوبهم المناهي وإطراحهم الأوامر، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقرار العظائم. فما لكرمه غاية ولا أمد، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم" 219. وفي هذا الأمر الحقّ الله تعالى يبيّن في الآية السابقة بقوله: {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} 220، أن القلم رحمة والعلم رحمة والكتابة بالقلم حلم من الحلِيم بحال المستخلفين في الأرض سبحانه جلّ جلاله.

---

217 العلق، 3.

218 تنوير المقباس، ج 2، ص 148.

219 تفسير الكشاف، ج 7، ص 155.

220 العلق، 4، 5.

وعليه: الحليم هو الذي يعلم الصعاب، ويعلم بالأحوال،  
ويذلل الصعاب استجابة للأحوال، فيحلمه خلق القلم، وأنزل العلم،  
وربط العلاقات بين القلم، والعلم، والعليم، والمتعلم، فكان الحق قولاً  
وعملاً، وكان العدل والميزان حلماً بأحوال العباد حتى لا يظلم أحد  
أحدا وهذه رحمة من رحمته الواسعة التي بها جعل العباد مستخلفين  
فيها ليصلحوا ولا يفسدوا، قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ  
وَاسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ  
هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنَّ نُفْرُسُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفُهُ لَكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ  
وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 221.

. الرحمة:

وأيضاً يعتبر الحلم رحمةً من الحليم القوي الذي يعلم قدرته  
وعظمته وجبروته على معاقبة من أساء في حقه لو أراد ذلك بالمسيء  
المحلوم عنه، لا لعجز ولا خوف، ولكن رحمةً به وإتاحةً للفرصة له  
للتوبة والندم حتى يكون ممن ينالون الثواب بدل العقاب، قال تعالى:  
{وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى  
نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ  
فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَّيْسَتِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ قُلْ  
إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعْ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ  
ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} 222.

ويتضح هذا المعنى في قوله تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ  
بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا

<sup>221</sup>التغابن 16 . 18.

<sup>222</sup>الأنعام 54 . 56.

جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ {223}. فتأخير العقوبة على الظالمين من بني آدم هو نتاج حلم الحليم المطلق جلّ جلاله وهو رحمة من الله بالمدنّب نفسه، بإعطائه فرصة للتوبة لسببين:

السبب الأوّل: لغاية استخلافية حيث أن أصل خلقه في أحسن تقويم.

والثانية: لتكون له الجنة عاقبة مع المتقين الذين كانوا هم المستخلفين في الأرض.

وقد فسّر ابن عاشور في تفسيره قول الله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} {224} بأنّها استئناف الثناء على سيدنا إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، و(أواه) فُسر بمعانٍ ترجع إلى الشفقة، أمّا على النفس فتفيد الضراعة إلى الله والاستغفار، وأمّا على النَّاس فتفيد الرّحمة بهم والدعاء لهم لأجل الهداية إلى الحقّ {225}.

. الرفق:

والحلم كذلك يُعتبر رفقا من الحليم بالملوم عنه، فالحليم ترك المعاقبة للمسيء ترفقا به؛ لعلمه أنّه لن يطيق ما يمكن أن يقع عليه من العقاب وأملا في أن يندم على إساءته ويرجع عنها حتى لا يتعرض للعقاب، إن لم يتب ويستغفر. وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إن الله رفيقٌ يحب

---

<sup>223</sup> النحل، 61.

<sup>224</sup> التوبة، 114.

<sup>225</sup>التحرير والتنوير، ج 6، ص 393.

الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي ما سواه"226.

وعنها أيضا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه، ولا يُنزع من شيءٍ إلا شانه"227، وقد جعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من لا يتصف بالرفق محروما من الخير كما جاء في حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "من يُحرم من الرفق يُحرم الخير كله"228.

فعلى عباد الله الذين يحسنون عبادتهم، ويطيعون خالقهم، ويدركون معنى أن يكون العبد خليفةً لخالقه، ومعنى أن يستخلفه خالقه في شيءٍ ما، أن يحرصوا كلَّ الحرص على الاتصاف بصفات الله عامّة تامّة، ويتخلّق بخلقه؛ وذلك بأن يكون حليما في حياته مع من سواه من العباد: حليما مع والديه، وأبنائه، وزوجه، وجيرانه، وأصدقائه، وزملائه، وعلى كلِّ من يتولى أمرهم أو يؤتمن عليهم، فيكون بذلك قد اكتسب كلَّ الصفات التي يتضمنها الحليم من رفقٍ ورحمةٍ وكرمٍ، وغيرها من الصفات التي تعد من فضائل الله على خلقه ومن القيم الحميدة التي بها تترسّخ الأخلاق، فينال بذلك احترام وتقدير العباد له كجزاء دنيوي من الله سبحانه وتعالى وينال رضا الله عنه في الآخرة، ويكون بذلك فيمن يستحقون أن يتشرفوا بخلافة الله، وأن يكونوا خلفاء للمولى في الأرض، فينالون بذلك فضل الدنيا والآخرة.

---

<sup>226</sup>صحيح مسلم، ج 12، ص 486.

<sup>227</sup>صحيح مسلم، ج 12، ص 487.

<sup>228</sup>صحيح مسلم، ج 12، ص 485.

وخلاصة القول في ذلك أن الحلم هو: تجرّع الغيظ، ودعامة العقل وعلامة علو الهمة والثقة بالنفس، فلا يحركها الغضب بسرعة.

وان الحليم هو من أوسع الناس صدرا، وألينهم عريكةً، وأشدّهم ثباتا وأقواهم جنانا، فلا تستفزه بدايات الأمور، وينظر إلى عواقبها ومآلاتها ولذلك من يفتقد هذه الخلة قد يُفسد أكثر ممّا يُصلح.

والحلم من الصفات التي يحبها الله في عباده، فعلى العبد أن يدرك أن توحيد الله في اسمه الحليم مقتضاه أن يكون الموحد حليما صبورا يتأني في رأيه وحكمه وقوله وفعله، ويتخير ما هو أنفع له وللآخرين، ويبادر بالتوبة إلى الله الحليم.

وعلينا أن نعرف الفرق بين الحلم والإمهال: إن كلّ حلم إمهال وليس كلّ إمهال حلما لأن الله تعالى لو أمهل من أخذه لم يكن هذا الإمهال حلما لأنّ الحلم صفة مدح والإمهال على هذا الوجه مذموم وإذا كان الأخذ والإمهال سواء في الإصلاح فالإمهال تفضُّل والانتقام عدل وعلى هذا يجب أن يكون ضد الحلم السفه إذا كان الحلم واجبا لأن ضده استفساد فلو فعله لم يكن ظلما إلا أنه لم يكن حكمة، ألا ترى أنه قد يكون الشيء سفها وإن لم يكن ضده حلما وهذا نحو صرف الثواب عن المستحقّ إلى غيره لأن ذلك يكون ظلما من حيث حرمان من استحقّه ويكون سفها من حيث وضعه في غير موضعه ولو أعطي مثل ثواب المطيعين من لم يطع لم يكن ذلك ظلما لأحد ولكن كان سفها لأنه وضع الشيء في غير موضعه، وقولنا الله حليم من صفات الفعل، ويكون من صفات الذات بمعنى أهل لأن يحلم إذا عصي، ويفرّق بين الحلم والإمهال من وجه آخر وهو أن الحلم لا يكون إلا عن المستحقّ للانتقام وليس كذلك

الإمهال، ألا ترى أنك تمهل غريمك إلى مدة ولا يكون ذلك منك حلما، ولذا فالحلم لين، والحليم عطوف رؤوف بحال من هم في حاجة، فيتجاوز عنهم حتى يعلموا أنه رؤوف رحمن رحيم.

قال الله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ} 229 إذا الحليم هو الذي يعلم ما في أنفسنا، وهو الذي لا تخفى عنه خافية، فهو يعلم الظاهر والباطن وهو على كل شيء قدير، ولأنه كذلك لو شاء لعاقبنا على ما في أنفسنا من شكوك أو ظنون أو نوايا حيث لا كمال في العباد. وفي ذلك جاء في شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة "الحليم هو الذي يدبر على خلقه النعم الظاهرة والباطنة، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم" 230.

وحلمه أن العبد يجاهره بالمعاصي مع فقره الشديد إليه، حتى أنه لا يمكنه أن يعصي إلا أن يتقوى عليها بنعم ربه، والرّب مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحي من هتكه وفضيحتة وإحلال العقوبة به، فيستره بما يقيض له من أسباب الستر، ويعفو عنه ويغفر له، فهو يتحجب إلى عبادته بالنعم وبعضهم يتبعضون إليه بالمعاصي، ولهذا كان شعيب صلى الله عليه وسلم متقربا طائعا لرّبه تعالى بالمطلق، وفي مقابل ذلك يتقرب الله لخلقه بالحلم وهم يتعدون عنه بالمعاصي، ولهذا بعث الله رُسُله كما هو حال نبيه شعيب لينح قومه بالحلم ليكونوا من الأمنين ولكن بعضهم كفروا، قال تعالى: {فَتَوَلَّى

---

<sup>229</sup> البقرة 235.

<sup>230</sup> شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ص 55.

عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ  
أَسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ {231}.

ولذا؛ فإن قوم شعيب هم من يريد الله بهم السترة والعفو وهم  
بأنفسهم على غير هداية لما هو من أجلهم أحسن وأقوم، فهو الحي  
الحليم الستار يحب أهل الحياء والستر، ولذا فمن ستر مسلما ستر الله  
عليه في الدنيا والآخرة، ولهذا يكره الله من عبده إذا فعل معصية أن  
يذيعها، بل يتوب إليه فيما بينه وبينه ولا يظهرها للناس، وإن من  
أمقت الناس إليه من بات عاصيا والله يستره، فيصبح يكشف ستر  
الله عليه، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُونَ أَنْ تَشِيَعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ  
آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ  
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ} {232}.

الحليم جل جلاله هو الذي يشاهد معصية العصاة ويرى  
مخالفة الأمر ثم لا يستفزه غضب ولا يعتريه غيظ ولا يحمله على  
المسارعة إلى الانتقام مع غاية الاقتدار عجلة وطيش كما قال تعالى:  
{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ  
إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ  
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا  
جَرَءَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ  
فَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا أَنْزَلْنَا  
عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ  
يُؤْمِنُونَ} {233}.

<sup>231</sup>الأعراف 93.

<sup>232</sup>النور 19، 20.

<sup>233</sup>النحل 61، 64.

الحليم هو الذي لا يعاجل بالعقوبة فكلّ من لا يعاجل  
بالعقوبة سمي فيما بيننا حليما وليس قول من قال إن الحليم هو من لا  
يعاقب بصواب، وفي ذلك قال الشاعر:

حليما إذا ما نال عاقب مجملا. . . أشد العقاب أو عفا لم

يثرب

ولذا؛ فالحليم هو من يصفح مع امتلاكه للقوة والقدرة وهو  
الذي بيده الأمر ولا يعجل بالعقوبة وهو الذي لا يجس إنعامه  
وأفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم، ولكِنَّه يَرْزُقُ الْعَاصِي كَمَا يَرْزُقُ  
الْمُطِيعَ، وَيُتَّقِيهِ وَهُوَ مُنْهَمِكٌ فِي مَعْاصِيهِ، والحليم سبحانه صبور  
يتمهل ولا يتعجل، فهو يمهل عباده الطائعين ليزدادوا من الطاعة  
والثواب، ويمهل العاصين لعلهم يرجعون للطاعة والصواب، ولو أنه  
عجل بالجزاء أحدا ما نجا أحد من عقاب، ولكن الله سبحانه هو  
الحليم ذو الصَّفْحِ والأناة، استخلف الإنسان في أرضه واسترعاه،  
واستبقاه في هذه الحياة إلى يوم موعود وأجل محدود.

قال تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) وهذا مدح عظيم من  
الله تعالى للخليفة إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذا فالحليم هو الذي  
لا يتعجل بمكافأة غيره، بل يتأنى فيه فيؤخر ويعفو، ومن يفعل ذلك  
يكون من المستخلفين في الأرض بالحقّ يصلح فيها ولا يفسد ولا  
يسفك دما بغير حقّ، ويتقي الله ربه في القول والفعل والعمل.

وعليه: الحلم يقوم على ثنائية طرفاها (الإمهال والقدرة)، فلا  
حلم بدون مهلة تسمح بالتراجع أو التغيير، ولا حلم بدون قدرة على

الانتقام أو العقاب، ولذا؛ فالحليم هو الصفوح عن الذنب مع القدرة على المؤاخذة به<sup>234</sup>.

وحلم الحليم لا شك فيه إمهال وهو جزء من حلمه سبحانه، لأنّ كلّ حلم إمهال وليس كلّ إمهال حلما والله تعالى لو أمهل من أخذه لم يكن هذا الإمهال حلما لأنّ الحلم صفة مدح، والإمهال على هذا الوجه مذموم وإذا كان الأخذ والإمهال سواء في الإصلاح فالإمهال تفضل والانتقام عدل، ويفرق بين الحلم والإمهال من وجه آخر وهو أن الحلم لا يكون إلا عن المستحقّ للانتقام وليس كذلك الإمهال ألا ترى أنك تمهل غريمك إلى مدة ولا يكون ذلك منك حلما، وقال بعضهم لا يجوز أن يمهل أحد غيره في وقت إلا ليأخذه في وقت آخر<sup>235</sup>.

وعلى ذلك يمكن أن نحدد بعض ملامح إمهال الحليم؛ وهو على نوعين:

أوّلا: الإمهال المطلق: وهو الإمهال الذي عم به الحليم خلقه بالعموم، ولم يخص به أحدا من خلقه وهو راجع إلى إرادته عزّ وجلّ، وله غايات منها:

. العودة عن المعصية: إن الحليم هو المرید لإسقاط العقوبة في الأصل عن المعصية<sup>236</sup>، ولهذا كان الإمهال وهدفه المراجعة والتفكر في أمر المعصية التي يقوم بها العبد من خلال الآيات، ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا لَهُمُ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا

---

<sup>234</sup>البحر المحيط، ج 2، ص 374.

<sup>235</sup>الفروق اللغوية، ج 1، ص 198.

<sup>236</sup> الأسماء والصفات للبيهقي ص 349.

أَلَيْمًا {237، {وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} {238، فهذه الآيات وغيرها من آيات الحليم سبحانه وتعالى هي للتفكر والتدبر ومراجعة العمل وأخذ الدروس والعبر، ومثلها الأمثال، يقول الحليم سبحانه ضاربا الأمثال: {وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ} {239، فعلينا التدبر، ويقول عز من قائل: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُضْرِبَهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} {240، وفي تفسير الرازي "وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ يعني حقيقتها، وكون الأمر كذلك لا يعلمه إلا من حصل له العلم ببطلان ما سوى الله وفساد عبادة ما عداه، وفيه معنى حكيم وهو أن العلم الحدسي يعلمه العاقل والعلم الفكري الدقيق يعقله العالم، وذلك لأن العاقل إذا عرض عليه أمر ظاهر أدركه كما هو بكنهه لكون المدرك ظاهرا وكون المدرك عاقلا، ولا يحتاج إلى كونه عالما بأشياء قبله، وأما الدقيق فيحتاج إلى علم سابق فلا بد من عالم، ثم أنه قد يكون دقيقا في غاية الدقة فيدركه ولا يدركه بتمامه ويعقله إذا كان عالما. إذا علم هذا فقله: (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) يعني هو ضرب للناس أمثالا وحقيقتها وما فيها من الفوائد بأسرها فلا يدركها إلا العلماء" {241.

وهذه الأمثال تُضرب لإثارة العقل الإنساني ودعوته للتفكر في الدواعي والأسباب الموجبة لضرب هذا المثل ثم استخلاص العبر من أجل حصول الفائدة، وفي ذلك كله مهلة زمنية تتاح للعبد لكي

<sup>237</sup> الفرقان 37.

<sup>238</sup> العنكبوت 35.

<sup>239</sup> إبراهيم 45.

<sup>240</sup> العنكبوت 43.

<sup>241</sup> تفسير الرازي، ج 12، ص 172.

ينجلي عنده ظلام الضلال وينبجس صبح الهداية وهذا المراد من ضرب الأمثال من الحليم.

ثم يأتي أهل الذكر من المتبحرين في كتاب الله وسنة نبيه وهؤلاء من علامات الهدى التي أمر الحليم عباده بالعودة إليهم لاستبيان الحق فقال عز من قائل: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } 242، هذه كلها من دوافع التذكر والعودة، فإذا استنفذ العبد كل ذلك ولم يرجع عن معصيته إلى طاعة الخلق عز وجلّ يحلّ عليه غضب الله، ويكون قد دخل في ساعة العقاب على ما يشاء الله سبحانه، فإن شاء عاقب، وإن شاء مدّ المهلة والله واسع عليم رحيم كريم.

ومد المهلة أكثر قربا من حظ العبد لأنّ الحليم وهو الذي يؤخر العقوبة على مستحقّيها ثم قد يعفو عنهم 243، وهو الذي وسع حلمه أهل الكفر والفسوق والعصيان، ومنع عقوبته أن تحل بأهل الظلم عاجلا، فهو يمهّلهم ليتوبوا، ولا يمهّلهم إذا أصروا واستمروا في طغيانهم ولم ينيبوا 244.

. الزيادة في الطاعة، ويكون من غايات مهلة الحليم أن يزداد العباد علوا في درجات الطاعة أملا في زيادة الأجر والثواب وارتقاء الدرجات العلى في اليوم الآخر، وقد دعاهم الحليم إلى ذلك ورغبهم فيه فقال جلّ جلاله: { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ

---

<sup>242</sup>النحل 43.

<sup>243</sup>الاعتقاد للبيهقي، ج 1، ص 58.

<sup>244</sup>شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ص 95.

وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ {245، وفي ذلك فليَرْغَبِ الرَّغْبُونَ  
بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ الْحَلِيمِ الْعَظِيمِ.

وقد وصفهم الحليم بأنهم من ذوي الألباب الذين يعرفون حق  
الله فيزيدون في طاعته ويكثرون من ذكره طمعا في زيادة أجره وهم  
يعلمون أنه الكريم، قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَاجْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا  
وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا  
خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ  
النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعنا مُنَادِيًا يُنَادِي  
لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمَنَّا رَبَّنَا فَأَعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا  
وَتَوَفِّقْنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} {246.

وهذا من لطف الحليم المتصف بالحلم، والحلم صفة كريمة تقوم  
على الحكمة والعلم والصبر، والحليم سبحانه صبور يتمهل ولا يتعجل،  
فهو سبحانه يمهل عباده الطائعين ليزدادوا من الطاعة والثواب {247.

والموصوفون هنا بالعلم (ذوي الألباب) يدركون رحمة الحليم بهم  
في مسألة الإمهال لزيادة الثواب، فهم يسعون للوصول إلى درجة  
المقربين، {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ} {248،  
أو أن يكونوا من أصحاب الدرجات العلى، قال تعالى: {وَمَنْ يَأْتِهِ  
مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ

---

<sup>245</sup>المطففين 22 . 26.

<sup>246</sup>آل عمران، 190 . 194.

<sup>247</sup>أسماء الله الحسنى، ص 30.

<sup>248</sup>الواقعة 88 . 89.

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى {249، أو أن يكونوا من المفلحين أصحاب الفوز العظيم، قال تعالى: {لَكِنَّ الرِّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَاءِكُمْ هُمْ الْخَيْرَاتُ وَأَوْلِيَاءِكُمْ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} {250، وهم في كل ذلك يهزهم الشوق إلى مزيد الحليم المخفي الذي وعدهم فشوقهم وجعلهم يتنافسون في الطاعات ويرغبون في المزيد، {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} {251، انظر عظمة العطاء! الجنة بكل ما فيها وبكل عظمتها تتحرك باتجاههم وليس هم من يركض إليها، اللهم يا حليم اجعلنا منهم وأمة حبيبك محمد صلوات الله وسلامه عليه.

. الزيادة في الإثم، ومن غايات المهلة ما حُص به الكافرون لعله الكفر والإصرار عليه وذلك لزيادة الإثم، يقول الحليم سبحانه وتعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّيَهُمْ حَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} {252، فالمهلة هنا مهلة زمنية ومادية، حيث أن الإمداد المادي يحتاج بكل تأكيد إلى مساحة زمنية والغاية زيادة ارتكاب الإثم، وهذا ما تؤكد الآية الكريمة التي يقول الحليم سبحانه وتعالى فيها: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ فَذَرَهُمْ فِي

<sup>249</sup> طه 75 . 76.

<sup>250</sup> التوبة 88، 89.

<sup>251</sup> ق 31 . 35.

<sup>252</sup> آل عمران 178.

عَمَّرْتَهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَئِذٍ تُسَارِعُ لَهُمْ فِي  
الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ {253}.

وتبقى رحمة الحليم أوسع من سخطه، فلو حدث أن انتبه  
أحد من الذين كفروا وعاد إلى الله مخلصا فإنه سيجد الله توابا بجلمه  
وكرمه، {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ  
عَفُورًا رَحِيمًا} {254}، وسيجد من الله رحمة في الدنيا وسعة فإذا عاد  
عاد الله عليه بالنعمة والعذاب، {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ  
فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا  
خَالِدُونَ} {255}.

هذا الحديث كان عن المهلة المطلقة، وهي مطلقة من حيث  
النوع وليس من حيث الزمن، فالمطلق هنا البشر من عبيد الله، وليس  
الزمن، فلا زمن مطلق لأي شيء سوى الخلود الأخرى أما في الجنة  
جعلنا الله من الخالدين فيها، قال تعالى: {قُلْ أُو۟نِبِّئُكُمْ بِمُحْيِرٍ مِّنْ دَلِكُمْ  
لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا  
وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} {256}، وأما في النار  
أجارنا الله من عذابها، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا  
أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا  
يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ} {257}.

---

<sup>253</sup>المؤمنون 52 . 56.

<sup>254</sup>النساء 110.

<sup>255</sup>البقرة 275.

<sup>256</sup>آل عمران 15.

<sup>257</sup>البقرة 161 . 162.

. الإمهال المحدد، وهو ما كتب الله له الانتهاء بعد فعل أو زمن، فالحليم عليهم بعباده وبمتغيرات وتقلبات نفوسهم لذا فقد شملهم بالمهلة وكتب عليهم ثوابت من عنده فإذا أخلوا بها انتهت المهلة التي حددها الحليم لهم، فرمما يكون الانتهاء بعد فعل مشروط، أي أن يفعل العبد فعلاً مُنْعَ منه وُثِبَ إلى عاقبته كما فعل بنو إسرائيل، {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا} 258. فقد اقترن انتهاء المهلة بفعل الإحسان فإذا انتهى الإحسان انتهت المهلة، وكذلك فإن كل انتهاء لمهلة الحليم يرتبط بكل تأكيد بفعل العباد، فمتى ما غيروا انتهت مهلة الرحمة وبدأ العذاب، {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} 259.

وقد يكون الانتهاء بعد زمن قدره الحليم سبحانه وتعالى، فهو لا يُعَجِّلُ العقاب للعصاة قبل وقته المقدر 260، وهي مهلة محددة جعلها الحليم سبحانه كنوع من التحدي للأقوام التي وعددها بالعذاب، حيث حددها في الغالب بزمن مخصوص فهل يستطيع هؤلاء رد العذاب وعندهم مهلة للتفكير والتدبر في أي أمر إن شاءوا؟ وقد

<sup>258</sup>الإسراء 4 . 8.

<sup>259</sup>الرعد 11.

<sup>260</sup>المواقف للإيجي، ج 3، ص 319.

أعطى قوم ثمود مهلة محدودة وتحداهم أن يقدروا على رد العذاب فقال تعالى: {وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ مَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ} 261. وأمهل قوم لوط مهلة الليلة فقال إن موعد العذاب الصبح، {قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ أَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} 262.

وإذا سأل سائل: لماذا الإمهال؟

نقول:

لأنه الحليم مصداقا لقوله تعالى: {أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاخْذَرُوهُ وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ} 263.

فإذا قال: لماذا هو حليم؟ نقول لأنه العليم، ولماذا هو عليم؟ لأنه الخالق، {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ} 264.

فالله هو الخالق والعليم بخلقه الحليم بهم، فقد خلق الخلق وهو يعلم ما به من النقص الحاصل أمام كماله جل شأنه، فكان حليما به، هذا النقص نتج عنه ضعف في العبد يتمثل في أمور منها:

. أنه هلوع، أي أن لا يصبر على حَيْرٍ ولا شَرٍّ حتى يفعل في كل واحدٍ منهما غير الحق 265، قال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ

<sup>261</sup>الذاريات 43،45.

<sup>262</sup>هود 81.

<sup>263</sup>البقرة 235.

<sup>264</sup>الحجر 86.

<sup>265</sup>تاج العروس 1، 53.

هَلُوعًا {266، هذا الهلع يوقع العبد في الذنب أحياناً، فلو لم يجد المهلة من الحليم سبحانه للتراجع والاستغفار لهلك؛ فسبحان الحليم العليم.

وعلى الخليفة أن يفهم هذه الخصلة في نفسه وفي غيره، فيعامل العباد معاملة العارف بملعهم من حيث حلمه عليهم وإدراكه لما يصيبهم من علة تؤدي بهم إلى الوقوع في الخطأ.

. عجول: قال تعالى: {وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا} {267، والعجالة شكل من أشكال الضعف، أما أمام رغبة يتعجل في تحقيقها، أو في قول يسبق إلى النطق به وهذا محاسب عليه كما الفعل لأنّ سبحانه يقول: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} {268، وهذه العجالة يصاحبها في الغالب عمل يتعدى به حدود الله أو ينتج عنه معصية، ولو لم يكن الحلم منه عزّ وجلّ لحل بالعباد غضب الله ونزلت بهم عقوبته، وعلى الخليفة أن يتأني في النظر إلى الأمور وأن يتأني في الحكم على الأشياء حتى لا يسمح للعجلة بأن توقعه بما لا يريد الحليم له أن يكون من فعل أو قول.

. جزوع، وهو قلة الصبر: {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا} {269، وهو من أمراض النفس المؤقتة التي تدفع بالإنسان إلى ارتكاب عمل خارج عن الطاعة، وما أن ينتهي الجزع حتى يعود الإنسان إلى رشده،

---

266 المعارج 19.

267 الإسراء 11.

268 ق، 18.

269 المعارج 20.

ولو لم يكن الإمهال من الحليم الرّحيم بحيث يرجع العبد إلى استقراره النفسي ثم يستغفر ويتوب لوقع في غضب الله سبحانه وتعالى.

. منوع: أي مانع للخير: {وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} 270، وإذا كثر ماله، ونال الغنى تراه يبخل على المحتاج، فلا ينفق في سبيل الله، ولا يقرض محتاجا مع توصية الحليم له بذلك، بل أكثر من ذلك فقد نسب الاقتراض بمجمله إليه بقوله: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} 271، فلو لم تكن من مهلة لكي يتراجع العبد بعد أن يرى الآيات ويتدبّر الأمثال ويستمتع لأهل الذكر، لوقع عليه سخط الله ما أن منع، فالمهلة هنا رحمة من الحليم الرّحيم بعباده.

. ضعيف: قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} 272، وضعف الإنسان أمر بدأ مع خلق آدم، فقد ضعف آدم أمام إغواء الشيطان ووسوسته وتغريراته فاستجاب لدعوته بمخالفة أمر ونهي الخالق: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَخْبُكُمَا أَنْ تَتَّكِفَا الشَّجَرَةَ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ

---

<sup>270</sup>المعارج 21.

<sup>271</sup>الحديد 11.

<sup>272</sup>النساء 28.

لَكَمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ} 273، ثم ضعف ابن آدم أمام رغبته الدنيوية مصداقا لقوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} 274، والآيات التي توضح صورة الضعف الإنساني كثيرة وكلها تشير إلى أن الإنسان غير قادر على أن يكون قويا بالمطلق لأنه ليس القوي المطلق، فالقوي المطلق هو الله فكان لا بد أن يظهر الضعف فيمن سواه، هذا الضعف يحتاج إلى مهلة يستعين بها العبد فيتقوى بالطاعة والعودة والإنابة إلى الله الحليم، ولذا فالقوة غاية حسنة يدب بلوغها في طاعة الله.

ولذا، لقد بين الله لنا أوجه القوة والحلم والقدرة في قصة شعيب مع قومه في قوله تعالى: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مَلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَارِهِينَ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِن اتَّبَعْتُمْ

273 الأعراف 19 . 22.

274 المائدة 27 . 31.

شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَّاسِرُونَ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ  
الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ  
الْخَاسِرِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي  
وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ {275

وعليه: فمن ثنائية الحلم القدرة، وهي قدرة الأخذ، وقدرة  
الترك معاً، فهو سبحانه حلیم لا تهزه معصية العاصي لأنها لا تضره  
ولا تنفعه سبحانه وتعالى، فهو الغني القادر، قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ  
اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ  
مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} 276.

## 7 - رشيد:

الرشيد هو المتمكّن من المعلومة والمتحكم في التصرف فيها  
وفقاً لأوجهها التي ينبغي أن تُفعل أو تُعمل بها.

والرشيد هو المسترشد بما رُشِد به في سبيل تحقيق أهداف أو  
أغراض وغايات عظيمة.

والرشيد المطلق هو اسم من أسماء الله الحسنى وهو يدل على  
مطلق الكمال والحكمة والهدى، والرشيد معناه بالغ الرشاد ومنتهاه في  
التدبير والتوجيه إلى الصواب والحقّ والسداد، فمن القواعد الجلية  
والأشياء المنطقية في إثبات الصفة للموصوف هي ضرورة التلازم بين  
الدال والمدلول حتى يصح لنا أن نستدل بوجود الدليل على وجود  
المدلول، وهو نوع من التلازم الضروري كدلالة وجود الخلق على وجود  
الخالق كما بينا ذلك في مواضع كثيرة، فلما ثبتت أدلة الخلق على أن

---

<sup>275</sup> الأعراف 88 . 93.

<sup>276</sup> النحل 61.

لها خالق فهو دليل على أن الخلق لم يتركوا هملاً، وإنما كان لهم منافع ومعارف ومصالح ومعاش توجهوا إليها خدمة لحاجاتهم كل حسب طبيعة خلقه بالإرشاد من الرشيد جلّ جلاله.

والرشيد في اللغة: "الرشيدُ هو الذي أُرشد الخلق إلى مصالحهم أي هداهم ودهم عليها، وهو الذي تنساق تديراته إلى غاياتها على سبيل السداد من غير إشارة مشير ولا تُسديد مُسَدِّد، والرُّشد والرَّشَد والرَّشاد نقيض الغي"277، ولذا فإن الرشيد المطلق جلّ جلاله قد أرشد الخلق إلى مصالحهم وفق تديراته، ومن الخلق المرشدين إلى ما فيه خصوصياتهم التي خلقهم الخالق عليها:

. الإنسان .

. الملائكة .

. الجن .

. الحيوان على اختلاف أنواعه من الطير والمواشي والزواحف والسوايح .

. النبات من العشب والشجر والجذور .

. الجمادات من الصلب والسائل والغازات .

وهذا يعني: أنه إرشاد فطري من الله تعالى لخلقهِ إلى مصالحهم التي تكمن فيها منافعهم وحاجاتهم التي يكون فيها خيرهم ومعاشهم في دينهم وديناهم على مستوى الخلق العاقل، أو بطريق الوحي كما هو حال النحل والحمام الزاجل وكثير من الطيور في هجرتها المعروفة

---

277لسان العرب، ج 3، ص 175.

صيفاً وشتاءً وهو نوع من البرمجة وليس وحياً عن طريق الملائكة التي تبليغ الرُّسل، أمّا بطريق التسخير كما هو حال كثير من الحيوانات في إرشاد هذا النوع من الخلق خدمة لخلق آخر، وأمّا بالطاعة كما هو حال السماوات والأرض بإرشادها لمشيئته فيما أراد من رشد جل شأنه، حيث نتبين صفة الرشيد من خلال ما أرشدت إليه هذه المخلوقات على اختلاف أنواعها وأوصافها وصفاتها بما تحمل من التباين والمتناقضات وبما تتفق من إتباعها للرشاد.

ولقد بعث الله أنبياءه بالهدى والرشاد وأضفى عليهم من الرشد ما يمكنهم من إرشاد خلقه إلى ما أمر به الله تعالى من الخير والبر والنفع الذي فيه رشدهم ونجاتهم من الشر والغى والضلال فقد قال تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} 278 اعتراف من القوم بأن شعيب رشيد أي أنه رشيد القول والعمل والفعل، وهكذا كان الرُّسل الكرام رُشداً الأقوال والأفعال والأعمال، قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْلُزِمُكُمْ مَوَاهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} 279 لقد أرسل الله تعالى نوحاً إلى قومه وجعله رشيداً مرشداً فقال لهم: إني محذركم من عذاب الله، ومبين لكم طريق النجاة والرشاد الذي أمر به الرشيد

---

<sup>278</sup>هود 87.

<sup>279</sup>هود 25. 28.

الحكيم لما فيه من صلاح وهدى ولكنهم استمروا في غيِّهم بعيدين كلَّ البعد عن طريق الهدى وسبيل الرشاد، ثم نسبوا نوحا إلى الجنون وكذبوه، ولكونه رشيدا فقد احتمل كلَّ أنواع الأذى من قومه ذلك أن الرشيد حلِيم وحكيم وصبور وشكور لذلك لم يطلب منهم إلا أن يتبعوا الرشد الذي أرسل به، وأوّل الرشد هو التسليم بالوحدانية لله تعالى وذلك لخوفه عليهم وحرصا منه على نجاتهم، ولأنّ رشيد فقد بذل كلَّ جهده في دعوتهم وأفنى عمره في نصحتهم وإرشادهم مخافة أن يحل عليهم ما هو أعلم به منهم، ألا وهو عذاب أليم في الدنيا وخلود في نار جهنم في الآخرة، ولقد اتضحت صفة الرشيد في نوح بما كان يصدر من قومه من سفاهة وابتعاد عن طريق الرشاد، فعلى الرغم من نبوته كانوا يقولون: ما نرى إلا أنّك بشر مثلنا، فليس فيك ما يجعل لك ميزة خاصة، وفضلا يحملنا على الإيمان بأنّك رسول من عند الله، وما نرى الذين اتبعوك من بيننا إلا الطبقة الدنيا منا، وما نرى لكم من فضل علينا، بل إنا نعتقد أنكم كاذبون فيما تزعمون، فنوح مكث في قومه ألف عام إلا خمسين وهو يدعوهم إلى الحقّ وسبل الخير، فأية حكمة وأي رشد وأي هدى هذا الذي أتاه الله حتى صبر كلَّ هذا الصبر على السفية والمتكبر وأراذل النّاس ممن كانوا يستهزؤون ويسخرون ممّا كان يدعوهم إليه، فلولا الحكمة البالغة التي أيده بها الحكيم، والحلم العظيم الذي امتن عليه به الحلِيم العليم، والهدى الذي هداه إليه الهادي الكريم، والرشد الذي منحه إياه الرشيد جل شأنه وعزت قدرته، لما كان رشيدا ومرشدا لقوم لا يفقهون، فهو لا يريد منهم جزاء ولا شكورا إلا إتباع سبيل الهدى والرشاد وما يطلب على ذلك من أجر إلا من الرشيد الذي أوكله بإرشاد قومه حيث قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَأُوا رَحْمَةً مِنِّي وَأَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ

مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَدْعُونَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي  
 خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي  
 أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ  
 الظَّالِمِينَ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ  
 كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ  
 وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ  
 يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ  
 إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ  
 إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئَسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْصِ الْقُلُوبَ بِأَعْيُنِنَا  
 وَوَحِينَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ {280} ويا قوم، فهو  
 لا يطلب على تبليغ رسالة ربه من أجل إرشادهم مالا ولا أجرا، وإنما  
 يطلب جزاءه من الله، وما هو بطارد الذين آمنوا برهم عن مجلسه  
 ومعاشرته لأنهم أرشدوا إلى الحق ولأنهم سيلاقون رهم يوم القيامة،  
 فيشكونه إليه إن طردتهم لفقرهم أو أبعدهم عن سبيل الرشاد، غير أن  
 قومه يجهلون ما يصح أن يتفاضل به الخلق عند الله بين من هو راشد  
 إلى الحق وبين من هم في الغي والضلال يعمهون، فمن لم يأت إلى  
 طريق الرشاد وسبيل الخير لا أحد يستطيع منع عقاب الله عنه، فهو  
 لأنه رشيد ولأنه رسول، فلا يقول عنده خزائن رزق الله يتصرف فيها  
 كما يشاء، فيجعل من يتبعه غنيا ولا يقول إنه يعلم الغيب، فيخبرهم  
 بما اختص به علم الله، بحيث لا يعلمه أحد من العباد، وكذلك فهو  
 ليس ملك ردا على قوهم: ما ذاك إلا بشر، ولا يقول عن الذين  
 يحتقروهم إن الله لن يؤتيهم خيرا إرضاء لرغبات الذين أبوا إلا الضلال  
 والغبي والابتعاد عن الرشاد، لأن الله وحده هو الذي يعلم ما في

أنفسهم من إخلاص، فإنه إن قال لمن اتبعه ما يجب أصحاب الغي والضلال خرج من الرشد إلى غيره من الصفات التي لا تليق بمن أرشده الله وجعله رشيدا في نفسه ومرشدا لغيره، فهذه صفة الظالمين لأنفسهم ولغيرهم، فالمبتعد عن الرشد لا يرى نور الهدى مهما تمت المحاولة معه من النصح والإرشاد، فهم لا يرون الدعوة إلى الرشاد إلا جدلا لا طائل من ورائه، لذلك ضاقوا ذرعا بهذه الدعوة حتى ملّوا منها ولم يعودوا يهتموا بإرشاد الرشيد لهم وما كان منهم إلا أن قالوا، فأتنا بهذا العذاب الذي تهددنا به، إن كنت صادقا في أنّ الله سيعذبنا إذا لم نؤمن لك. غير أن نوحا صلى الله عليه وسلم كونه رشيدا وهاديا وحكيما أجابهم بأن هذا الأمر بيد الله وحده، فهو الذي يأتيكم بما يشاء حسب حكمته، ولستم بمفلتين من عذابه إذا جاء، لأنه سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ولأنّ الله الرشيد يرشد من يشاء إلى صراطه المستقيم كما قال تعالى: {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} 281 فلم ينفعهم نصحه لمجرد إرادته الخير لهم، إن كان الله يريد أن يضلوا لعلمه وتقديره فساد قلوبهم حتى صارت لا تقبل الرشد، وهو سبحانه ربهم، سيرجعكم إليه يوم القيامة، ويجازيهم على ما كانوا يعملونه، ثم إن الله الرشيد أرشد نوحا إلى أن يصنع الفلك لأنهم مغرقون، وأرشده لأن يحمل معه من كل زوجين اثنين من أجل استمرار الحياة حتى لا تهلك جميع الحيوانات والبهائم، وهذا الإرشاد لا ينحصر في نوح ومن آمن معه، وإنما هو من عموم الخصوص، أي أنه خص به نوحا، وعمومه يشمل من يأتي بعده من ذرية البشر دلالة على إرشادهم بما يفعلون إذا نزلت بهم النوازل أو أحاطت بهم الكوارث، فهذا سبيل رشد للخلق جميعا، وكذلك فالله

---

<sup>281</sup>الجن 21.

تعالى أتى إبراهيم رشده وصلاحه وهداه ليكون مرشداً، لقد أتى الله  
الرشيد إبراهيم رشده من قبل وكان به عالماً بفطرة الله التي فطره إياها  
على الرشد والاسترشاد حتى ساقه الدليل إلى معرفة فاطر السماوات  
وخالق العباد، فإبراهيم صلى الله عليه وسلم رأى كوكباً فقال هذا ربي  
ثم تبين له أنه ليس بإله فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل  
قال لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين فتبين له أنه ليس بإله  
فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم  
إني بريء مما تشركون وهذا إشارة إلى الرشد الذي أتاه الله من قبل بدء  
أمر نبوته حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ  
عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا  
وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ  
قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ  
أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُنَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ  
يَرْجِعُونَ} 282.

فالله سبحانه وتعالى هو الرشيد الذي أرسل الأنبياء عليهم  
الصلاة والسلام راشدين ومرشدين للبشرية يبينون لهم طرق الهدى  
وسبل الرشاد، بالعدل والحق ليأخذوا بأيدي الناس إلى الرشاد بما  
أرشدهم الله تعالى، فما أحل الله تعالى من شيء إلا وفيه رشد للخلق،  
وما حرم عليهم من شيء إلا وفيه رشد لهم أيضاً، وما نهي عن شيء  
أو أمر بشيء إلا وفيه الرشد والصلاح والهدى والاستقامة، وأول ذلك  
هي العبادات إذ ليس هناك عبادة إلا وفيها خير الناس وصلاح أمرهم  
فالصلاة الكاملة تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر لأنها تقوي الإيمان

<sup>282</sup>الأنبياء 51 . 58.

بالله تعالى وتعمق في نفس المصلي تعظيمه سبحانه والخوف من عذابه ورجاء ثوابه وهذا كله من الرشاد، وإذا تعمق هذا الشعور الإيمانى في قلب الإنسان فإنه يتكون لديه الوازع الدينى الذى يدفعه إلى الفضائل ويردعه عن الرذائل، وبالتالى يكون حكما على تصرفاته وسلوكه فى هذه الحياة وهذا معنى إرشاد العبادة، ولقد فهم قوم شعيب صلى الله عليه وسلم دعوته إلى هذه المزية من مزايا الصلاة فذكروا ذلك له بأسلوب من السخرية والإنكار وذلك فيما قاله الله سبحانه عنهم بقوله: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} 283 فقوم شعيب صلى الله عليه وسلم ينكرون عليه وسلم أمرهم بالصلاة لله تعالى التى تمنعهم من السجود للأوثان ومن التصرف فى أموالهم بما لا يرضى الله تعالى وبعبارة أخرى أنهم رفضوا سبيل الرشاد وقد كانوا يطففون فى المكاييل والموازين ويبخسون الناس أشياءهم، ومن مفهوم السياق العام للحوار الذى دار بين شعيب صلى الله عليه وسلم وبين قومه أن الصلاة التى كان يؤدّيها هى التى تدفعه إلى منعهم ما يفعلون، وهى بالتالى كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر فإنها تأمر بالمعروف والرشد الذى أمر به الرشيد، فالأنبياء صلى الله عليهم وسلم راشدون بما هداهم الرشيد إليه، وهم حلماء كرماء أصحاب قلوب صافية وأخلاق عالية ونفوس مطمئنة، وهذه الصفات يتحلى بها الخليفة كونه رشيدا ومرشدا، ومن خلال ما ذكرنا نتبين أن الرشيد أيضا صاحب نفس مطمئنة، وهذا الاطمئنان يعود إلى رشده على الرغم مما يلاقى من منازعات وخصومات وطموح من أصحاب الغي والباطل، ليثبوا بغيهم وضلالهم على رشده وحكمته، لذلك فالرشيد بالإضافة حكيم حلیم

راجح العقل صائب الرأي تام النفس، لأنّ في إتمام النفس المطمئنة اكتساب الرشد لها وإبعاد الغي عنها، وهذا ما يستوعب أضعاف العمر كما رأينا، فكيف إذا كان العمر قصيرا، وكان ما يدعو إليه الهوى كبيرا من شأن النفس الأتّارة بالسوء السادرة في الغي والبعيدة عن الرشد، ومتى تكررت المساوئ على تلك النفوس انتقلت إلى القلوب وتطرت إلى اللسان، وانتشرت في المحافل، والتفت بها بعضهم إلى بعض وهذه مكسرة للهيبة، وقلة الهيبة رافعة للحشمة، وارتفاع الحشمة باعث على الوثبة، والوثبة غير مأمونة من الهلكة، وما يخلو الخليفة من طامع راصد يناوئ الحلم بالجهل والهدى بالضلال والرشد بالغي، ولا ينبغي للخليفة الحازم أن يظن أنه لا ضد له ولا منازع، وقد ينجم الضد والمنازع من حيث لا يحتسب، وهنا أعظم ما يكون الخليفة رشيدا في استيعاب أهل الغي بمبادرتهم بالرشاد الذي أمر به من الرشيد الجليل، ويسلم أمره للذي أرشده ولسان حله يقول اللهم هذا الجهد، وعليك اتكلنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود، والركع السجود فما ينبغي للخليفة إلا أن يكون أهلا بما استخلفه الله فيه.

والرشيد يرشد إلى الرشد الذي هو نقيض للغى ومنافٍ له، ذلك أنّ الغي يؤدّي إلى الضلال، والضلال يؤدّي إلى التهلكة، لذلك فإن الله تعالى أمر بالرشد ونهى عن الغي والضلال والتهلكة.

فإذا أردنا أن نعرف رشد الرشيد ونقف عليه من قرب علينا أن ننظر إلى أصل تكوين الخلق من البشر وما هو منّا ببعيد، فإنه من دلائل الرشد، القدرة الموجبة للإيمان بالله الرشيد، فإنه خلق الإنسان من خلاصة الطين، ثم خلق نسله فجعله نطفة من ماء فيه كلّ عناصر

الحياة الأولى التي تستقر في الرحم، وهو مكان مستقر حصين منيع، ثم صيرَ هذه النطفة بعد تلقيح البويضة والإخصاب دما، ثم صيرَ الدم بعد ذلك قطعة لحم، ثم صيرها هيكلًا عظميا، ثم كسي العظام باللحم، ثم أتمَّ خلقه فصار في النهاية بعد نفخ الروح فيه خلقا مغايرا لمبدأ تكوينه، فتعالى شأن الله في عظمته وقدرته، فهذا الخلق لا يشبه أحدا في خلقته وتصويره وإبداعه، ثم توجَّ ذلك كله بالعقل الذي هو مستودع الرشاد الذي ميزه به عن جميع مخلوقاته، فهو الدلالة الواضحة على رشد الرشيد لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين، ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتكفل به شاءت أم أبت اضطارا من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار المحبة له، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم، إذ صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ وأرشدته لذلك، فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الرشاد، فابتعاده عن الرشد بعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشتة ببلوغه الرشد، فإنه لم يكن قادرا على الاكتساب، فالآن قد قدر فزادت قدرته بإرشاده إلى طرق الرزق وأسباب العيش، نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم أو الأب وكانت شفقتة مفرطة جدا فكان يطعمه ويسقيه يوميا وكان إطعامه بإرشاد الله تعالى وتسليط الحب والشفقة على قلبه، فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرحمة والرقّة على قلوب الراشدين من خلقه الذين اختصهم بالرشاد، حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه

وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته بما يُشبعها، فقد كان المشفق على الطفل واحدا والآن المشفق عليه جميع من أرشدهم الرشيد إلى الشفقة والرّحمة والمودة، وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجا، فإذا رأوه يتيما سلّط الله داعية الرّحمة على واحد من هؤلاء الراشدين أو على جماعة منهم حتى يأخذونه ويكفلونه، وبسبب من رشد الراشدين الذين اختصهم الرشيد بهذا الفضل العظيم، فقد انتشرت الفضيلة واندحرت الرذيلة وعم الخير وانحسر الشر، لأنّ الرشيد أوتي من الحكمة وفصل الخطاب وحسن المعاملة ما يستطيع به أن يقف طودا منيعا في وجه الغي والضلال الذي هو نفسه يرشد إلى الشر، ولذلك كان الخليفة رشيدا بهذه الصفات التي اختصه بها الرشيد جلّ شأنه، ومن هنا كان الخليفة أيضا علما تشخص إليه الأبصار وتطمئن إليه القلوب مهتدية بهديه ومستنيرة برأيه ومسترشدة برشده، فهو الضامن لصواب الرأي والثقة في القول والعلم والعمل.

فالرّشد من الرشيد إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده لأمر أراده تعالى، والرشد يجده المؤمن في قلبه ولا يقدر على دفعه، فالرشيد من الخلق من آمن عن دليل يرسّخ الرشد في قلبه ويقينه بإيمانه أن الرشيد المطلق إنما هداه إلى هذا الرشد ليس لنفسه فقط، وإنما ليكون رشيدا ومرشدا أيضا، ويلزمه تبين ما أعطي من الرشد الذي جاء به حتى يفهمه للآخرين، وهو أن يخاطبهم بالتأسي والرفق واللين.

فالرّشيد جلّ شأنه أرشد السحاب بإنزاله من جهة السماء ماء منه شراب، وبعضه ينبت منه الشجر، وإلى هذا الشجر أرشد الأنعام لتأكل منه، وأرشد الناس إلى ألبانها ولحومها، وإلى الأصواف

والأوبار والأشعار التي ينتجها كلّ نوع من هذه المخلوقات، ثم أرشد الخلق إلى الفائدة ممّا ينبت هذا الماء الذي ينزل من السماء من الزرع الذي يخرج منه الحبوب والزيتون والنخيل والأعنان، وغيرها من كلّ أنواع الثمرات التي فيها حياة النّاس ومعاشهم، إن في إيجاد هذه الأشياء لعلامة هادية للرشد لقوم ينتفعون بعقولهم ويفكرون كيف أرشدوا إلى هذه الأشياء في القدرة التي أوجدتها، وقد أرشد الخالق عزّ وجلّ كلّ مخلوقاته لما خلقت له فسخرّ الليل إذ جعله مهيناً للنوم والراحة، والنهار جعله مناسباً للسعي والحركة والعمل، وأرشد الشمس في مسارها ودورانها وما تمد الأرض بالدفء والضوء، وأرشد القمر في فلكه ومساره ودورانه شكلاً يختلف عن الشمس لمعرفة عدد السنين والحساب، والنجوم مسخرات بأمر الله تهدي في الظلمات ويرشد الذي يضل الطريق في البر والبحر، إن في ذلك لعلامات وأدلة لقوم يجب أن يكونوا راشدين بما وهبهم الله من عقل يدرك هذه الأشياء، ثم أنّ الله سبحانه وتعالى أباح للخلق الانتفاع بما أرشدوا إليه حيث قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ 284 فالله سبحانه وتعالى لم يحرم الزينة التي خلقها لعباده وأرشدهم إليها، إذ كيف يحرم الله الحلال الطيب من الرزق الذي أرشد عباده إليه بهديه، فهذه الطيبات نعمة من الله ما كان ينبغي أن يتمتع بها إلا الذين آمنوا في الدنيا، لأنهم يؤدون حقّها بالشكر والطاعة، ولكن رحمة الله الواسعة شملت الكافرين والمخالفين في الدنيا الذين علموا الرشد ولم يتخذوه سبيلاً.

---

<sup>284</sup>الأعراف 32.

والرشد هو من الرشيد الذي يوجه العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساد، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} 285 وهو الرشد اللائق به وبغيره من الرُّسل العظام وهو الرشد الكامل ونعني به الاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا والإرشاد بالفضائل الإلهية، فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة ومحركة إليها، فالإنسان الذي يملك مالا على سبيل المثال واستطاع أن يحفظه وينميه في الطرق المشروعة التي أحلها الله تعالى، ولكنه مع ذلك يبدّر، وهذا التبذير هو مضيعة لبعض المال فهو لا يسمى رشيدا لا لعدم هدايته، بل لقصور هدايته عن توجهه لما أرشد إليه، وحتى يكون رشيدا فيجب أن يكون كما قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} 286 فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطي الهداية وميز بها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره، ولكنه لم يعط الرشد، فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة. وأمّا التسديد فهو توجيه الرشد إلى صوب المطلوب واتجاهه من أجل إصابة الصواب في أسرع وقت، فإن الهداية بمجرد ما لا تكفي، بل لابد من هداية محركة للتسديد نحو الرشد، والرشد لا يكفي، بل لابد من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات والجوارح حتى يتم المراد مما انبعث عليه الرشيد، والرشد أيضا هو تنبيه الرشيد ليستيقظ ويتحرك نحو السداد، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد، ومن هنا يكون التأيد للرشيد الذي أرشد فكأنه جامع لأسباب الرشد، وهو

---

<sup>285</sup>الأنبياء 51.

<sup>286</sup>الإسراء 29.

عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من الداخل ومساعدة أعضائه من الخارج، وهذا ما يقربه من العصمة، وهي عبارة عن عناية إلهية تسبح في الباطن، فيقوى بها الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر كما كان حال يوسف صلى الله عليه وسلم حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} 287، وهنا نتبين رشد يوسف صلى الله عليه وسلم عندما عزمت امرأة العزيز أن تخالطه ونازعته نفسه إليها، لولا أن رأى نور الله الحق نصب عينيه قد استضاء به، ولم يطاوع ميل النفس، وارتفع عن الهوى، فامتنع عن المعصية والخيانة وثبت على طهره وعفته. فهذه هي مجامع النعم، ولن تثبت إلا بما يخوله الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير ومن ملك ذلك كان من الراشدين، فالذين يتبصرون في آيات الله تعالى طالبين منها التمييز ما بين الخير والشر لعلهم يرشدون أي يسلكون طريق الرشد كما يفعل الموفقون الذين إذا رأوا سبيل الرشد اتخذوه سبيلا فيمشي بهم إلى السعادة الابدية فإن الله يمكنهم من أسباب الخير ويهون عليهم الشدائد ويرفع عنهم الأمور المحرجة ويخرجهم من الظلمات إلى النور ومن الضيق إلى السعة ومن الغي إلى الرشد كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} 288 فالذين بذلوا جهدهم، واحتملوا المشقة في سبيل إحقاق الحق هم مُرشدون إلى طريق الهداية والخير والحق، ومن يتبع ذلك يكون من المستخلفين الراشدين، ولا يتوقف الرشد على خلق دون خلق، فالله سبحانه وتعالى قال: {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} 289

<sup>287</sup> يوسف 24.

<sup>288</sup> العنكبوت 69.

<sup>289</sup> طه 50.

ويدخل في ذلك الإنسان والحيوان وجميع المخلوقات على السواء في الهدى والرشاد الذي أراده الخالق، فكيف كان الحيوان مرشدا للاختراع فيما يعمل ممّا لا يستطيعه الإنسان، حيث يصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يتحرّر فيه عقول ذوي الألباب فكيف انفردت هي باختراعها دون إرشاد الرشيد لها، وهي غير عالمة بتفصيل ما يصدر منها من الاكتساب، فالله تعالى هو المتفرد بالخلق ومتفرد بإرشاد خلقه الذي خلقه، فإن انفراد الله سبحانه بخلق الخلق وأعماله وحركات لا يخرجها عن كونها مقدورة لهذا المخلوق أو ذاك على سبيل الاكتساب والإرشاد، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا وخلق الاختيار والمختار جميعا وهدى كلّ مخلوق إلى رشده، إن الخالق عزّ وجلّ لا تنقضي عجائبه في إرشاد خلقه ممّا كبر منها أو صغر، وممّا عظم منها أو هان وضعف فقد قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعُنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعُنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} 290 فبيتها أوهن البيوت وأبعد عن الصلاحية للاحتماء ولكن مع هذا على ما نسج فله حقيقة وانتفاع فلو رأينا العنكبوت حين تبني بيتها لشاهدنا رشدا قد يعجز المهندس في صنعته، فهي إنما تطلب موضعين متقاربين، بينهما فرجة يمكنها مدّ الخيط إليها، ثم تلقي لعابها على الجانبين، فإذا أحكمت المعاهد ورتبت القماط والركائز اشتغلت باللحمة، فيظن الظان أن نسجها عبث، وإنما هي شبكة للبعوض والذباب والحشرات، وإنما إذا أتمت النسيج انزوت إلى زاوية ترصد رصد الصائد، فإذا وقع في الشبكة شيء قامت تجني ثمار كسبها، فإذا أعجزها الصيد طلبت لنفسها زاوية، ووصلت بين طرفيها بخيط آخر،

---

<sup>290</sup> العنكبوت 41.

وتقف في الهواء تنتظر ذبابة تمر بها، فإذا دنت منها رمت نفسها إليها فأخذتها، واستعانت على قتلها بلف الخيط عليها، وهذه الصنعة أرشدها المرشد جلّ جلاله إليها، أفلا ننظر إلى حكمة الرشيد الذي أرشدها وعلمها وفهمها. فما هي عجائب المخلوقات على نفسها ترشد الغافلين إلى باب الرشيد وهم عن التبصر بعيدون.

## 8 - على البيّنة:

البيّنة هي الحجّة الفاصلة بين الحقّ والباطل، والفاصلة بين ما هو دقيق وما هو أدق منه، ممّا يجعل المتحاورين والمتجادلين والمتفاوضين متبيّنين للحقيقة هي كما هي دون أيّ شائبة تشوبها.

وبتوافر البيّنة ينفك الخصام والشجار وينتهي الاختلاف بين الناس إذا تأسس الحوار والنقاش والجدل بينهم على الموضوعية العلمية التي تُظهر الحقيقة من مكان اختفائها.

قال تعالى: { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ }<sup>291</sup> يُفسّر هذه الآية الكريمة الطبري بقوله: "وما تفرّق اليهود والنصارى في أمر محمد صلّى الله عليه وسلّم، فكذبوا به، إلا من بعد ما جاءهم البيّنة، يعني: من بعد ما جاءت هؤلاء اليهود والنصارى البيّنة، يعني: أنّ بيان أمر محمد أنّه رسول بإرسال الله إياه إلى خلقه، يقول: فلما بعثه الله تفرّقوا فيه، فكذب به بعضهم، وآمن بعضهم، وقد كانوا قبل أن يُبعث غير مفترقين فيه أنّه نبيّ"<sup>292</sup>.

ونحن نقول:

---

<sup>291</sup> البيّنة 4.

<sup>292</sup> تفسير الطبري، ج 24، ص 540.

البينة هي القرآن (الحقيقة) التي بُعث بها محمد رسولا للكافة الذين منهم أهل الكتاب (اليهود والنصارى) الذين منهم من آمن ومنهم ومن كفر، ولهذا تفرّقوا من بعد ما جاءهم البينة التي جاءت لتوحّد لا لتفرّق، ولهذا فالذين تفرّقوا عن باطل قد ضلوا والذين اهتدوا بالحق فقد هدوا إلى الصراط المستقيم وما بدّلوا تبديلا، ولذلك كان أهل الكتاب غير منفكين على أنّ محمد سيأتي وهو الرسول الخاتم إلى أن بُعث محمد بالرسالة الخاتمة للناس كافة، قال تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} {293}، فلما أتتهم البينة تفرّقوا فآمن من آمن منهم وكفر وأشرك من كفر وأشرك (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ).

أما المبين فهو الذي لا لبس ولا غموض ولا شك فيه، إنه على الوضوح المبين للحق من الباطل.

ولذا؛ فالمبين هو من لا تلاحقه الأطماع ولا تتعلق النواقص والمظالم به، فهو الذي بحكمه يسود العدل ويملكه تسود الرحمة وبكرمه تزداد الأرزاق وتشبع الحاجات، وبالمطلق المبين هو الذي يعلم ما لا نعلم وهو بكلّ شيء عليم وعلى كلّ شيء قدير متى ما شاء.

والمبين المطلق من أسماء الله الحسنى التي وردت نصا في القرآن الكريم {أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} {294}.

تحتوي هذه الآية الكريمة على ثلاثة أسماء من أسمائه تعالى

هي:

. اسم ذاته الله.

---

<sup>293</sup>البينة 1.

<sup>294</sup>النور 25.

. اسم صفتته الحقّ.

. اسم صفتته المبيّن.

ولذا فكما أن الحقّ اسم صفة من صفاته الحسنى فكذلك المبيّن اسم صفة من صفاته الحسنى.

فالمبيّن جلّ جلاله هو الذي يعلم بالأمر قبل أن يصدره (كن)، ويعلم بالشيء قبل أن يكون شيئاً، ويعلم بحقيقة الشيء الذي هو عليه سواء أكان ظاهراً أم باطناً، ولذا يكون الإنسان في حيرة من أمره والمبيّن تعالى لا حيرة له في كلّ أمر من أمور المخلوقات، فالمبيّن لا تُخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض إنه علّام الغيوب سبحانه لا إله إلا هو جلّ جلاله.

وعليه: لا بيّنة مطلقة إلا من المبيّن المطلق الذي جعل شعيب على البيّنة ليبيّن لقومه الحقّ من الباطل، كي لا يستمروا في نقصهم للمكيال والميزان، قال تعالى: ﴿وإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْتُمْ إِيَّايَ إِذَا بَخَيْتُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي {295}.

ولأنّ البيّنة هي التي تُبين الحقّ، لذا فالحقّ لا يُبين إلا بها، فالذين يرمون المحصنات بما لا يفعلن ظالمو أنفسهم فهم وإن ظنوا لا

أحد من الخلق يعلم ما يخفون فعليهم أن يعلموا أن المبين يعلم بكل شيء وهو بكل شيء عليم ومحيط وقدير، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ الْحَبِيثَاتُ لِلْحَبِيثِينَ وَالْحَبِيثُونَ لِلْحَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 296.

إذا لا شك في ملاحقة اللعنات في الدارين للذين يظلمون الناس وكما هو حال المحصنات البريات اللاتي رُمين بغير حق وهنَّ غافلات عمَّا رُمين به فللرامين بهنَّ عذاب شديد يوم لا ينفع مالا ولا بنون إلا من رحم ربي، ولأن الله هو العليم المبين فهو يعلم بهم وبما رموا به المحصنات ظلما ويوم القيامة ستكون حواسهم شاهدة على أقوالهم وأعمالهم وأفعالهم، ويومها سيعلمون أن الله هو الحق المبين (يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ).

ولأنه كما يقال: كلَّ إناء بما فيه ينضح (الْحَبِيثَاتُ لِلْحَبِيثِينَ وَالْحَبِيثُونَ لِلْحَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ) أي أن المبين جلَّ جلاله لا تخفى عليه الحقيقة فما من شيء إلا ويعلمه {إِنَّ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَحْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} 297، ولذلك، الحبثات سيظللنَّ حبثات للخبثين والخبثون سيظلون خبثين للخبثات وهكذا

<sup>296</sup>النور 23 . 27.

<sup>297</sup>لقمان 16.

فالتطيات سيظللنَّ طبيات للطيبين والطيبون سيظلون طبيون للطيبات  
وهؤلاء هم بعلم المبين مبرءون (أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة  
ورزق كريم).

إذا المبين العظيم هو الذي يرى الطيبون والطيبات مما يقولون  
عليهم من أقاويل وافتراءات ومظالم فهو الذي لا تخفى عليه خافية  
وهو على كل شيء قدير.

ولأنه المبين الأعظم قال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا  
غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ  
تَذَكَّرُونَ } 298. هذه الآيات تبياناً للناس حتى لا يُظلم أحداً أو  
يُنعت بما لا يليق بمكارم الأخلاق وفضائل السماء التي جاءت في  
الكتاب الحكيم.

ولأنه المبين خاطب رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم  
بالتوكل عليه أي التوكل على الله الحق المبين، ولذا فمن يتوكل فعليه  
بالتوكل على الله الحق المبين الذي أنزل مينا في الكتاب الحكيم،  
وعليه فمن يتوكل على الله يجد نفسه على الحق المستقيم ويجد نفسه  
على البينة بالحق المبين قال تعالى: { فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ  
الْمُبِينِ } 299.

قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا  
بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُوا ادْعُ  
لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ  
عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا ما تؤمرون قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا

---

<sup>298</sup>النور 27.

<sup>299</sup>النمل 79.

قَالَ إِنَّهُ يُقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعُ لَوْهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ {300}.

ولأنه المبين فقد بيّن للكافرين والمشركين كلّ شيء طلبوه من موسى صلى الله عليه وسلم تبيانا عظيما، فقد طلبوا منه أن يُبيّن لهم البقرة التي أمر بذبحها فبيّن لهم ما هي وما نوعها ولأنه المبين فبيّن لهم تبيانها تفصيلا وهو على كلّ شيء قدير.

وعليه: المبين يبين للناس كلّ شيء تبيانا ما من صغيرة ولا كبيرة إلا ويبينها قال تعالى: {أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ هُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكَلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ {301}.

حتى لا يجتهد مجتهدا في غير مكانه ليقول اجتهادا لا داعي للمجاعة في شهر رمضان جاء قوله {أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ هُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ {302}.

<sup>300</sup> البقرة 67 . 70.

<sup>301</sup> البقرة 187.

<sup>302</sup> البقرة 187.

ولذا؛ فاختنان الأنفس هو ما تسؤل به أو توسوس به في غير محله كأن تقول نفس لصاحبها جاءك شهر رمضان فلن يكون لك الجماع أو أنّ النفس كانت في حيرة من أمرها والغموض يحوطها من كلّ جانب في الجماع فجاء الحقّ المبين ليبيّن للناس ما هم فيه من حيرة، ولذا فقوله (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ) فهنّ تعود على نسائكم اللاتي هنّ زوجاتكم فهنّ لباسا لكم أي ستره لكم وأنتم ستره هُنَّ أي أن حلائلكم لكم حقّ الجماع فيهنّ في ليلة الصيام بيّنة من المبين فلا تغفلوا أو تفكروا في غير ذلك ولمن سولت له نفسه أو جعلته يظن في غير ذلك فليعلم الحقّ المبين حلالا طيبا.

وعليه فشهر رمضان صومه عبادة وطاعة لله فهو كالصلاة والحج والزكاة له مواقيت من المغرب إلى الفجر هذه الفترة كلّ شيء حلال فيها حلال، وكلّ شيء حرام فيها كما في الأيام الأخرى هو حرام ولا تبديل لخلق الله، قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} 303.

ولأنّه المبين فهو المبين للحلال والمبين للحرام على السواء قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} 304.

<sup>303</sup>الروم 30 . 32.

<sup>304</sup>البقرة 219.

ولأنه المبين فقد جعل اتباع الفضائل والقيم الأخلاقية سنة من سنن العباد الذين بعث فيهم الأنبياء والرسل قدوة وأسوة حسنة، ولذا فالمحافظة على الصلاة والصلاة الوسطى من الفضائل التي يرتضيها الله تعالى والقيم التي يسنها الأنبياء اتباعا لأمر الله عز وجل، قال تعالى: { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَدْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } 305.

ولأنه المبين فقد بين في الآيات الكريمة السابقة الحق المبين لكل من:

. الصلاة تؤدى خمسة مرات كل يوم وفقا لمواقيتها.

. الصلاة الوسطى مع أن هناك أقوال كثيرة إلا أننا نعتقد أنها الصلاة البينية التي جاءت سنة من رسول الله صلى عليه وسلم بين كل صلاة من الصلوات الخمس فصلاة الفجر تتوسط صلاتي العشاء والصباح أي أنها بينهما، وصلاة الضحى تتوسط الصباح والظهر، وركعتي المسجد تتوسط صلاة سابقة وأخرى لاحقة وصلاة الشفع والوتر وصلاة القيام تتوسط العشاء والصباح، وهكذا كل صلاة وسطي هي متوسطة لوقتين من مواقيت الصلاة المفروضة فرضا من الله تعالى والمؤداة إرادة من العباد المؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله رب العالمين.

<sup>305</sup> البقرة 238 . 242.

ونقول للذين يرون في صلاة العصر أو الصبح أو الظهر هي صلاة وسطى وهم على غير اتفاق حيث لا تحديد يبين الصلاة الوسطى نقول لهم:

أنَّ أيَّ صلاة من الصلوات الخمس هي وسطى لغيرها، فإذا اخترنا العصر صلاة وسطى بالتأكيد سيكون وسطا بين صلاتي الصبح والظهر من جهة وبين المغرب والعصر من جهة أخرى، وهكذا صلاة المغرب هي وسط بين صلاتي الظهر والعصر من جهة وصلاتي العشاء والصبح من جهة أخرى، وهكذا بطبيعة الحال بما أن الصلاة جاءت على العدد الفردي خمسة فهي صالحة لأن تكون أيُّ صلاة منها هي الوسطى، ولذا نحن نقول:

الصلاة الوسطى هي صلاة السنن المعروفة دون زيادة ولا نقصان.

. القنوت لله تعالى (طاعة وعبادة وخشوعا).

. ذكر الله بالتمام والكمال على التيسير سواء أكنتم في حالة الراحة والطمأنينة أم كنتم في حالة الخوف من العدو فالملمين جلَّ جلاله يسر لكم الصلاة في الحالتين:

في الحالة الأولى: للصلاة مواقيت سواء أكانت الصلاة أم الصلاة الوسطى.

وفي الحالة الثانية: والأمر على غير طمأنينة فالسائر على قدميه بإمكانه أن يصلي والراكب بإمكانه أن يصلي على ظهر مركوبه.

. المتوفين في الجهاد فلهم وصية لأزواجهم مصداقا لقوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ

غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

. المطلقات حسب الوصية قال تعالى: (وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ).

ولأنه المبين تعالى فهو المبيِّن والمفصل لكلِّ شيء تبيانا وتفصيلا سواء أكان في الماضي أم أكان في المستقبل ولكلِّ غاية من ورائه:

. الغاية من تبيانه للماضي أحوالا وأسبابا وعلل لكي يتذكر أولوا الألباب ويتعظون قال تعالى: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْفِضُونَ الْمِيثَاقَ} 306.

. الغاية من تبيانه للمستقبل لكي يتفكر أولوا الألباب ويتعظون قال تعالى: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} 307.

ولأنه المبين جاء تبيانه رابطا بين ماضٍ ومستقبلٍ في الزمن الآن الذي ليس له بقاء إلا في التاريخ ليتذكر الناس دائما ما فعل السابقون وماذا فعل بهم، قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ

---

<sup>306</sup>الرعد 19، 20.

<sup>307</sup>البقرة 266.

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا  
تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ  
عَذَابٌ عَظِيمٌ {308}.

وفي حكم الموارث يبين المبين عز وجل للناس أحكاما كي لا  
يضلوا الحق، ولأنه المبين فهو الذي يعلم الحق فيظهره لمن يتعلق الأمر  
بهم، قال تعالى: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ  
هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهِيَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ  
لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا  
وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ  
شَيْءٍ عَلِيمٌ {309}.

وعليه لولا المبين تعالى ما كنا عارفين بنور السماوات والأرض  
وما تبينا الظلمات من النور والضلالة من الهدى والحق من الباطل،  
ولهذا فنحن لا نُحَرِّمُ ما أحل الله إيمانا ومعرفة و يقينا، ولا نعتدوا ولا  
نُفسد في الأرض ولا نسفك الدماء فيها بغير حق ولهذا فنحن المتقون  
الذين تبينوا فآمنوا بالله وكتبه وأنبياؤه ورُسله وبما أمر ونهى وأوجب  
وفرض وحرّم وجنّب، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا  
طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَكَلُوا مِمَّا  
رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ  
بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْإِيمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ  
عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ

---

<sup>308</sup>آل عمران 103 . 105 .

<sup>309</sup>النساء 176 .

رَقَبَةً فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ  
وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {310}.

ولأنه المبين جلَّ جلاله فبيَّن لنا مكارم الأخلاق التي على  
أسسها توضع القواعد التربوية بين الأقارب والأبعد وبين الحلائل  
والحرمات، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ  
أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ  
وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ  
عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ  
بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
حَكِيمٌ {311}.

ولزيادة التبيان والتوضيح فيما يجب وما لا يجب وفقا لمكارم  
الأخلاق قال تعالى: { وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا  
اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ  
وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ  
يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ  
عَلِيمٌ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ  
حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ  
بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ  
أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ  
مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ

<sup>310</sup>المائدة 87 . 89.

<sup>311</sup>النور 58.

أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {312}.

وعليه: فالخليفة هو من يتعظ بعد أن يتبين له الحق من الباطل والضلال من الهدى والحلال من الحرام والمنهي عنه من غير المنهي عنه ليقوم بما هو واجب وفرض وسنة، مع فائق التقدير للآخرين الذين لهم حقوق مثلما له حقوق ولهم واجبات مثل ما له واجبات ولهم مسؤوليات مثل ما له مسؤوليات، ولذا فعلى الجميع ممارسة حقوقهم وأداء واجباتهم وحمل مسؤولياتهم بإرادة.

ولأنه الخليفة فهو الذي يستمد صفاته من صفات الخالق جلّ جلاله وهو الذي يستمد صفة التبيين من المبين الأعظم ليكون أسوة حسنة لغيره من بني نوعه وجنسه فيهدي للتي هي أحسن بعد تبين للحق من الباطل ويعمل المعروف بعد تبيانه لمستحقه طاعة لله تعالى، ويبين للنشء الفضائل التي جاءت تفصيلا في الكتاب الحكيم ويبين القيم التي تؤسس لمكارم الأخلاق ويبين الحلال من الحرام للذين لم يميزوا بينهما ويبين لهم الواجب من الفرض من السنة ولكل تفصيلاته قولا وفعلا وعملا وسلوكا.

## 9 - مرزوق رزقا حسنا:

المرزوق هو من يؤتى رزقا من الرزاق الأعظم، ولذا علينا أن نميز بين تعريفات كل منها:

أ . الرزق: هو مصدر المعيشة للأحياء في الدارين، وهو لا يكون إلا من رزاق عظيم يمتلك كل أمر بالمطلق دون أن يكون له شريك ولا صاحبة ولا ولد.

---

<sup>312</sup>النور 59 . 61.

ب . المرزوق: هو الذي في حاجة للرزق الذي به تُشبع الحاجات المتطورة والمتنوعة، وهو المحظوظ بما رُزِقَ به.

ج . الرزق الحسن: هو الرزق الحلال الذي يؤتى من الرزاق الكريم جلَّ جلاله كيفما يشاءه الرزاق عزَّ وجلَّ، قال تعالى: {كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} 313.

وكذلك فالرزق الحسن هو الرزق الحلال الذي يأتي من عرق العاملين المصلحين في الأرض إصلاحاً وفلاحاً.

د . الرزاق هو من يمتلك الرزق أمراً (كن) ووجوداً مادياً فيكون له الأثر على الحياة وفق الحاجة ومشبعاتها، وهو الذي يرزق ولا ينتظر مقابل لما يرزق به الذين هم في حاجة لأن يُرزقوا من رزقه.

وفي لسان العرب المحيط الرزاق: هو "خالق الأرزاق وهو من أعطى الخلائق أرزاقها وأوصلها إليهم؛ والأرزاق نوعان:

. ظاهرة للابدان كالأقوات.

. باطنة للقلوب والنفوس كالمعارف والعلوم. والرزق ما يُنفع به

وهو العطاء" 314.

والبيهقي يقول: "الرزاق هو القائم على كل شيء بما يقيمها من قوتها، وما مكنها من الانتفاع من مُباح وغير مُباح" 315.

---

<sup>313</sup>آل عمران 37.

<sup>314</sup>لسان العرب المحيط، ج الأول، ص 1160.

<sup>315</sup>محمد حسين، شرح أسماء الله الحسنى. الإسكندرية 1996، ص 38.

ويقول الأمام الغزالي: "الرِّزَّاق هو الذي خلق الأرزَّاق والمرزوقين، وأوصلها إليهم وخلق لهم أسباب التمتع بها"316.

قال الحلبي: "الرِّزَّاق هو المفيض على عباده بما يجعل لأبدانهم قواما"317.

وقال الخطابي: "الرِّزَّاق هو المتكفل بالرزق، والقائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها"318.

ولذا؛ فالرِّزَّاق: هو الذي له صفتي خلق الرزق، وإيصاله لمن هم في حاجة، وهو الذي برزقه يضمن الحياة لمن يُراد له أن يُرزق ويحيى، وهو المصدر الذي به تتعدد المصادر.

إذا الرِّزَّاق هو مصدر الرزق، والرزق يتعدد بمصادره في السماوات والأرض، والرِّزَّاق سابق على السماوات والأرض وهما من المصادر الرئيسة للأرزَّاق حيث لولاها ما حُلِقنا والكائنات وما رُزِقنا على ظهرها. ولذا فالرِّزَّاق هو المصدر الذي خلق للرزق مصادر، فخلق السماوات وخلق الأرض وخلق فيها رزقا ثم خلق منها الإنسان تاليا على الرزق ليكون كغيره من المخلوقات على الرزق يعيش ويحيا ممَّا آتاه الرِّزَّاق من نصيب ليشبع حاجاته المتنوعة والمتعددة والمتطورة، ثم يجازى في الحياة الآخرة بالثواب أو العقاب ليكون بما فعل من حسنات أو سيئات من أصحاب الجنة أو أصحاب النار.

---

<sup>316</sup>الإمام الغزالي، القول الأسنى. ص 79.

<sup>317</sup>مجدي صور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة مكتبة العلم، 1999، ص 265.

<sup>318</sup>حامد أحمد الطاهر، الجامع لأسماء الله الحسنى ابن القيم الجوزية. القاهرة، دار الفجر للتراث، 2002، ص 128.

والرِّزَّاقُ: مصدر يرزق رزقا، ومع أنّ (رَزِقَ) مصدر لمن يرزق رزقا، إلا أنّها لا تأتي إلا من مصدر، ومصدرها الرِّزَّاقُ جلَّ جلاله، فلو لم يكن رَزَّاقا ما كان للرزق محل من الوجود والإعراب. ولذا فالرزق لا يستمد إلا من رَزَّاقٍ أعظم ولكي يكون رَزَّاقا أعظم لا بدّ أن يكون خلافاً أعظم، وهذه الصفات الحسان لا تكون إلا لله تعالى، ولذا تتعدد مصادر الأرزاق والرِّزَّاق واحد.

وقد يتساءل البعض عن الكيفية التي بها تتعدد مصادر الرزق والرِّزَّاق واحد.

نقول:

لو لم يكن هناك رَزَّاقا ما كان للرزق من مصدر. وفي هذا الأمر بالتمام لو لم يكن هناك خلافاً ما خلقنا، ولو لم يكن هناك مصور ما صُورنا وهكذا لو لم يكن هناك رحمن ما رُحِمنا بالأرزاق منه جلَّ جلاله، ولهذا فإن الرِّزَّاق هو مصدر الأرزاق.

وعليه: فمن يكون على البيّنة الحسنة يرزقه الله تعالى رزقا حسنا من رزقه الواسع المطلق كما رزق سيدنا شعيب صلّى الله عليه وسلّم برزق حسن، مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} 319.

<sup>319</sup>هود 87، 88.

ولأنَّه الرزاق المطلق فرزقه لا يُحصى ونعمه لا تُحصى مصداقا لقوله تعالى: {يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لِّمَ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ وَالْحَيْلَ وَالْبَعَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ {320}.

ومع أنَّ نعم الله ورزقه لا يُحصى إلا أنه بإمكاننا أن نرتب مصادر الأرزاق أولويًا وفقا للآتي:

أولا . المصدر الخالق: وهو الرزاق الأول والآخر: فالأول من حيث لم يكن سابقا عليه أول، مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي

<sup>320</sup>النحل 2. 18.

خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ  
ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {321، وقوله تعالى:  
{إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} {322.

ولأنه هو الرزاق الأول والآخِر فلا خوف من عدم على حياتنا  
وحياة أولادنا فالرزاق منه تأتي إن توجهنا إليه وعملنا عملا صالحا  
مصدقا لقوله تعالى: {ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم  
وإياهم} 323.

ولذا؛ فالرزاق الأول هو خالق كل مخلوق وسابق عليه وضمن  
معاشه إلى النهاية التي ينبغي أن يكون عليها، ولهذا فهو الآخر الذي  
كما سبق أن كان رزاقا أولا فهو الأول الذي ينهي الرزق عن لم  
يكن له رزق في الحياة.

وعليه: فإن القاعدة تقول: (من يرحل رزقه يرحل). ولا يبقى  
إلا هو جلّ جلاله عليما بما نحن عليه وبما سنكون عليه مصدقا لقوله  
تعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ  
عَلِيمٌ} {324.

والأول والآخِر تعني: (هو واحد أحد) هو الذي بدأ الخلق  
وهو الذي يُعيده، أي أنه هو الذي يملك أمر البداية والنهاية سبحانه  
جلّ جلاله.

---

<sup>321</sup>الروم، 40.

<sup>322</sup>الذاريات، 58.

<sup>323</sup>الأنعام، 151.

<sup>324</sup>الحديد، 3.

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَكَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ } 325. في هذه الآية نهي الله تعالى عن تحريم الرزق الحلال فيما أن الرزاق أوجد الأرزاق فلماذا تُحرم بما أنها تؤخذ وتؤكل حلالا طيبا؟ ولهذا، قوله (وَكَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) تعني: كلوا من لحومها واشربوا من ألبانها، وكلوا من ثمارها ورحيقها ولا تُحرموا شيئا منها لم يحرّمه الله عليكم.

ولأنّه هو الآخر فهو المنهي الأول لما يجب أن يُنهي، ولذا يمسك رزقه عن من ليس له نصيب فيه ممّا يجعل النهاية خيرا بيد الأول والآخر لا بيد من لم يكن بأول ولا بآخر، مصداقا لقوله تعالى: { أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرِزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ } 326. بدون شك أنّه الأول والآخر (الأول هو الثابت الأول فلم يتغير، فهو الذي في البداية أعطى وهو الذي في النهاية أمسك).

وقد يتساءل البعض:

لماذا هو في الأول أعطى، ولماذا هو في الآخر أمسك؟

نقول:

بطبيعة الحال لأنّه هو الذي يحيي ويميت، فإعطاؤه الرزق في البداية لأجل الحياة وإمساكه للرزق في النهاية لأجل الموت، ولذا فنحن كغيرنا من الكائنات نحيا ونموت ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام جلّ جلاله.

---

<sup>325</sup>المائدة، 87، 88.

<sup>326</sup>الملك، 21.

ثانيا . المصدر المخلوق: هو مصدر الرزق الذي تتعدد منه مصادر الأرزاق، كالسموات والأرض المخلوقات للمخلوق رزقا، مصداقا لقوله تعالى: {بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} 327 وقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ هَوَاً لَاتَّخَذْنَا مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} 328، وقوله تعالى: {هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض} 329 وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ} 330. وقوله تعالى: {أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} 331.

يتضح من هذه الآيات الكريمة أن السماوات والأرض هي المصادر الرئيسة التي أبدعها الله عز وجل للرزق فهي التي ينزل الماء وعليها تنمو الحياة، ومنها تُستمد الأرزاق وتؤخذ؛ فالأرض مصدر خلقنا ومصدر رزقنا، مصداقا لقوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ} 332؛ فالأرض عظيمة كريمة بعظم الخالق الأعظم فهي مصدر خلقنا ومصدر رزقنا منها خلقنا ومنها نرتزق فنعيش.

ومع أنّ السماوات والأرض هما مصدرا الرزق، إلا أنّ ما بينهما مصادر رزق كثيرة، فالرياح والسحاب والهواء التي بينهما هي

<sup>327</sup>البقرة، 117.

<sup>328</sup>الأنبياء، 16. 18.

<sup>329</sup>فاطر، 3.

<sup>330</sup>فاطر 3.

<sup>331</sup>النمل، 64.

<sup>332</sup>الروم، 20.

أسباب مسخرة لمصادر الرزق، وكذلك الماء رزق ومصدر خلق قال تعالى: {وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} 333.

ولذلك فالرياح والسحب مصادر رزق مصداقا لقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} 334 إذا لو لم يرزق الله عباده بالرياح ما تلاقحت الأشجار وأثمرت، ولولا الرياح ما حملت المطر وأنزلت رزقا لكلِّ كائنٍ حيٍّ؛ فبالرياح أثيرت السحب وتناقلت من مكانٍ لآخر لتحيي الأرض بعد موتها.

وإلى جانب المصادر الرئيسة للرزق المباشر للمخلوقات هناك مصادر أخرى ذات أهمية عالية لإبقاء الرزق وبقاء الحياة، إنها الشمس والقمر والنجوم والكواكب سبحانه لم يخلق شيئا عبثا، بل كلَّ شيء خلقه وقدره بحسبان موزون قال عزَّ وجلَّ: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ} 335. وقال جلَّ جلاله: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} 336، ولذلك؛ فكما أنّ الأرض والسماء مصدران رزق كبير كذلك فإن ما بينهما من الشمس والقمر والكواكب والنجوم والليل والنهار هي مصادر أرزاق كثيرة، فالحمد لله الذي خلق لنا عبر الحركة والزمان مصادر أرزاق دون أن تكون من أيدينا؛ فنحن لم نخلق

---

<sup>333</sup>البقرة، 164.

<sup>334</sup>الحجر، 22.

<sup>335</sup>الأنبياء، 16.

<sup>336</sup>يونس، 5.

السماوات العلاء ولم نخلق الأرض ولن نبلع الجبال طولاً، ولم نخلق الشمس ولا القمر ولا الكواكب والنجوم، ولم نخلق الليل ولا النهار ولم نخلق الزمان ولا الحركة إنَّه الله الرزاق جلَّ جلاله.

ومع أنَّ الإنسان حُلِق من تراب الأرض كغيره من المخلوقات الترابية إلا أنه قد حُصَّ بأحسن تقويم وحُصَّ برزق حلال، فالطيور التي جعل لها الخالق رزقا جعلها بذاتها رزقا للإنسان في الحياتين ليأكل لحمًا ممَّا تلذَّه الأنفس وتشتهيه. وهكذا جعل له رزقا من صيد البر والبحر وجعل له لحما حلال ممَّا حوله من ذوات اللحوم، وفوق ذلك من لبنها وريشها ووبرها وصوفها وشعرها وحريرها وجلودها يُرزق وله منها منافع.

وعليه: أتساءل: إله كريم يخلقك، ويخلق لك رزقا، ويغفر لك ذنبا وخطيئة، ويُشرك بالجنة هو أولى بالعبادة أم إله يُخلق ولا يخلق شيئا ولا يحيي ولا يميت ولا يرزق؟!!

ثالثا - المصدر الذي يُخلق: هو الذي يُستمد ويشق ممَّا حلق الله من أرزاق، فبالعلم تُكشف الأشياء ويتم التعرف عليها، ومنها يصنع الرزاق بالإضافة (الخليفة) رزقا يُحسِّن حياته به ويُشبع حاجاته المتنوعة والمتطور.

ولذلك، نَقَّب في الأرض حتى اكتشف الحديد رزقا والنحاس والذهب اصفرا واسودا، وعبَّد الطرق وشقها وهو يطوي المسافات مثلما يطوي الحديد؛ ثم رفع رأسه من على الأرض التي منها حلق وعليها يرتزق إلى السماء، ففكر في طي المسافة بينهما حتى اكتشف قانون الجاذبية الذي به تمكَّن من غزو الفضاء، ثم طوَّر أحواله وحياته بما تصنع يدها ولا زال يُطوِّر بيديه وب عقله العلوم المتنوعة.

## قال الشاعر:

عليك بتقوى الله إن كنت غافلا . سيأتيك بالأرزاق من حيث لا تدري  
فكيف تخاف الفقر والله رازق . فقد رزق الطير والحوت في البحر  
ومن ظن أن الرزق يأتي بقوة . فما أكل العصفور رشقا مع النسر  
ترحل عن الدنيا فإنك لا تدري . . إذا جنك الليل هل تعيش إلى الفجر؟  
فكم من صحيح مات من غير علة . . وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر  
وكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا . . وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري  
يا جامع المال ما أعددت للحفر . . هل يغفل الزاد من أضحي على سفر  
أما ابن القيم فقال في نونيته:

وكذلك الرزاق من أسمائه . . . والرزق من أفعاله نوعان  
رزق على يد عبده ورسوله . . . نوعان أيضا دان معروفان  
رزق القلوب العلم والإيمان . . . والرزق المعد لهذه الأبدان  
هذا هو الرزق الحلال وربنا . . . رزاقه والفضل للمنان  
والثاني سوق القوت للأعضاء في . . . تلك المجاري سوقه بوزان  
هذا يكون من الحلال كما يكون . . . من الحرام كلاهما رزقان  
والله رازقه بهذا فاعتبر . . . ليس بالإطلاق دون بيان<sup>337</sup>.

وعليه: فإن خير الرازقين يرزق من يشاء كيف يشاء متى ما  
يشاء وبدون حدود، أما الرزاق بالإضافة فهو الذي يرزق من يشاء  
بإذن من شاء. ولذا فالخليفة الرزاق هو الذي لا يستطيع أن يرزق  
بدون حدود، وذلك لأن ما يملكه له بداية ونهاية أما ما يملكه الرزاق

---

<sup>337</sup>النونية، 147.

الأعظم يرتبط بذاته العلية التي ليس لها بداية ولا نهاية، فهو الأول والآخر سبحانه جلّ جلاله.

ولذا؛ فإن الخليفة الرزاق كلما رزق أحداً مما يملك من رزقٍ نقص ما عنده إن لم يرحمه الرحمن الرحيم الرزاق الكريم بالمزيد، من حيث يحتسب أو من حيث لا يحتسب، فالله يرزق من يشاء من غير حساب هذه قدرة إلهية وخاصة ربانية لأجل أن يتم ارتزاق الآخرين منه دون منّة، فمن يرزقه الله برزق حلال عليه أن يتذكر فضل الله عليه ليجعل فيه نصيباً للآخرين الذين هم في حاجة والأقربون أولى بأن يجود عليهم مما رزقه الله من فضله، ومن يغلق أبواب الرزق على الآخرين يغلق الله عنه أبواب الرزق والرحمة ويجعله من الخاسرين، ولهذا فالقاعدة هي:

(ارزق تُرزق، وارحم تُرحم).

وبناء على هذه القاعدة تضرّع عيسى صلى الله عليه وسلم إلى ربه فقال في الكتاب العزيز: { قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ }<sup>338</sup> فاستجاب له خير الرازقين بالمائدة الآية التي لم تكن لمن سبق ولن تكون لمن سيأتي من بعد عيسى وقومه الذين رزقهم الله في يوم عيدهم بما سعادة وفرحة.

وفي غير محل للمقارنة فالفرق كبير، بين من يعطي ولا يمن ولا يندم ولا تُسوّل له نفسه، وبين الذي يعطي ويمنن أو يعطي ووسوسة الشيطان في نفسه لم تفارقه في بعض الأحيان، وحتى إن أعطى وفارقه النفس الموسوسة فهو لم يكن في محل مقارنة.

---

<sup>338</sup>المائدة، 114.

## 10 - ناهٍ:

الناهي هو الذي يعلم ما يترتب على ارتكاب الأفعال التي تؤدي إلى المهالك قبل أن تُفعل فينهى عنها حيطة.

الناهي هو المبين لما هو حرام ولما هو حلال وما يقع بينهما من معطيات تؤدي إليهما فينهى عن المؤدي السالب ويحث ويحرض على المؤدي الموجب إنه الله جلّ جلاله.

الناهي هو الله الذي جعل الحدود التي يمكن بلوغها في مرضاته والحدود التي يمكن بلوغها في غير مرضاته فمن أطاعه انتهى ومن عصاه تعدى.

الناهي هو علام الغيوب يعلم بكلّ أمر ويبين كلّ أمر وما يترتب عليه من موجبات أو سلبيات ويترك حرية القرار والاختيار لمن خلقهم في أحسن تقويم ليقرروا بإرادة كي يتحمّلوا ما يترتب على ما يرتكبون ليكونوا من المستخلفين في الأرض والوارثين أم لا يكونون.

وفي اللغة: "النّهْيُ خلاف الأمر نَهَاهُ يَنْهَاهُ نَهْيًا فَانْتَهَى وَتَنَاهَى كَفَّ؛ وَالتَّهْيِئَةُ كَالغَايَةِ حَيْثُ يَنْتَهِي إِلَيْهِ الشَّيْءُ وَهُوَ النِّهَاءُ"<sup>339</sup>.

ولكي أبين الناهي علينا ألا نغفل عن المنهى به، والمنهى عنه، وكذلك المنهى، ولذا فلكلّ من هذه المصطلحات مفهوم به يتضح من حيث:

أ - المنهى به: هو الحقّ الذي به يرشد الناس إلى ما يجب أن يتبع وإلى ما يجب أن ينهى عنه.

---

<sup>339</sup>لسان العرب، ج 15، ص 343.

ب . المنهى عنه: هو ذلك الفعل أو مجموع الأفعال التي تخالف الفضائل الخيرة والقيم الحميدة التي استمدت من أديان وأعراف الشعوب والأمم والأقوام.

ج . المنهى: هو ذلك المستهدف بالنهي عمّا يجب النهي عنه ولا يكون إلا بالمنهي به.

د . الناهي: هو ذلك العالم بالأمر قبل وقوعه فينذر به لكي ينتهي الناس عن مجموع القول والفعل والعمل والسلوك الذي يؤدي إلى المهالك والمفاسد.

ولأنّ الناهي فهو الناهي لذوي العقول الذين يتذكرون ويتدبرون ويتقون ربهم فيما هم عليه قائمون وله فاعلون فهم الذين يحمدون الله على ما آتاهم من نعم ورحمة والذين يتدبرون ويتفكرون ويتذكرون وهؤلاء هم أولو النهي الذين قال عنهم تعالى في كتابه الحكيم: {كَلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى} 340، وقال تعالى: {أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى} 341.

والناهي على المستوى البشري هو الذي لا يتبع ما يُنهي عنه فإن نهي امتنع بالتمام عمّا نهي عنه فهو لا ينهي عن شيء هو فاعله كما جاء على لسان سيدنا شعيب صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ

---

340 طه 54.

341 طه 128.

أُخَالِفُكُمْ إِلَى مَا أَنهَأَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ {342}.

فقول شعيب كما نزل في الكتاب الحكيم: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفُكُمْ إِلَى مَا أَنهَأَكُمْ عَنْهُ) دليل على أنّ المنهي عنه ليس خاصاً بأحد، بل هو منهي عنه على الكلّ حيث لا استثناء لأحدٍ لأنّ يطفف الكيل والميزان ولا أن يبخس الناس أشياءهم، ويتم الاتفاق مع تفسير الرازي الذي فسّر قوله تعالى (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفُكُمْ إِلَى مَا أَنهَأَكُمْ عَنْهُ) بعني: "لا أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم فهذا بيان اللغة، وتحقيق الكلام فيه أن القوم اعترفوا بأنه حلیم رشيد، وذلك يدل على كمال العقل، وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الأصبوب الأصح، فكأنه صلّى الله عليه وسلّم قال لهم لما اعترفتم بكمال عقلي فاعلموا أن الذي اختاره عقلي لنفسي لا بدّ وأن يكون أصوب الطرق وأصلحها للدعوة إلى توحيد الله تعالى فترك البخس والنقصان يرجع حاصلهما إلى جزأين، التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى وأنا مواظب عليهما غير تارك لهما في شيء من الأحوال البتة فلما اعترفتم لي بالحلم والرشد وترون أنني لا أترك هذه الطريقة، فاعلموا أن هذه الطريقة خير الطرق، وأشرف الأديان والشرائع" 343.

ولذا؛ فعلى الخليفة في الأرض أن يقف عند كلّ حدٍ حدّه له الناهي جلّ جلاله وأن لا يتجاوزه فإن تجاوزه خرج من دائرة المستخلفين في الأرض وإن وقف عند حدّه الذي حدّد له وانتهى عنده كان من المستخلفين فيها، وعليه: أن يتبع ما نهي عنه الرسول

---

<sup>342</sup> هود 87، 88.

<sup>343</sup> تفسير الرازي، ج 8، ص 457.

شعيب والرّسول الكريم محمّد صلّى الله عليهما وسلّم فيما تم النهي عنه، وذلك لأنّ الناهي واحد هو الله جلّ جلاله والذين جاءوا مبشّرين ومنذرين هم رُسُلُه الكرام صلّى الله عليه وسلّم فنهيههم من نهي الناهي جلّ جلاله، ولذا لا اختلاف مع إي ناهٍ منهم فهم المكلفين المصطفين الأخيار، وعليه يتم قبول التناهي من الذين هم لربهم طائعون، فالناهي هو الذي يعمل من أجل إحقاق الحقّ دائماً، ويحرّض الآخرين على فعله، وإذا ما نهى عن شيء لا يكون هو فاعله (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ).

الناهي جلّ جلاله ينهى كي لا تكون الفتن والشقاق والعداوة والبغضاء والافتتال بين العباد، ولذا جاء نهي الأنبياء والرّسل كما هو حال شعيب ومحمّد للذين هم غافلون عمّا يترتب على ما يعملون ويفعلون من نقص في الكيل والميزان، ونقض المواثيق ومن يفعل ذلك يلقى آثام وأولئك هم الذين لا إيمان لهم إلى أن ينتهوا ويتقوا الله ربّ العالمين ولا يشركوا به أحداً.

وكما نهى سيدنا شعيب عن المفساد جاء الرّسل الكرام بنواهِ كثيرة وتحليلاً أكثر لأقوامهم وشعوبهم وقراهم إلى أن بُعث محمّد للكافة مبشراً ومنذراً ومحرّضاً على أداء الأفعال الحسان، ومخذراً أمة الكفر ممّا يفعلون من فساد في الأرض، ولهذا قتالهم إحقاقاً للحقّ وإزهاقاً للباطل، قال تعالى: {وَإِنْ نَكُوثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهِمْ يَنْتَهُونَ أَلَّا يُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكُوثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} 344.

<sup>344</sup>التوبة 12، 13.

والناهي تعالى هو الذي قال في كتابه الحكيم: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ  
وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} 345، وقال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ  
فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ  
العِقَابِ} 346.

إذا طاعة الرسول صَلَّى الله عليه وسلّم وأمره طاعة لله تعالى،  
ونهي الرسول هو نهي من عند الله تعالى، فنهي الرسول من نهي الناهي  
الأعظم عزّ وجلّ.

ولذا؛ فالتناهي بين المؤمنين من أجل إحقاق الحقّ وإزهاق  
الباطل هو طاعة لأمر الناهي تعالى، فالذين آمنوا بالحقّ مع محمّد  
رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم هم متناهون ولهذا فهم لا يتماثلون مع  
اليهود الذين لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه مصداقا لقوله تعالى: {كَانُوا  
لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} 347.

فالناهي الحقّ هو من ينهى النَّاسَ عن الفحشاء والمنكر  
والبغي، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ  
وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 348.

ولأنّ الناهي الأعظم هو الله عزّ وجلّ جعل العبادات يومية  
وأسبوعية وسنوية وليلية ونهارية وفجرية ومغربية أي لم يقصرها على  
وقت من أوقات اليوم بل جعلها مبنوثة فيه لتعم اليوم بكامله فالصلاة  
خمسة مرات فرضاً وتتبعها نوافل من ورائها حكم هو يعلمها ونحن  
نعظّمها ولذا فممارسة العبادات طاعة لله تعالى تنهى عن الفحشاء

---

345 آل عمران 132.

346 الحشر 7.

347 المائدة 79.

348 النحل 90.

والمنكر بذكر الله ولذكر الله أكبر، قال تعالى: { ائْتِلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ  
مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ  
وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ } 349.

## 11 - مَوْفَّقٌ:

المَوْفَّق هو الذي تتطابق نواياه الحسنة مع أفعاله وأعماله  
الحسنة، وهو من يعمل طاعة في مرضاة الله جلَّ جلاله، فلا يتَّبِع  
منهيا عنه ولا يتأخر عن مأمور به، راضٍ عن نفسه ومرضيا عليه في  
تحقيق أهدافه وبلوغ غاياته في الدارين حتى يُكتب مع الوارثين في  
حياته وبعثه وخلوده في الجنة.

ولذا، كان إقرار شعيب بان توفيقه من الله مؤسسا على ما  
قدم عليه من إصلاح في الأرض، قال تعالى: { قَالُوا يَا شُعَيْبُ  
أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ  
إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي  
وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ  
إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ } 350.

ولأنَّ التوفيق فضيلة قولية وفعلية وعملية فهو المحقق للرضا  
الذي به تطمئن الأنفس والقلوب وتتضاعف الحسنات كما تضاعفت  
لسيدنا شعيب الذي أمر بما أمر به الله ونهى عما نهى عنه، فكان في  
مرضاة الله مَوْفَّقًا (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)، ولذلك تنقل الأعمال  
بالإصلاح والتوفيق، قال تعالى: { فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي

<sup>349</sup>العنكبوت 45.

<sup>350</sup>هود 87، 88.

عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ حَقَّقَتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ نَارٌ  
حَامِيَةٌ {351.

وبالتوفيق الكريم والسداد العظيم يدخل النور إلى القلوب  
فتطمئن بذكر الله الذي وفَّقها إلى ما تُحِبُّ وما تَرْضَى كما كان  
شعيب يُحِبُّ لِقَوْمِهِ وَيَرْضَى، وهكذا تتنعم الوجوه رحمة من الله عزَّ  
وجلَّ الذي قال: {وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ  
عَالِيَةٍ {352.

## 12 - متوكِّل على الله:

التوكِّل على الله اعتماد عليه باتِّباع ما قال وأمر وتجنُّب ما نهى  
عنه وحرَّم.

ولذا؛ فمن يتوكَّل على الله ويتبع هداه لا يضل ولا يشقى،  
قال تعالى: {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي  
ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى {353.

وعليه فمن يتوكَّل على الله لا يغلبه ولا يهزمه غالب ولا هازم  
سواء أكان عاقل أم غير عاقلٍ مصداقا لقوله تعالى: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ  
عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى  
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {354.

ولأنَّ المغالبة لا تتم إلا بالقوَّة والإرادة إذا لا غالب بالمطلق إلا  
الله القوي المتين الذي بيده الأمر والنهي وهو على كلِّ شيء قدير،

---

<sup>351</sup>القارعة 6 . 11.

<sup>352</sup>الغاشية 8 . 10.

<sup>353</sup>طه 123، 124.

<sup>354</sup>هود 56.

ولهذا توكلّ شعيب على الله وأقدم على الإصلاح وكلّ أعمال الخيرات الحسان وفقا لاستطاعته فكان نعم العبد غير المتردد في توكله على الله عزّ وجلّ، قال تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ {355. أي؛ كان شعيب معتمدا على الله في توفيقه وإصلاحه في الأرض حتى كتب أنه من الموقّنين الكرام الذين عملوا على الهداية في مرضاة الله تعالى.

### 13 - منيب:

المنيب هو المؤمن بالله الذي لا يرى عودة في أي أمر إلا إليه جلّ جلاله؛ فهو الأمر بالحقّ والعدل وهو الناهي عن المكروه والمنكر والبغي، وهو المحرّم لكلّ محرّم ممّا يجعل المنيب يسعى في مرضاة الله تعالى طاعة تامّة مع فائق الإخلاص.

وفي لسان العرب المنيب: "هو من أناب إليه إنباءً فهو مُنِيبٌ أَقْبَلَ وتاب ورجع إلى الطاعة وقيل ناب لزم الطاعة وأناب تاب ورجع وفي حديث الدعاء وإليك أنبتُ الإنباءُ الرجوعُ إلى الله بالتوبة وفي التنزيل العزيز (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ) أي راجعين إلى ما أمر به غير خارجين عن شيءٍ من أمره وقوله عزّ وجلّ (وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ) أي توبوا إليه وارجعوا"356.

<sup>355</sup>هود 87، 88.

<sup>356</sup>لسان العرب، ج 1، ص 774.

إذا المنيب هو التائب من الذنب والعائد طاعة لله مستغفرا  
عن كلّ خطيئة حتى يفوز برضا الله الذي هو منيب إليه بالطاعة  
التامة.

ولذلك، كان شعيب خير المنيبين لله تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ  
أَصْلَاثُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ  
إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي  
وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ  
إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ  
أُنِيبُ} 357.

ويُفسّر الرازي قوله تعالى: (وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) "فهو إشارة إلى معرفة  
المعاد، وهو أيضا يفيد الحصر لأن قوله: (وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) يدل على أنه لا  
مرجع للخلق إلا إلى الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه  
كان إذا ذكر شعيب صلى الله عليه وسلم قال: ذاك خطيب الأنبياء  
"الحسن مراجعته في كلامه بين قومه" 358.

وعليه: فإن إنابة شعيب لله وتوكله عليه هو الذي جعل منه  
رسول قوّة يُصلح ما أفسده المفسدون ويُرشدا بالبيّنة إلى الحقّ والرشاد.

#### 14 - عامل على مكانته:

المكانة رفعة وحُسن مقام، ولهذا، يعمل الصالحون والصدّيقون  
والمؤمنون والأنبياء والرُّسل الكرام على مكاناتهم لبلوغ المقامات العظام  
في مرضاة الله تعالى.

<sup>357</sup>هود 87، 88.

<sup>358</sup>تفسير الرازي، ج 8، ص 458.

ولذا، فالمكانة هي المنزلة الرفيعة التي تليق بمن حلَّ بها ونزل،  
ولأنها المكانة الرفيعة كان شعيب عامل عليها حتى بلغها نبيا رسولا،  
قال تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا  
ضَعِيفًا وَلَا رَهْطًا لَرَجْمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي  
أَعْزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ  
وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ} 359؛ فقول شعيب كما  
جاء في القرآن الكريم: (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ) هو  
تنبيه شعيب لقومه الذين بُعث لهم رسولا ليصلح أحوالهم ومفاسدهم  
الأخلاقية والاقتصادية والروحية وفقا لفضائل أمر بها من عند الله  
العادل في ملكه، ولهذا قال لهم (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ) التي  
يودكم الله أن تكونوا عليها مستخلفين في الحياة الدنيا وفي الآخرة من  
الوارثين.

ولأنَّ العمل على المكانة الرفيعة ليس بالأمر الهين لذا فالعمل  
عليها يتطلب بذل الجهد والإخلاص فيه في ضوء مكارم الأخلاق  
والفضائل التي يرضيها الله لعباده الصالحين؛ فشعيب صلى الله عليه  
وسلم مع أنه نبيا ورسولا كريما مصطفى من عند الله تعالى إلا انه في  
حاجة لأن يستمر عاملا من أجل المكانة الرفيعة في الحياة الآخرة كما  
كان على المنزلة العليا في الحياة الدنيا ليفوز بالمقامات العلى في الجنة.

## 15 - رقيب:

الرقيب هو من يشاهد مبصرا ويلاحظ رؤية وإدراكا عاليين  
لكلِّ ما يجب مشاهدته وملاحظته عن معرفة تامة، ولكن على  
المستوى المطلق فالرقيب هو الله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم وهو  
السميع البصير الذي بيده الملك وهو على كلِّ شيء قدير، ولذا

<sup>359</sup>هود 91. 93.

فالرقيب المطلق هو الذي يُرَاقِب ولا يُرَاقَب سبحانه لا إله إلا هو  
يُدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار.

الرقيب "هو العليم الحفيظ فمن راعى الشيء حتى لم يغفل عنه  
ولاحظه ملاحظة دائمة لازمة لزوما لو عرفه الممنوع عنه لما أقدم عليه  
سمي رقبيا"360.

واسم الله الرقيب "يدل على ذات الله وصفة الرؤية والمتابعة  
بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى صفة  
الإبصار وحدها بدلالة التضمن، ويدل باللزوم على الحياة والقيومية،  
والعلم والهيمنة، والإحاطة والقوة والعظمة والعزة، وكلّ ما يلزم لقيام  
معنى المراقبة المطلقة ودوامها وما يترتب عليها"361.

فالله رقيب على العباد والكلّ عباد الله طوعا أو قهرا فهو  
رقيب على الشمس التي تشرق وتغيب بمقدار ونظام محكم لا يمكن  
أن يتم بهذه الصورة المحكّمة دون رقيب فيأتي النهار ثمّ الليل بالطريقة  
والكيفية التي أرادها الرقيب الأعلى، والسّماء تمطر بأمره وبالقدر الذي  
يريد وفي الزمان والمكان الذي يريده ولا يستطيع كائن من كان أن  
يخالف إرادته لأنه رقيب على خلقه يسيّره كيفما شاء وذلك لأنه  
الذي خلق الإنسان وأرسل له الرُّسل بالبينّة في كتاب لا يأتيه الباطل  
من بين يديه ولا من خلفه ثمّ يعرض من أراد لنفسه التخلف عن  
ركب الخلافة ويغلق قلبه وعقله عن النور والهداية ويشرك بالذي خلق  
الأرض والسّماء وجعل الجبال لتثبيت الأرض وزين السّماء بالنجوم،  
وأطاعته الأرض والسّماء ومن فيهما من كائنات وقدر أقوات الخلق

---

<sup>360</sup>المقصد الأسنى، ج 1، ص 117.

<sup>361</sup>أسماء الله الحسنى، ج 14، ص 24.

لأنه الخالق المدبر الرقيب الحافظ، قال تعالى: {حَم تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ قُلْ أَنبئكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دُخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين} 362. وهو يحفظ أعمال الخلائق ويحصيها ولا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء وبهذا العلم يحفظهم من شر أعمالهم التي يقدمون عليها، قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} 363.

والرَّقِيبُ هو من لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يتعب ولا يغفل يعلم بالشيء والشيء المترتب عليه وهو القادر الحَفِيطُ، ولهذا فإن الرقابة رصد وتتبع دون غفلة.

ولأنَّ الله رقيب فعلى الإنسان الخليفة المتحقق بالاسم الرقيب أن يراقب الله في كلِّ أعماله وأقواله، لأن الكلام أمَّا له أو عليه، له بالحسنة والثواب، أو عليه بالسيئة والعقاب، ولهذا إن لم يرقب الإنسان

<sup>362</sup> فصلت 11.1.

<sup>363</sup> الأنعام، 59.

نفسه في لسانه فعليه بالصمت، لأنّ من آمن بالله حقّ إيمانه خاف وعيده ورجا ثوابه واجتهد في فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه، وأهم ما عليه من ذلك ضبط جوارحه التي هي رعاياه وهو المسؤول عنها كما قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْسِرْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلِّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} 364، وقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} 365.

الرقيب وحده يعلم ما توسوس به النفس ولذا، كلّ ما يمكن أن يقال يعلمه وكلّ ما يقال لديه رقيب لا يغيب ولا يغفل صامد لا يتحرك عن مهمة الرقابة المكلف بها.

ولأنّ الرقيب هو من يراقب المعني بأمرهم، لذا فهو غير الذي يرتقب، فالذي يرتقب لا يكون إلا على حالة الانتظار وهو لا يعلم يقينا بالمرتب على أمره إلا بعد المواجهة الحقّ بما هو منتظر من أجله، أمّا الرقيب فهو الذي يعلم بالأمر المترتب على أمر المراقبة كما هو حال شعيب مصداقا لقوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ} 366.

<sup>364</sup>الإسراء 36 . 38.

<sup>365</sup>ق، 16 . 18.

<sup>366</sup>هود 93.

في قوله تعالى: (وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) المعنى وكأنه على لسان شعيب يقول الرازي: فانتظروا العاقبة إني معكم رقيب أي منتظر"367.

"والرَّقِيبُ فِي قَوْلِهِ: (وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) جَاءَ هُنَا فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ، أَي؛ أَيِّ مَعَكُمْ رَاقِبٌ، أَي كَلَّ يَرْتَقِبُ مَا يَجَازِيهِ اللَّهُ بِهِ إِنْ كَانَ كَاذِبًا أَوْ مَكْذَبًا"368، وَضَمِيرُ الْقَائِلِ هُنَا يَعُودُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ شُعَيْبٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الرقابة صفة مطلقة للرقيب المطلق وصفة نسبية للرقيب بالإضافة، ولذا فالرقيب المطلق يراقب دون أن ينتظر إذ من احد، أما الرقيب بالإضافة فلا رقابة له إلا فيما أمر من الرقيب المطلق جلَّ جلاله على أن تكون رقبته بحق وبموضوعية لأجل متابعة سلوك من حُلق في أحسن تقويم الذي يُراد له أن يكون خليفة على الفضائل الحسنة والقيم الحميدة في مرضاة الله كما كان الرسول شعيب رقيب على قومه بما جاءهم به من بَيِّنَةٍ، (وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ).

ولأنَّ المراقبة حقٌّ للرسول المرسل لقومه أو شعبه أو قريته أو أمته أو الكافة، وهي صفة مطلقة لله تعالى، لذا لا بدَّ أن يسأل الإنسان عمَّا عمل ويكون كتابه هو الشهيد عليه يوم يعثون للحساب لتكون النتيجة الجزاء ثواباً أم عقاباً، ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ يَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ

---

<sup>367</sup> تفسير الرازي، ج 8، ص 462.

<sup>368</sup> الحرير والتنوير، ج 7، ص 190.

فَتَبَيَّلًا وَمَنْ كَانَ فِي هَدْيِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا {369.

ولأنَّ القاعدة هي: (خلق الإنسان في أحسن تقويم) إذا لا بدَّ أن يسأل الإنسان عمَّا قدم لنفسه، ولذلك فالرقيب المطلق هو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم فيراقب كلَّ كبيرة وصغيرة ولهذا فهو لا يغفل؛ فيعلم ما في السماوات وما في الأرض، مصداقا لقوله تعالى: {ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} 370، أي ألم تعلموا علما يقينيا بمرتبة المشاهدة انه تعالى يعلم ما في السموات وما في الأرض، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 371 (روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية كانوا يوما يتحدثون فقال أحدهم أترى الله يعلم ما نقول فقال الآخر يعلم بعضا وقال الثالث إن كان يعلم بعضه فهو يعلم كله وصدق لأن من علم بعض الأشياء بغير سبب فقط علمها كلها لان كونه عالما بغير سبب ثابت له مع كلِّ معلوم فنزلت الآية (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا).

<sup>369</sup>الإسراء 71،72.

<sup>370</sup>المائدة 97 .99.

<sup>371</sup>المجادلة 7.

ولأنّ الرقيب هو الأوّل والآخر: فلا أول قبله ولا آخر بعده  
إنّ الواحد الأحد لا شريك له؛ فهو المحيط بكلّ أمر وهو العليم  
الحكيم يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار وهو الملك المتعال، ولأنّه  
خالق الزمان والمكان والحركة والسكون فهو يعلم بالزمان في أي مكان  
سواء أكان المعلوم به أو بأمره في حالة الحركة أو حالة السكون أي  
سواء أكان ظاهر بالقول أم كاتماً له أم متقلب في الأمر أم دارب  
عليه، ولذا فهو الرقيب.

ولأنّ الله هو الرقيب المطلق فقد استمد شعيب صفته منه  
فكان على قومه هو الرقيب وسيكون هو الشهيد عليهم مصداقاً لقوله  
تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ  
شَهِيدًا} 372 أي سيكون كلّ رسول ونبي شهيداً على قومه أو أمته  
وسيكون محمّد الرسول الخاتم عليهم جميعاً شهيداً.

ولأنّه الرقيب فهو يعلم علم الظاهر وعلم الباطن الذي يشاهد  
للعيان وكذلك ما توسوس به الأنفس في الصدور، قال تعالى: {وَلَقَدْ  
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ  
الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ  
قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} 373

وفي تفسير قوله تعالى: (رقيب عتيد) قال مجاهد: أي رصيد  
وقوله الرقيب هو من أسماء الله سبحانه وتعالى ومعناه الحافظ وقوله

---

<sup>372</sup>النساء 41.

<sup>373</sup>ق 16 . 18.

فارتقب أي انتظر وقوله في الرقاب هم المكاتبون يعطون من الصدقات ما يفكُّون به رقابهم<sup>374</sup>.

والرقيب المطلق هو القريب الذي لا تفصل بينه وبين من يراقب مسافة ولا زمن فهو مع كلِّ حركة تحدث ومع كلِّ سكون واستقرار، ومع كلِّ قول يسمع أو يناجى به أو يُسر ويُكتم، وقد وقعت الإشارة في القرآن العظيم إلى هذا المعنى في مواضع كثيرة من آيات الذكر الحكيم: قال تعالى: { وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ }<sup>375</sup>، وقال تعالى: { أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ }<sup>376</sup>.

وسخر الله من الرقباء على الإنسان ملائكة كرام عن يمينه وشماله يكتبون ما يفعله بدقة ونزاهة وقد سماهم الله: كراما كاتبين، قال تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا تَوْسُوسٌ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلَّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ }<sup>377</sup>.

<sup>374</sup>مقدمة الفتح، ج 1، ص 121

<sup>375</sup>يونس، 61.

<sup>376</sup>الزخرف، 80.

<sup>377</sup>ق، 16، 23.

ولأنه الرقيب المطلق جلّ جلاله إذا لابد أن يكون له كتابة يكتبون كل شيء يلفظ أو يعمل أو يفعل، ولكن الفرق أن كتابة ما يلفظ وما يفعل أو يُعمل على وجوه:

الوجه الأول: ما يلفظ كفرا وشركا يكون له سجلا عقابا مؤجل إلا من رحم الله، قال تعالى: {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} {378، وقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} {379.

الوجه الثاني: ما يلفظ قولاً لا تصاحبه نية التنفيذ السالبة فهذا الأمر فاقد للنية التي عليها تتم المحاسبة بالجزاء أو الثناء وذلك فالأعمال بالنيات قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} {380.

الوجه الثالث: قول سالب يُلفظ به مع نية وعزم على التنفيذ وحال الله بينه وبين ما يجب أن يُعمل أو يُفعل فهذا القول أو اللفظ وكأنه عُمل أو فُعل فالرقيب سبحانه ليس بغافل، قال تعالى: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ اللَّهُ وَبِئْسَ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِتْرَابًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقَّ فَيْقُولٍ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ

---

<sup>378</sup>الدخان 40 . 42.

<sup>379</sup>هود، 118، 119.

<sup>380</sup>يونس، 44.

قَبْلَهُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا  
وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {381.

الوجه الرابع: لفظ مع نية سالبة للتنفيذ مع بلوغ العمل أو  
الفعل قال تعالى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا  
حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ  
أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا {382 فيكون العقاب مضاعف بثلاثة:

1 . بسلبية اللفظ.

2 . بسلبية النية المنهي عنها.

3 . بسلبية الفعل أو العمل المنهي عنه أو المحرم.

الوجه الخامس: لفظ ظاهره موجب ونيته سالبة تندرج تحت  
أبواب النفاق قال تعالى: {وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا  
مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ  
وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَفْطَارِهَا ثُمَّ  
سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ  
قَبْلُ لَا يُؤْلُونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا {383.

الوجه السادس: لفظ اجتنابي مع فعل ابتعادي يفوز صاحبه  
بالمغفرة والتواب بالتكفير عن سيئاته قال تعالى: {إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا  
نُهِونَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا  
فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ

<sup>381</sup>الأحقاف، 117 . 119.

<sup>382</sup>النساء 18.

<sup>383</sup>الأحزاب، 13 15.

نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا {384}.

الوجه السابع: لفظ طيب يلفظ به مع نية طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ {385}، وقال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ {386}.

الوجه الثامن: اللفظ الإفك الذي يلفظ ولا يفعل إنه مجرد قول وهراء أي أن أصحابه يلفظون بما لا يفعلون قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ هَلْ أَنْبِئُكُمْ عَلَى مَنْ نَزَّلُ الشَّيَاطِينَ نَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْفُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كَاذِبُونَ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ {387}.

الوجه التاسع: لفظ حق مع نية حق مع فعل حق ويهدي إلى الحق يستوجب الإتيان قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا

<sup>384</sup>النساء 31، 32.

<sup>385</sup>إبراهيم 24، 27.

<sup>386</sup>ياسين، 34، 36.

<sup>387</sup>الشعراء، 217، 226.

وَحْيِي يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى  
ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأُوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أُوْحَى مَا  
كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى {388}.

وفي هذا الأمر قال الشاعر:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل علي

رقيب

قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ  
نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا  
اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } 389 إن  
للإنسان حقوق وعليه واجبات وله مسؤوليات فعليه أن يمارس حقوقه  
ويحترم ويقدر الآخرين وحقوقهم، وأن يؤدي واجباته ويساعد الآخرين  
على ذلك، وأن يحمل مسؤولياته ويتحمل ما يترتب عليه من أعباء  
ويتقي الرقيب ربه ولا يظلم أحداً، وليعلم أن الله رقيب فلا يغفل ولا  
يقرب ما نهى عنه ويجتنبه بأعمال الخيرات، (إنَّ الله كان عليكم رقيباً)  
والرقيب هو المراقب الذي يحفظ عليك جميع أفعالك أي حافظاً  
مطلعاً على جميع ما يصدر عنكم من الأفعال والأقوال وعلى ما في  
الضمائر من النيات وما تكنه الأنفس.

فقال الله تعالى: { لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ  
بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ  
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا } 390.

<sup>388</sup>النجم 3 . 11.

<sup>389</sup>النساء 1.

<sup>390</sup>الأحزاب 52.

وقوله: (وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا) جاءت مطلقة دون استثناء لشيء من الأشياء وبذا لا يوجد شيئا خارج رقابته.

والخليفة المتحقق بالاسم الرقيب يعلم بأن الله هو الرقيب ولذا فهو لا يحتاج إلى رقابة من بشر عليه، أما الذي لم يتحقق بهذا الاسم ولا يريد أن يراقب الله يُدكره الله ويقول له ولمن هو على شاكلته وبغض النظر عن السبب الذي نزلت الآية بسببه فنحن الآن في مقام رؤية منهجية حديثة للقرآن الكريم ومحاولة استبيان الوسيلة التي تتحقق بها الخلافة لله عز وجل من خلال التخلق بأسمائه الحسنی علما وعملا فنلقي نظرة على الآية في السياق التي نزلت بسببه وربط معناها ومدلولها بالرؤية التي تعالج فكرة الخلافة والتحلي بصفة الرقيب، ومن هنا ينطلق الإنسان الخليفة في تعميم الأرض مراقبا لله، ومتيقنا بأن الله تعالى رقيب عليه ولهذا يقول الله للإنسان الذي يعمل على الإفساد معتقدا بأنه بعيد عن الرقيب: {أَيَّحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ} 391.

(أَيَّحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ) أي حين كان ينفق ما ينفق رثاء الناس أو حرصا على معاداته للنبي صلى الله عليه وسلم يعني أن الله تعالى كان يراه وكان سبحانه عليه رقبيا فهو عز وجل يسأله عنه ويجازيه عليه، (أَيَّحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ). أي؛ أن الإنسان الذي يخالف المنهج ولا يريد أن يصلح في الأرض معتقدا بأنه بعيد عن الرقابة يُدكره الرقيب أنه يراه وسيحاسبه، وعليه فلا بد من مراجعة النفس وأخذ الأمر على محمل الجد فالرقيب موجود ويرى كل شيء ويسمع كل شيء ويعلم بأمر كل شيء إنه السميع العليم، فالله لم يخلقنا عبثا ولم يتركنا في الأرض عبثا ولكن لحكمة وهدف محكم يعلمه عز وجل وهو الإصلاح يقول الله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ

<sup>391</sup>البلد 7.

إَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ {392}. (أَفْحَسِبْتُمْ) أيها الخلق (أَمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا) أي: سدى وباطلا تأكلون وتشربون وتمرحون، وتتمتعون بلذات الدنيا، ونترككم لا نأمركم، ولا نراقبكم، و(لا) ننهاكم ولا نثيبكم، ولا نعاقبكم؟ ولهذا قال: (وَأَنْتُمْ إَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) لا يخطر هذا ببالكم، ولأن كل شيء من الله فالرجوع إليه ضرورة لإشباع حاجات متنوعة ومتطورة عبر الزمن، ولهذا كان شعيب رقيقا على قومه وما يعملون ويفسدون فمن عمل منهم عملا صالحا جزاه الله عليه خير وسيكون شعيب على عمله من الشاهدين، ومن عمل من قومه إفسادا بتقليل وتطفيف الكيل والميزان فكذلك سيكون شعيب عليهم شهيدا يوم مجازاتهم بالعذاب الشديد، فقله تعالى: (فَتَعَالَى اللَّهُ) تعاضم وارتفع عن هذا الظن الباطل، الذي يرجع إلى القدح في حكمته. (الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) فكونه ملكا للخلق كلهم حقا، في صدقه، ووعدده، ووعيدده، إلهها معبودا، لما له من الكمال والجلال والجمال (رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ).

ولأنه سبحانه لم يخلقنا عبثا فهو الرقيب علينا الذي ينظر ما نفعله وينتظر منا التوبة والعودة إلى الطريق الصحيح طريق الهداية فيذكرنا بقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) أي مراقبا، وهي صيغة من رَقَبَ يَرْقُبُ رَقْبًا وَرُقُوبًا وَرُقْبَانًا إِذَا أَحَدَ النَّظَرَ لِأَمْرٍ يَرِيدُ تَحْقِيقَهُ، أي

<sup>392</sup>المؤمنون 15 . 18.

حافظا مطلعاً على جميع ما يصدر عنك من الأفعال والأقوال وعلى ما في ضمائرنا من النيات مُريداً لمجازاتك بذلك<sup>393</sup>.

ومن صور التحقق بالاسم الرقيب العبادة على المشاهدة بمعنى أن الذي يعبد الله بيقين يعلم أن الله يراه ويراقبه ولذا فعليه أن يراقب هو الله وهذه المراقبة بالبعد عن مغريات الدنيا المفسدة للفضائل الحسنة والقيم الحميدة والخلاق الكريمة بمعنى البعد عن الرغبة التخريبية واللهث وراء المفسد والرغبات الدنيئة وضد ذلك يكون بالرغبة في الإصلاح من خلال العمل الجاد والبناء والعمار الذي ينطلق من مبدأ أن الله رقيب وهذا العمل يثمر صفاء الروح وشفافيتها فترى ما يحدث في الجنة والنار وهذا ما نقصده من العبادة على المشاهدة.

ومن المراقبة الإخلاص والورع فقليل: المخلصون من الورعين هم الذين تفقدوا قلوبهم بالأعمال والنيات في كلِّ أحوالهم وأعمالهم وحركاتهم وسكونهم مواظبين للاستقامة المفترضة على طاعة الله، وله محافظين، ومن دخول الفساد عليهم مشفقين، فأورثهم الله مراقبته، فهناك تنتصب قلوبهم بمداومة المحافظة لنظر الله إليهم ونظره إلى سرائرهم وعلمه بحركاتهم وسكونهم فهناك تقف القلوب بعلم الله بهم في ذلك، فلم تبرز حركات الضمير إلى تحريك الجوارح إلا بالتحصيل والتميز لقوله تعالى: {إِنِ اللَّهُ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} 394. ولقوله سبحانه: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا

<sup>393</sup> تفسير أبي السعود، ج 2، ص 29

<sup>394</sup> النساء 1.

في كتابٍ مُبينٍ {395}. ما من عملٍ إلا والرقيب شاهد عليه فهو الذي لا تخفى عنه خافية فأينما تكون الله يعلمها في الأرض وفي السماوات العلا كبيرة كانت أم صغيرة لا تخفى عن بصره ولا تغيب عن رقابته، وكلّ شيء في كتاب مبین.

والخليفة الذي يستوعب ما قيل عن المراقبة وعن الرقيب ويعلم أن الله رقيب شاهد بصير حافظ محصي مبدئ معيد حسيب عليّ كبير عظيم وغير ذلك من صفات ترتبط بالرقيب الذي لا تنتهي أدوات رقابته على الإنسان ومن هذه الأدوات ما أشرنا إليه قبل ذلك ونزيده في هذا المكان أن الرقابة لصيقة ولهذا يقول الله تعالى: {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} {396}.

ففي نفس الإنسان من الرقباء ما قد يغفل عنهم ومن مثل ذلك شهادة الجسم أو أجزاء منه على الإنسان كالرجل التي يستخدمها الإنسان في سعيه خيرا وشرا يقول الله تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} {397}.

---

<sup>395</sup> يونس 61.

<sup>396</sup> الذاريات 10 . 21.

<sup>397</sup> النور 24، 25.

ولأنّ الخليفة هو الأكثر مراقبة لله فهو الذي يوفي بالعهد الذي عاهد الله بني آدم عليه بعدم إتباع الشيطان وعدم السير في طريق الضلال لأن الله تعالى رقيب عليهم بعلمه الشامل وبما رصد من أدوات كلفها بمراقبة أعمال الإنسان يقول الله تعالى: { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ } 398.

والعهد يتلخّص في الخلافة الصحيحة المبنية على المنهج الذي أَرادَه الله بالإصلاح والتعمير على كافة المستويات من أخلاق وعادات وتقاليد وتعليم واقتصاد وسياسة وزراعة وبناء للإنسان لأنه الثروة الحقيقية التي يجب الاهتمام بها، فما فائدة علم دون أخلاق؟ وما فائدة حضارة دون إنسان أمودجي يؤمن بالله ويعلم أنه الرقيب فيراقب نفسه في كلّ كبيرة وصغيرة طاعة لأمر الله تعالى؟ ولذلك فلا جدوى إلا بمراقبة الإنسان الخليفة لأفعاله وأفعال الآخرين الذين تربطه بهم علاقات ليرشدهم إذا ما انحرفوا عن الجادة والطريق المستقيم.

قال تعالى: { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } 399.

في هذه الآية تساؤل (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) أَلَا يَعْلَمُ الرقيب جلّ ثناؤه (مَنْ خَلَقَ) من خلقه؟ يقول: كيف يخفي

<sup>398</sup>يس، 60 . 66.

<sup>399</sup>الملك، 14، 15.

عليه خلقه الذي خلق وَهُوَ اللَّطِيفُ بعباده، الْخَبِيرُ بهم وبأعمالهم  
وبكلّ أمر، والذي بفضلله جعل الأرض ذلولا ممتلئة بالرزق الذي هو  
من فضل الله تعالى.

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} 400. بما أنّه عليم  
بها فهو بطبيعة الحال أن يكون رقيباً، ولأنه رقيب فبطبيعة الحال أن  
يكون عليماً، وعلمه بذات الصدور علم بالخفي فما بالك بالظاهر  
الذي يتمكن العباد من مراقبته والتعرف عليه.

وقوله تعالى: {وَلَيَبْتَغِيَنَّ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَحِّصَنَّ مَا فِي  
قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} 401. ابتلاء الصدور بما فيها من  
أسرار لا يعلمها إلا الرقيب الذي يلم بكلّ ما فيها من كبيرة وصغيرة  
وبكلّ تفاصيلها من محبة أو كره وود أو حقد وسوء نية أو صفاء نية،  
والقلوب هي مكان الأسرار التي تحس بالأثر الموجب المفرح والأثر  
السالب المؤلم والمحزن، ولذا عندما تحب أحد لا تجد مكاناً يليق به  
إلا القلب وأحاسيسه الراقية التي تحف من تحب بالمودة والصدق  
والوفاء، ممّا يجعل المحب مدخل للفرحة في القلوب. وهكذا أمر الحزن  
لا مكان له إلا القلب فعندما تفارق حبيب يؤلمك في قلبك ولا يؤلمك  
في رأسك، وعلينا أن نتذكر عندما نفرح وعندما نحزن لو وضعنا يدنا  
على صدرنا لأحسنا بمكان ومكانة من نفرح أو بمن نحزن.

قال تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّوا مِنْهُ أَلَا حِينَ  
يَسْتَعْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ  
الصُّدُورِ} 402. ثني الصدر تغليفه بما ليس حقاً، ممّا يجعل صاحبه

---

<sup>400</sup>آل عمران 119.

<sup>401</sup>آل عمران 154.

<sup>402</sup>هود 1. 5.

يظهر مالا يخفي فيحجب حقيته عن الأمر الواقع، والذي يثني صدره غافل عن الرقيب الذي لا يغفل عن شيء ظاهر أو كامن سبحانه علام الغيوب عالم ما في السماوات والأرض وما تكنه الصدور أو تخفيه.

وعليه أتساءل:

. هل يمكن لأحد أن يعلم بالشيء إن لم يكن الشيء موجودا؟

. هل يمكن للشيء أن يكون لو لم يكن سابقا على وجوده من

بيده أمر الكينونة (كن) فيكون؟

. هل يمكن أن يكون هو كما هو لو لم يكن عليه رقيب عتيد؟

. هل يمكن لأحد أن يدرك إن لم يكن له عقل سليم؟

. هل يمكن للعقل أن يترك سدى لا رقيب عليه؟ أم أن العقل

من مكوناته وملكاته الذاتية الرقابة التي تُمكن من التمييز بين ما يجب وبين ما لا يجب؟

. وإذا سلمنا بذلك، إلا يكون من الصواب أن نتعد ونجتنب

عما يجب تجنبه والانتفاء عنه وأن نقدم على ما يجب أن يكون؟

. إذا سلمنا بذلك جدلا، إلا يحق للخليفة أن يراقب نفسه

حتى لا تخطئ أو تنحرف عن أداء ما يجب وتبتعد عما يجب الابتعاد عنه؟

. وإذا سلمنا بذلك جدلا، إلا يحق للعقلاء أن يرعوا غير

العقلاء حفظا على النوع وحفظا على مكارم الأخلاق؟

. هل يمكن للإنسان أن يرى لو لم يكن بصيرا؟ الرؤية قد تكون عينية وقد تكون إدراك حقيقة بخبر لا شك فيه، ومع ذلك فالتبُّن سيّد الأحكام. وبذلك ألا تكون العقول قادرة على التقصي والتتبع الواعي والبحث في أغوار الأشياء حتى يُدرك كنهها؟

. ألا يكون الكافر والمشرك بالحقيقة كافر بالحقّ المطلق؟

. إذا كانت الإجابة بنعم، ألا يكون من يكفر بالحقّ المطلق مفسدا في الأرض؟

. إذا كان كذلك ألا يكون من يفسد في الأرض يشكّل خطرا على العباد؟ . إذا كان كذلك إلا تكون مراقبته ضرورة حفظا على النوع البشري؟

. إذا لم ينته ألا يكون عقابه حقّ يستوجب الإحقاق؟

. ألا يكون العقل شيئا لا يوصف ولا يشاهد وبه تدرك الأشياء القابلة للمشاهدة والملاحظة.

إذا كانت الإجابة بنعم، ألا يكون العقل أفضل ما نملك؟ وإذا كان كذلك ألا يحقّ لنا أن نتساءل:

. بما أنّ العقل هو الأفضل الذي به تدرك الأشياء المادية والروحية أو المعنوية، إذا كان الأمر كذلك ألا نكون قد سلمنا بوجود ما هو مادي قابل للمشاهدة البصرية وما هو غير مادي لا يقبل للمشاهدة المادية، إذا سلمنا بذلك إلا نسلم بوجود مطلق يدرك ولا يشاهد؟

. وإذا سلمنا به ألا نسلم برقابته علينا وعلى ما نقول ونعمل أو نفعل وما نُظهر وما نكن ونخفي في صدورنا؟

. ألا يكون الإنسان العاقل قدرا على أن يميز بين الحقّ والباطل؟ بما انه يكون بدون شك، فلما لا يميز؟ ألا يكون ما تكنه الصدور وتتنى عليه انسحابا بدل الإقدام على إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل.

كلّ التساؤلات السابقة تحمل إجاباتها فيها فمن يدرك الحقّ يدركها ومن غفل عنه غفل عن الحقيقة. ومن يغفل عنها جهل وظل، ومن أدركها اهتدى سبل الرشاد.

فالتساؤلات السابقة مبنية على الآيات الكريمة السابقة عليها، التي تؤكد حقّ الرقابة لأجل ترسيخ ما يجب من حقّ وتجنب ما لا يجب من باطل، ولذا فالرقيب المطلق هو الله سبحانه وتعالى، والرقيب بالإضافة هو الخليفة الذي أدرك الحقّ واتبعه قال تعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 403. ولأن الكمال للرقيب المطلق وحده لا شريك له، فالرقيب بالإضافة ليس بكامل ولذا فهو في حاجة لمن يغفر له إن أدرك الحقّ واتبعه فكان فضل الرقيب المطلق واسع الرحمة ومجيب الدعاء فالحمد له وحده لا شريك له. وعليه: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا هَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَىٰ

---

<sup>403</sup>البقرة، 284.

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحْمِلُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا  
وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ {404.

جاء أمر التسليم من الخليفة الذي اصطفاه الرقيب المطلق ليكون شهيدا (رقيبا) عليهم ويكونوا هم شهداء على الناس ولذلك فأمة الإسلام هي الأمة الوسط التي جاء موقعها بين شهادة رسول الله عليها وبين شهادتها على الناس، وأمة وسط هي أمة العدل التي لا تظلم أحدا، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ {405. ويكون الرسول عليكم شهيدا ليراقبكم فيما أمرتم بإتباعه، وتكونوا انتم شهداء لتراقبوا بعد أن تعملوا على هداية الناس أن تراقبهم فيما يعملوا لتصحيحوا لهم الأخطاء وتعلموهم وتؤمموهم تجاه الحق، وتصلحوا ما استطعتم والصلح خير، وقولوا (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) وقال تعالى: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ {406 ولذا فعليكم بقول الحق فالرقيب المطلق لا تخفى عليه خافية ومن اعترف بذنبه وكفر عنه يجد الله غفورا رحيفا وما ربك بظلام للعبيد.

<sup>404</sup>البقرة، 285، 286.

<sup>405</sup>البقرة، 143، 144.

<sup>406</sup>البقرة 284.

والجملة الكريمة صريحة في أن الله - تعالى - يحاسب العباد على نياتهم وما تكسبه قلوبهم سواء أخفوه أم أظهروه.

وقد بيّن المحققون من العلماء أن هذه المحاسبة إنما تكون على ما يعزم عليه الإنسان وبنوياً ويصيرّ على فعله، سواء أنفذ ما اعتزم عليه أم حالت دونه حوائل خارجة عن إرادته: كمن عزم على السرقة واتخذ الوسائل لذلك ولكن لم يستطع التنفيذ لأسباب لم يتمكن معها من السرقة التي أصر عليها، وبهذا الخصوص أعرض قصّة سرقت الليمونة مع أنّها لا زالت في الشجرة.

سرقت الليمونة مع أنّها لا زالت في الشجرة:

قرّر مجموعة من اللصوص سرقة الليمونة من الشجرة، كلّ وفق الفرصة التي تمكنه من النجاة بها.

فالأوّل: قرّر السرقة ونفذ قراره. وقبض عليه متلبساً في حالة سرقة وجُرم وفق القانون.

والثاني: قرّر السرقة ولكنه لم ينفذ قراره، وبالتالي لم يتهم بالسرقة. ولكن بما أنّه قرر سرقة الليمونة وهو عاقل، ألا يعد بالنسبة للعقل سارقاً؟ مضمون القصّة هنا تأثر بالزمن وحدث المتغيرات. أنّه قرر السرقة والوقت كان منتصف النهار تقريبا، وفي قراره أنه سيسرق الليمونة في الليل، وعندما جاء المساء علم بأن الأوّل قد قبض عليه أثناء قيامه بسرقة الليمونة المستهدفة، وبالتالي الليمونة التي يود سرقتها قد سرقت، ممّا جعله لا ينفذ قراره، لا لتقوى ومخافة الله، بل لأن الفرصة قد ضاعت بالنسبة له. انه في هذه الحالة ووفق المدركات العقلية مثله مثل السارق الذي قبض عليه، مع أنّه لم يتهم بالسرقة لعدم قيامه بها. ولا فرق في هذه الحالة بين السارق الأوّل والثاني، إلا

أن الأوّل قد نفذ قراره ولم ينج، والثاني لم تتح له فرصة التنفيذ فنجا من القبض، وقد يعتقد البعض أنه خال من عيوب السرقة. ولكن لو لم ينفذ الأوّل قراره في ذلك اليوم، يجوز أن يكون الثاني هو السارق الذي قبض عليه.

أمّا الثالث: فهو الذي قرّر سرقة الليمونة من شجرة الجيران، وفق خطة تتضمن بدائل لتنفيذ عملية السرقة. الخطوة الأولى: يقوم بسرقة الليمونة عندما يكون جيرانه خارج المنزل، وهذه تتطلب منه مراقبة الجيران عند خروجهم من المنزل. والبديل الثاني: إذا لم يخرج الجيران جميعهم من المنزل قرر أن يكوّن علاقة مع الحارس والكلب الذي قد يعيقه أثناء تنفيذه قرار السرقة. والبديل الثالث: أن يقتل الحارس والكلب.

كلّ هذه العملية الحسابية عملية عقلية، وغير عفوية، لأنها وفق خطة وإصرار على دخول المخاطرة، وبعقل مدبر. وما التنفيذ إلا خطوة من خطوات الخطة، ولهذا لم تكن المشكّلة في فعل السرقة، بل المشكّلة في العقل الذي قرر السرقة ووضع لها خطة. وعليه: ينبغي أن يستهدف العلاج العقل.

والرّابع: قرر سرقة الليمونة، ولكنه تراجع نتيجة خوفه من أن يقبض عليه. في هذه الحالة لا يختلف عن سابقه فهو لم يخف الله بل خاف القبض عليه. أنه سارق ولكن الخوف حال بينه وبين ارتكاب فعل السرقة. لم تمنعه الأخلاق، ولا القيم والأعراف، ولا الدين، بل شيء آخر أنتج الخوف. انه العقل المدبّر الذي يقرر، ويخطط، ويغيّر قراراته وخططه وفق المواقف والظروف والمتغيرات الطارئة.

تعد الليمونة في كلّ الحالات مسروقة، وتُعتبر سُرقَت منذ أن اتخذ قرار سرقتها، وما التنفيذ إلا خطوة لاحقة لذلك. هذه القصة تذكرني بقصة أخرى بعنوان ذبح الخروف ليلا وأصبح بخير:

### ذبح الخروف ليلا وأصبح بخير

حضر الضيف إلى المدينة، واتصل بصديقه من الفندق، ليبلغه بوصوله، فدعا الصديق المقيم صديقه الزائر إلى وجبة الغذاء ليوم الغد. وقرر ذبح الخروف الذي اشتراه يوم الأمس لهذه الضيافة. وصدر قرار ذبح الخروف ليلا، على أن ينفذ صباحا لتمتكن الزوجة من إعداد وجبة الغذاء في وقتها المناسب. في هذه الحالة يعد الخروف مذبوحا وفقا لقرار ذبحه، سواء بالنسبة للخروف أو لمالكه، ولكن من الناحية التنفيذية لازال الخروف على قيد الحياة. إن التنفيذ في حقيقته ما هو إلا تأكيد على اتخاذ القرار.

في الصّباح الباكر اتصل الصديق الزائر بصديقه يعتذر له على عدم حضوره وجبة الغذاء التي اتفقا عليها نتيجة ظروف طارئة اضطرته إلى المغادرة في الحال. انه متغير تابع أثر على تنفيذ القرار المتخذ بشأن ذبح الخروف. وعليه مع أن العقل قد قرر ذبح الخروف، إلا أن الظروف جعلته لا يزال حيا، ولهذا ذبح الخروف ليلا وأصبح بخير<sup>407</sup>.

وأخيرا فيجب أن نراقب الله في أنفسنا وفي الآخرين ونعلم أننا لا نستطيع أن نستخفي من الله لأنه معنا في أي مكان وزمان يقول الله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا وَلَا تُجَادِلْ عَن

---

<sup>407</sup>عقيل حسين عقيل، سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي. مالطا، شركة الجأ،

الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا يَسْتَحْفُونَ  
مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ  
الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا {408.

فسبحان الله الرقيب الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم  
الذي استمد منه شعيب صفاته فكان نعم العبد رقيب على قومه وما  
يفعلون.

ولذا؛ فالرقيب هو الذي لا يغفل ولا يغيب ولا يتأخر عن  
مهمة الرقابة أو المراقبة، ورقيب تعني الاستمرارية المتصلة دون انقطاع  
وتدل على الدقة المتناهية والوعي الكامل بأمر من وضع تحت  
المراقبة، ورقابة الله تعالى بعباده متصلة مع الحياة والحركة والسكون  
ولهذا فللرقيب المطلق جنود يعملون تحت أمره يسجلون عن اليمين  
والشمال ويحفظون خلفائه في الأرض ويشهدون عليهم وما ربك  
بظلام للعبيد. قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ  
الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ  
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} {409، وقال تعالى: {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ  
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى  
لِلْبَشَرِ} {410.

## 16 - ناج:

الناجي: هو الذي لم يتعرض لأذى وهو السليم المعافي، فلم  
يمرّ به ألم وكربة وإن مرّ به ما مرّ من مواقف وأحداث.

---

<sup>408</sup>النساء 106 . 108.

<sup>409</sup>الفتح 4.

<sup>410</sup>المدثر، 31.

والنجاة: خلاص من المكروه وهي المحققة للفوز بدون وقوع ضرر وإن تعرض صاحبها لبعض من المخاطر، فهي لا تستوقفه عن تحقيق أهدافه وبلوغ غايته بسلام، ولذا فالنجاة من النار بعدم الدخول إليها والفوز بالجنة هو غاية النجاة.

المنجّي: هو من يمتلك القوّة والقدرة والاستطاعة بالمطلق ويمتلك الإرادة والأمر والتصرف متى ما شاء في كلّ ما يشاء كيفما يشاء، وهو الذي أمره ينفذ طوعاً أو كرهاً وهو على كلّ شيء قدير.

المنجّي: هو الناجي بفعل فاعل من هموم وكرب وألم فكانت نجاته بعدم الوقوع فيها كما هو حال سيدنا شعيب صلّى الله عليه وسلّم الذي نجاه الله من كلّ كرب وألم ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ تُؤُدُّ﴾{411}.

وفي تفسير النجاة يقول الرازي: "فأخبر الله أنه نجى شعيباً ومن معه من المؤمنين برحمة منه وفيه وجهان:

الأول: أنه تعالى إنما خلصه من ذلك العذاب لمحض رحمته، تنبيهاً على أن كلّ ما يصل إلى العبد فليس إلا بفضل الله ورحمته.

الثاني: أن يكون المراد من الرحمة الإيمان والطاعة وسائر الأعمال الصالحة وهي أيضاً ما حصلت إلا بتوفيق الله تعالى"412.

---

<sup>411</sup>هود 94، 95.

<sup>412</sup>تفسير الرازي، ج 8، ص 463.

وعليه فقوله تعالى: (نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) تدل هذه الآية الكريمة على أن نجاة شعيب والذين معه من المؤمنين كانت بفعل مباشر من الله لا بجهدٍ منهم وإن بذلوا ما بذلوا من جهد وذلك لأن شعيب رسول الله؛ فكيف لا يُنَجِّي الله رسوله والذين آمنوا به مع شعيب.

## 17 - مرحوم:

المرحوم: هو من يؤتى الرحمة من الرحمن الرحيم، كما أتيت إلى سيدنا شعيب صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله تعالى: {فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ} 413.

والرحمة: هي سعة من الفضائل الحسان تعم من يُرحم بها فتمده بكثير خيراتها وتسكنه فسيح جناها. والرحمة مشتقة من الرحمن الذي هو مصدر لكل رحمة أي أنها المشتقة من خالقها الذي لولاه ما كانت (لولا الرحمن ما كانت الرحمة).

والرحمن: هو من بيد الرحمة وأمرها، ولذا فالرحمن هو الراحم عباده الصالحين بها وهو الرحيم بهم في الدارين.

فكلمة رحيم: اسم دائم بفعل دائم، فعندما يُمد حرف الياء بقراءة في اتصال كأنه لا ينقطع، يتبين للقراء العطاء الدائم من الاسم الرحيم الدائم، أي يتبين لهم أن الأفعال تُحمل في هذه الكلمة، مما يجعل الرحمة قيمة والرحيم فاعل لهذه القيمة، والخليفة هو الذي يجعل من أقواله أفعال، {أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا

---

<sup>413</sup>الأعراف 72.

يَعْمَلُونَ} 414 ولهذا فالعمل الناجح هو الفعل الناجح {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} 415. فالخليفة هو الذي يقتدي بالعمل الصالح، أما أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون، أو يفعلون الباطل فهؤلاء هم من البشر الذين لم تتجسد في أفعالهم أعمال الخير التي ترضي الله ورسوله والمؤمنون.

وعليه الخليفة من حيث الوجود الحي لا فرق فيه بين الكائنات، أما الخليفة من حيث الاقتداء بمن استخلفهم فهم أولئك الذين يذكرون الله قياما وقيودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ويقولون سبحانك ربنا ما خلقت هذا باطلا. إنها الخلافة العاقلة، التي تتذكر حتى تتعظ، وتُفكر حتى تؤمن.

إذا الخليفة هو الذي تتجسد الرحمة في أقواله وأفعاله، حتى يكون رحيمًا على نفسه وعلى الذين تربطه بهم علاقات الأبوة والأمومة والأخوة وذي القربى والجيرة حتى تسود الرحمة بينهم {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} 416 فمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذين معه هم الذين يؤمنون بمن استخلفهم وقبلوا أن يكونوا خلفاء بحملهم الرسالة (رسالة الخليفة) أما الذين استخلفوا ولم يقبلوا بأن يكونوا الخليفة فهم أولئك الذين كفروا جحودا ونكرانا لفضل من استخلفهم في الأرض، وهؤلاء هم الذين أعطاهم المستخلف العقل فكفروا بما أعطي لهم، وهم الذين عرض عليهم الأمانة وقبلوها ثم بعد ذلك تخلوا عن حملها، وهم الذين أنعم

---

<sup>414</sup>الأحقاف 14.

<sup>415</sup> فصلت 46.

<sup>416</sup>الفتح 29.

الله عليهم بنعم لا تحصى ولم يُقدِّروها حقَّ قدرها هؤلاء هم المعنيون بالكفرة الذين لا يمكن أن يكونوا الخليفة.

الخليفة هو الرَّحيم الذي يلين قلبه ويرق لقول الحقِّ وفعل الخير، ومساعدة المحتاج، ورعاية اليتامى، ومناصرة المغلوب ظلماً، ورفع الضيم عن المضام.

وبما أنّ من أسماء الله تعالى وصفاته الرَّحيم، إذن بطبيعة الحال من يخلفه يجب أن يكون رحيمًا، حتى تُستخلف الرَّحمة بين النَّاس، لتعم بينهم ويتوادون بأعمال الخير. ولهذا كانت عواطفنا ترق بحالنا حتى نرق على غيرنا بإحسان، ويعطف الصغير على الكبير مثلما يعطف الكبير على الصغير وإلا هل هناك من يخلف شيء ولا يترك فيه شيئًا من صفاته، ولهذا جميع الكائنات تخلف بعضها البعض بصفاتها وخصائصها، وعلم الجينات يثبت ذلك بكلِّ وضوح.

أمّا الاستخلاف فهو بفعل فاعل لأسباب وأغراض مستقبلية يعلمها من أوجد الخليفة وسيلة لتحقيقها، وهذا الأمر يتطلب طرح السؤال: لماذا جعل الله في الأرض خليفة؟

نقول:

جعل الله خليفة في الأرض لغاية هوّ يعلمها ومنها الأرض، ولهذا، إن لم يفعل ذلك لن يكون مناسبًا للمكان الذي وُضع خليفة فيه. ولأن الاختيار من الخالق عزّ وجلّ فهو بطبيعة الحال يكون مناسبًا للإعمار بإرادة. ولأن فعل الإعمار تركه الله للمستخلفين فعل إراديا، فكان البعض بإرادته الحرّة يُسهم في إعمار الأرض، والبعض لا يُسهم في إعمارها، والبعض الآخر يُسهم في خرابها. والسبب إن الحياة الدنيا تُحْفُ بين الحين والحين بالغرور الذي يجعل البعض ممن يراد له

أن يكون خليفة متناسيا لأسباب استخلافه في الأرض، حتى يظن أنه بذاته قادر، مما يجعله من المعرضين للفشل في أداء المهام التي من أجلها أستخلف {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} 417. ولذلك كان الاستخلاف لغاية، وكان الله الفضل على من يلتزم بأسباب استخلافه، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ} 418، ولذلك كان شعيب خليفة لله في الأرض ليصلح ولا يفسد فيها وينهى عن الإفساد، ويحث على الإصلاح والإعمار وفعل الخيرات الحسان مصداقا لقوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُسُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} 419 ولهذا من شروط الاستخلاف العمل. ولكن أي عمل؟ إنه العمل الصالح بإرادة. {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} 420 ولذلك فإن العمل غير الصالح هو دليل عدم القبول بأمر الاستخلاف في الأرض، كما هو حال قوم شعيب مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ

417 البقرة 11.

418 النور 55.

419 هود 84، 85.

420 فصلت 46.

مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ {421} ولو لم يجعل الله تعالى أمر العمل بإرادة، لكان الجميع مستخلفين فيها بالقوّة، وفي مقابل ذلك لو يؤاخذ الله تعالى الخليفة بما يفعل السفهاء ما ترك على ظهرها من دابة {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ} {422}، وبما أنّ الله تعالى ترك الخليفة على أمر الإرادة فيما يتعلق به من شؤون، وأجلّ أفعال العقاب لمعظم الأفعال إلى اليوم الآخر، إذا الله عزّ وجلّ يودّ للتسامح أن يسود صفة بين المستخلفين، وبما أنّ الأمر كذلك فلماذا لا يسود التسامح بين الناس فيما لا أمر قاطعا للقصاص؟

وهكذا، يُغرس التسامح بيننا قيمة، ويغفر بعضنا لبعض الخطايا اقتداءً بمن استخلفنا على الأرض {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} {423} وبما أنّ الله غفور رحيم إذا بطبيعة الحال يجب أن يكون للخليفة صفتين من صفتي الغفور الرحيم، وإلا كيف يكون خليفة ولا يقتدي بمن استخلفه في الأرض.

والرحيم اسم لله تعالى، ولأنّ اسمه الرحيم، ومن صفته الرحمة، إذا لا يمكن أن يقنط فاعل خير أو مؤمن من رحمة. {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} {424}. ولهذا التمسك بالأفعال الحسان هو الدليل على ممارسة الخليفة لدوره الطبيعي، وخير خليفة في الأرض هم الأنبياء والرسل الكرام من سيدنا

<sup>421</sup>هود 87، 88.

<sup>422</sup>فاطر 45.

<sup>423</sup>النساء 110.

<sup>424</sup>الرحمن 60، 61.

آدم إلى سيدنا الخاتم محمد صلى الله عليهم وسلّم، ولأن شعيب رسول  
لله تعالى فهو خير خليفة في الأرض فهو الذي كانت مهمته  
الإصلاح فأصلح ما استطاع إلى الحق سبيلا، قال تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ  
أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَهَأَكُمُ عَنْهُ إِنِ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا  
تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ {425} أما الذين لم يقدموا  
على أداء الأفعال الحسان فهم المنحرفون عن نهج الخليفة على  
الأرض، ولذا أحسن يُحسن إليك، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ  
أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ {426} التمسك بالقيم والفضائل  
الإنسانية والعمل بها له جزاء حسنٌ من قبل الذين يُقدّم لهم كلما  
قدّروه، ومن ورائه جزاء أعظم من الرحمن الرحيم، وفي مقابل ذلك  
إنزال الضرر بمن لا يعمل صالحا، وذلك بالعقاب في الحياة الدنيا متى  
وقع بين أيدي الناس الذين وقع عليهم منه ضرا يستوجب عقابا أو  
قصاصا عاجلا، والضرر الأكبر يلاحق الضرر الأصغر حتى يدعمه يوم  
القيامة إن لم يقع العفو بأسباب تحب ما قبلها.

وبما أنّ الله هو الرحمن الرحيم، إذن الرحمة آتية لا محالة. وبما  
أنّها آتية لا محالة لكلّ من يتقدم لها، إذن فلماذا القنوط؟ ولماذا لا  
تُفتح صدور البعض لاستقبالها واحتضانها؟

وعليه: فمن يريد أن يعمّ برحمته الواسعة فعليه بالإيمان، الإيمان  
بأنه المستخلف بصفات كرام فلا يسيء إليها حتى لا يسيء لنفسه  
وللآخرين. وعندما يكون كذلك تكون الرحمة من نصيبه، كما كانت  
لشعيب صلى الله عليه وسلّم، ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ  
آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ

<sup>425</sup>هود 88.

<sup>426</sup> فصلت 46.

جَاثِمِينَ} 427، يتضح من هذه الآية الكريمة أن شعيب والذين آمنوا معه فازوا برحمة واسعة من الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والذين كفروا بشعيب وبما أرسل به أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

ولأنَّ الله هو الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فقد كتب على نفسه الرَّحْمَةَ وهذه القاعدة ومن كفر فعليه نفسه وما فعلت يدها، قال تعالى: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَ كُفْرَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذَ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} 428، وقال تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 429 كلمتي غفور ورحيم تدل على أنه الفاعل لذلك على أرض الواقع والقادر في أي حين على فعل المغفرة والرَّحْمَةَ، ولهذا جاءت كلمة الرَّحِيمِ مستمرة بأفعالها التي هي شواهد دالة على إظهار الحقيقة كما هي سواء أكانت ذات أثرٍ سالبٍ أ أثرٍ موجبٍ.

وعليه: من يريد أن يكون الخليفة عليه أن يستمد صفة الرَّحْمَةَ من الرَّحْمَنِ ويستمد فعلها من الرَّحِيمِ الذي أوجب الجنوح للسلم كلمًا مال الخصم أو العدو إلى إبرام صلح أو عقد مسالمة. أمَّا الاستكبار

---

<sup>427</sup>هود 94.

<sup>428</sup>الأنعام 12 . 16.

<sup>429</sup>الأنعام 54.

فلا يؤدّي بصاحبه إلا للهلاك، { فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِعَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْحِزْبِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ } 430 الله جلّ جلاله هو القوّة بذاته فمن يحاول أن يستكبر على القوّة فلا بدّ أن يهزم، ولو لم يكن رحيم لكان العقاب في حينه على كلّ فعل، ولأنه كذلك يؤجل العقاب عن معظم الذنوب حتى يكون للإنسان الزمن والفرص الكافية للتبئّن من أجل التكفير عن السيئات.

جاء اسم الرّحمن مصدر لكلّ رحمة، وجاء اسم الرّحيم قائم بأفعال الرّحمة، ولهذا فمن اسم الرّحيم يستمد فعل الرّحمة، { فَأَنْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ } 431 يتضح من هذه الآية الكريمة، إنّ للرحمة أثر، والأثر لا يمكن أن يكون إلا بفعل من تركه، فلو لم يكن هناك فاعل ما كان هناك أثر قابل للتقصي والمعرفة؛ فإذا نظرنا للرياح والسحب، نتوقع سقوط المطر، وإذا سقط المطر، انبت عشباً، ممّا يجعل كلّ من الرياح والسحب والمطر ونبات العشب آثار من رحمة الرّحيم، وإلا هل هناك غيره قادر على القيام بهذه الأفعال نيابة عنه!، قال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } 432 من الآية السابقة عرفنا إنّ البلد الميت أثر، وسقوط المطر عليها أثر، والنبات المثمر أثر، وهذه الآثار جميعها تشاهد من قبل كلّ ذي بصر، ولكن الأثر الأعظم هو

<sup>430</sup> فصلت 15.

<sup>431</sup> الروم 50.

<sup>432</sup> الأعراف 57.

الذي يلاحظ ويدرك ولا تراه الأبصار إنه (أحياء موت البلد) الذي يتمثل مع أفعال الرحيم في إحياء الموتى. ولذا فبالملاحظة ندرك ونقارن بين الظروف التي كان عليها البلد ميتا وبين الظروف التي غيرته إلى حياة.

وعليه لو لم تكن إمكانية إحياء الموتى حقيقة، ما آمن المؤمنون بيوم البعث الذي لا يمكن أن يكون إلا بقوة إحياء الموتى.

إذن كل رحيم قادر على أن يقوم بأفعال الرحمة مباشرة وبدون إنابة، ولذا لا يمكن أن تكون أفعال الرحيم خالية من الرحمة، ولهذا كل أثر من رحيم هو أثر رحمة. وبما أن الأمر كذلك إذا بطبيعة الحال تكون الرحمة صفة للرحيم.

وبما أن الرحمة صفة، إذا الاتصاف بها ممكنا، وبما أنه ممكنا فالافتداء بأفعالها كما يود لها أن تكون يجعل الإنسان خليفة بها وخليفة عليها.

ولارتباط الرحمة بالرحيم، نلاحظ أينما وُجد رحيم وجدت الرحمة، وأينما غاب رحيم على المستوى البشري غابت الرحمة. ولأن الله هو الرحمن الرحيم الذي لا يغيب فإن رحمته لن تنقطع، ولهذا فالعذاب يخص والرحمة تعم { قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَاأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ

الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي  
أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {433}.

ولأنّ العذاب عام والرّحمة خاصة، جاءت قضايا العذاب  
جامعة مانعة، جامعة للذين يحقّ عليهم العذاب، واستثنت الذين  
يقومون بأفعال الرّحمة. أمّا قضايا الرّحمة فهي قضايا جامعة لا مانعة،  
جامعة لكلّ من هم يقومون بأفعال الرّحمة (أفعال الخير) ومستوعبة  
لكلّ من يُكفّر عن سيئاته متى ما يشاء.

ولأنّ رحمة الله واسعة فهي لم تقتصر على فئة دون فئة، بل  
أبوابها مُفَتَّحة لكلّ من يريد الدخول فيها، {لَا تَفْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ  
إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} {434} فلننظر إلى  
هذه الآية حتى نستبين، ألا تُعد رحمة الله قد جاءت مطلقة دون أي  
استثناء، ومطلقة لأن تغفر الذنوب جميعا؟

آلا تُعد هذه الآية جامعة لكلّ الرّحمة، وفاقحة أبوابها لكلّ  
النّاس؟

ولأن رحمة الله واسعة وتعمّ كلّ النّاس قال تعالى: {إِنَّ الْأَرْضَ  
لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} {435} ويقول {اللَّهُ  
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ  
عَلِيمٌ} {436}. بهذه الآيات يتم التأكيد على أنّ الرّحمة عامّة،  
وقضاياها جامعة لا مانعة. أمّا أنّ الله بالمؤمنين رءوف رحيم فهذه  
تدل على التخصيص باعتبار أنّ الرّحمة سبقت إلى البعض الذي آمن

---

433 الأعراف 156، 157.

434 الزمر 53.

435 الأعراف 128.

436 العنكبوت 63.

وبالتالي كانت المترتبة على الأفعال الإيمانية مصداقا لقوله: {وَكَانَ  
بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} 437.

وعليه: لا يمكن أن يشتق الخالق مما خلق، ولكن كل شيء  
يشتق من خالقه. ولأن البشر كغيرهم من ورائهم خالق، ولأن المخلوق  
وفقا للقاعدة يشتق صفته من خالقه، لذا يستخلف البشر خالقهم  
بالرحمة. فالرحمة صفة التمام بين المحبين، ولهذا فهي خاصية إنسانية  
تميّز بها البشر عن غيره من المخلوقات الأخرى. ومن يكتسي بالرحمة  
يُخلف الرحمن في شيء من خواص الرحمة، ومن لا يُخلفه يفقد هذه  
الخاصية التي بفقدانها لا يتمكن من أن يكون خليفة.

ولأنّ الرحمن تعالى خاصيته المطلقة هي الرحمة المتضمنة في  
اسمه، وجنس آدم مستخلف ممن له الخاصية المطلقة (الرحمة) كما يدل  
على ذلك قوله تعالى: {الرحمن عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ} 438،  
تتجلى في هذه الآيات دلائل عظيمة فُصد بها الخليفة ليتأمل ويعرف  
عن ربه الذي استخلفه في الأرض فيعمل بما يريد وينتهي عما نهى،  
ومن هذه الدلائل تقديم اسم الرحمن في السورة، وعلى الخليفة أن يعي  
أنّ الله سبحانه جعل للرحمة مرتبة عظيمة فسمى نفسه باسم الرحمن  
وهو الاسم الذي خص به ذاته في استدعاء الدعاء بعد اسمه الأعظم  
(الله) فقال: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ  
الْحُسْنَى} 439 هذه الآية توضح للخليفة أنّ كلّ أمر الله هو رحمة منه  
بالمخلوقات وبالمطلق، هنا تتجلى الدلالة العظيمة الأخرى فخلق  
الإنسان وتعليمه أنّما هي من وجوه رحمة الله به وليس لأمر آخر،

---

437 الأحزاب 43.

438 الرحمن 1 . 3 .

439 الإسراء 110.

فليتصور من يشاء لو أن الإنسان لم يُخلق هل ستكون الجنة مأوى خلود له؟ هذه الرّحمة المطلقة هي أن يُخلق الإنسان لتكون له الجنة مأوى. ثم ليتساءلوا بينهم لو لم يعرف الإنسان هذا القرآن العظيم فهل له أن يعرف طريقا إلى الجنة؟ هنا على الخليفة أن يفهم أنّ الرّحمة هي شعاره وديارها، والطريق إلى تحقيق الاستخلاف الحقّ متذكرا قول الرّحمن جل في علاه لنبينا الأكرم: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} 440.

ثم من عظيم الدلائل أن نعرف أنّ الرّحمن اسم الله والرّحمة صفته المتضمنة فيه إلى جانب صفات أخرى، فالرّحمن عليم علّم الإنسان ما لم يعلم، والرّحمن خالق فهو الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وعليه وكما تنص الآية الكريمة فالاسم يتضمن صفة أساسية (رحمن) ويتسع لصفات أخرى (عليم وخالق).

لذا؛ فالخليفة يحمل في مكوناته شيء من خصائص من استخلفه. ولأنّ الرّحمة كما بيّنا خاصة مطلقة وثابتة للرحمن، لذا فهي لن تكون خاصة مطلقة وثابتة للخليفة، ولهذا فهي في حالة اهتزاز بين الثبات النسبي والاهتزاز النسبي، ممّا يجعل البعض في سلوكهم الرّحمة والبعض في سلوكهم يفتقدونها. فالذين لا يحكمون بالعدل، ويأكلون أموال الناس بينهم بالباطل، ولا يتطهّرون ولا يتصدقون ويتزكّون، ولا يتوادون مع من تربطهم بهم صلة رحيم، ولا يناصرون المظلوم ولا يقدّمون على أعمال البر والخير والإحسان فهؤلاء يعتبرون منحرفين عن القيم والفضائل التي بها يُستخلفون في الأرض. وهذا

---

<sup>440</sup>آل عمران 159.

الأمر يجعلهم من تعداد الخليفة الكم، وليس من تعداد الخليفة الكيف  
(القيم والفضائل الإنسانية).

وعليه: فالرحمة لا يمكن أن تتم إلا بوجود طرفين، طرف يمتلك  
مسببات الرحمة، وطرف في حاجة ماسة لهذه المسببات التي تطعمه  
من جوع وتأمنه من خوف، قال تعالى: {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ  
وَأَمَّنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} 441 الطرفان هما خالق ومخلوق، لذا فالخالق هو  
مالك الرحمة والذي هو في حاجة إليها هو المخلوق، ولأن الخليفة  
استمد خاصية الرحمة من خالقه الرحمن، ولأن الخلق بينهم فروق فردية  
من حيث القدرات والاستعدادات والإمكانات والمستوى الإيماني، لذا  
فهم يتراتبون على السلم القيمي للرحمة من حيث درجات الاقتراب  
والابتعاد عن (الرحمن) قال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ  
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} 442 فعمل الخير رحمة مطلقة من الله  
بين الناس، وعمل الشر لا مطلقة فيه بينهم. لذا تتوزع الرحمة بين  
الناس تناسبيا وبتماثل مع ما يُقدم من أفعال الخير كبيرة كانت أم  
صغيرة، مما يجعل لها أثر موجب على كفة التماثل في ميزان الحسنات.  
ولهذا بنو الإنسان في إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم لم يكونوا على حالة من  
المساواة على السلم القيمي للرحمة، مما يجعلهم على درجات من  
التفاوت من حيث الاقتراب والابتعاد من الرحمن عز وجل. ولأن  
الإنسان يتعرض في حياته لظروف قد تجعله في حاجة لمن يُقدم له  
المساعدة، نتيجة عوزه وفقره وبما هو عليه من ظروف، أو نتيجة لما  
ألم به من كوارث، حتى يتمكن من النهوض ومن مغالبة الصعاب، وفي  
المقابل هناك من تهيأت له الظروف حتى أصبح قادر على العيش

---

441 قریش، 4.

442 الزلزلة، 7، 8.

السعيد وقادر على مد يد العون للمحتاجين بدون منة، ما يجعله على الكفة التي تستطيع أن تُقدِّم المساعدة، في مقابل الطرف الذي يستلمها أو يأخذها، وهذه الدلائل هي من دلائل الرَّحمة بين النَّاسِ.

(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) جاءت سابقة على قوله (ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وهذا الأمر يدل على أن الله تعالى يهب لنا الرَّحمة قيمة مطلقة في ذاتها، أمَّا الشر فلم يكن كذلك فهو المترتب على ما تقدم أيادينا، ولهذا الرَّحمة المستمدة من اسمه (الرَّحْمَن) هي الصفة الفعلية السابقة في عمومها، والغضب هو الفعل اللاحق أو المترتب على ما تُقدم أيادينا ممَّا يجعل الغضب عقاب لنا على ما قَدِمنا عليه من أفعال غير مرضية للرحمن.

اسم الرَّحْمَن عزَّ وجلَّ هو اسم الله، ولذا لا يعد الرَّحْمَن اسم آخر لله تعالى، بل هو اسم الله في ذاته، ولهذا فهو الاسم الذي لا يُثنى ولا يُجمع، ورحمته شاملة تسع الخلق من انس وجان وملائكة وطائر وحيوان ونبات وجماد وماء وهواء والنار التي بواسع رحمته جعلها عزَّ وجلَّ بردا وسلاما على إبراهيم صلَّى الله عليه وسلَّم. ولهذا الرَّحمة تعم كلَّ شيء، وإلا لو لم تعم كلَّ شيء ما كانت النار رحمة على إبراهيم وعقاب للكافرين، {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 443 فكما للجنة أصحاب من المؤمنين، كذلك للنار أصحابها من الكافرين، والذين كفروا هم في أساس خلقهم خليفة ترث الأرض، ولكن انسحابهم عن قيم الخليفة وتخليهم عنها لن يجعل لهم مستقبل لنيل الجزاء الأوفر كما هو حال الذين استجابوا لله وللرسول.

---

443 البقرة، 39.

ولهذا، لا يدخل النار إلا الذي لم يحافظ على فضائل ما استخلف عليه، ومن لا يحافظ عليها سيلاحقه الخزي حتى ينال العقاب بالحقّ (بالنار) مصداقا لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾{444}.

ولأنّ الرّحمن هو مصدر الرّحمة، لذا فهو الذي يستحقّ العبادة والشكر والثناء، فمن خلقك وجعلك خليفة على الأرض التي فيها معاشك وجميع النعم التي تُشبع حاجاتك المتعددة والمتطوّرة ألا يستحقّ العبادة، وإذا كان من يعمل لك خيرا تشكره كثيرا، فما بالك بالذي خلقك وجعل لك الرّحمة (الرزق والنعم)، ألا يكون هو الأوّل بالشكر والثناء والعبادة؟

إنّ الشكر والعبادة صلة لا تنقطع بين الرّحمن وخليفته، فمن تمسّك بها تمسّك بالصلة، ومن تخلى عنها وقطعها انقطعت الصلة معه، وعندما تنقطع الصلة بمن يمدك بالخاصية والصفة تنعدم خاصيتك وصيفتك به، ولهذا، عندما تنقطع صلة الخليفة بمن استخلفه يفقد صفته التي على أساسها استخلف في الأرض.

ولذا، لا يخلف الرّحمن إلا من آمن به واستمد منه صفة الرّحمة التي على أساسها خُلق على الأرض، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾{445}، جاءت الخلافة على حالة الجمع (خلائف) وهذه تدل على خليفة سابقة وأخرى لاحقة، وهكذا تتوالى، (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) فهو لم يخلقكم أيها الخلائف نسخة واحدة، بل خلقكم على حالات من الفروق الفردية، وبطبيعة الحال لو خُلق

---

444 آل عمران، 192.

445 الأنعام، 165.

الرَّحْمَنُ بَنِي الْإِنْسَانَ نَسْخَةً وَاحِدَةً لَكَانَ أَمْرَ الْخَلْقِ أَهْوَنُ مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 446، ولأنه هو مصدر الخلق والإعجاز، أراد لنا أن نكون غير متناسخين كورق السحب الذي يستخدم في الطباعة، ولهذا بعث الرحمن شعيب لقومه رحمة كما بعث من قبله ومن بعده الرُّسل والأنبياء رحمة.

وجعل لنا الليل لنسكن فيه رحمة، وجعل لنا النهار معاشُ رحمة، وجعل لنا المحبَّة والأرزاق والكثير من النعم التي لا تحصى رحمة. قال تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} 447 استوى على العرش بواسع رحمته، وتحكم بسيطرة تامة على كلِّ شيء خلقه، والحمد لله الذي استوى على العرش بالرحمة حتى عمَّت كلِّ شيء، ولأنها عمَّت كلِّ شيء، فكلِّ شيء يُسَبِّحُ للرحمن، {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} 448 كلِّ المخلوقات تسبح لله تعالى باللغة التي هي عليها، عرفانا بواسع رحمته التي عمَّت كلِّ شيء، ولهذا سبقت النعم وواسع الرعاية خلق الكائنات الحية، وإلا هل هناك من يعتقد أنَّ خلق الكائنات كان سابقا على ما يُشبع حاجاتها المتعددة والمتنوعة؟

المأكل والمشرب والمأمن كانت وفرة تامة (الجنة) في الحياة الأولى بالنسبة للجنس البشري، ثم الأرض (الكنز المكور) الممتلئة في باطنها وعلى ظاهرها بمسببات الإشباع، وهذه جميعها رحمة، ولولا

---

446 الروم 27.

447 الرحمن 5.

448 الإسراء 44.

ذلك ما كُتبت الحياة للكائنات الحية، وإلى يومنا هذا ويوم غدٍ فمعظم الكائنات ما دون الإنسان ترتع فتشرب وتأكل وتنام تحت واسع رحمته بدون أن تُسهم في إنتاج ما يُشبع حاجاتها، فلو لم يكن الماء سابق الوجود على من هو في حالة ظمئٍ ما شرب وارتوى، وهكذا لو لم يكن الكلاً سابق على من به جوع ما أكل وشبع وكلها تُسبِّح بحمد الرحمن الذي على العرش استوى، وفي ذلك يقول تعالى: {فَأَنْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} 449 فمن رحمته تعالى تجدد لأحياء الأرض بما ينمو عليها من خيرات ومما تفيض به من باطنها من ماء، فكلما جذبت انبتت عشب وكلاً جديداً وهكذا رحمة الرحمن تتجدد، والتسبيح باسمه وحمده وشكوه على رحمته ومن حول العرش لا ينقطع والحمد لله رب العالمين.

## 18 - مؤمن:

المؤمن: هو من يُدرك الحق ويصدقه ويؤمن به يقينا تاماً، فيعمل به دون تردد ولا خوف، والمؤمن هو من يستمد إيمانه بالمؤمن المطلق جلّ جلاله؛ فيؤمن بأن الحياة حقّ، والموت حقّ، والبعث حقّ، والحساب والعقاب والثواب حقّ، والجنة حقّ، والنار حقّ؛ فيعمل على إحقاق الحقّ ويتجنب الباطل ويزهقه كلما تمكّن من ذلك، ولذلك فالمؤمن الحقّ هو الذي يُنجيه الله من كلّ كرب وألم كما أنجى سيدنا شعيب من كلّ همٍّ وغمٍّ وكلّ كربٍ وألمٍ، قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا} 450.

<sup>449</sup> الروم 50.

<sup>450</sup> هود 94.

أي؛ لما جاء أمر الله بالعقاب لقوم شعيب نَجَّى الله شعيبا  
والذين آمنوا معه من العقاب الشديد، "وعلى التقديرين فأخبر الله أنه  
نجى شعيبا ومن معه من المؤمنين برحمة منه وفيه وجهان:

الأول: أنه تعالى إنما خلصه من ذلك العذاب لمحض رحمته،  
تنبيها على أن كل ما يصل إلى العبد فليس إلا بفضل الله ورحمته.

الثاني: أن يكون المراد من الرحمة الإيمان والطاعة وسائر  
الأعمال الصالحة وهي أيضا ما حصلت إلا بتوفيق الله تعالى"451

ولأن المؤمن هو المصدق، قال تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا  
نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ  
كُنَّا صَادِقِينَ}452؛ فقله تعالى: (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا) أي؛ وما  
أنت بمصدق لنا، وجاءها التأكيد عليها بقولهم: (وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)  
التي تحمل في مضمونها الاعتراف من قبلهم بعدم صدقهم فيما قالوا،  
ولهذا قالوا ولو كنا صادقين ولم يقولوا ونحن صادقين.

ولذا فالمؤمن هو الواثق الذي لا حيز للظن فيه، ولهذا فالوثوق  
فعل يقيني، (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا) جعل الله تعالى  
الكعبة قبلة للمسلمين يحججون إليها، ويحججون إليها تعني يبلغون فيها  
الأمن والسلام، وبلوغهم إياها يوثقون عهدهم طاعة وطواعية على  
الأيمان وهم آمنين. ولذلك قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامِ  
أَمِينٍ}453. أي في مكان أمين لا وجود للضرر ولا مكان للخوف

---

<sup>451</sup>تفسير الرازي، ج 8، ص 463.

<sup>452</sup>يوسف 17.

<sup>453</sup>الدخان 51.

فيه، وهكذا كان شعيب والذين آمنوا معه من قومه آمنين حيث لا خوف ولا ضرر يلحقهم.

وقال أبي حامد الغزالي: "أحقّ العباد باسم المؤمن من كان سببا لأمن الخلق من عذاب الله بالهداية إلى طريق الله والإرشاد إلى سبيل النجاة، وهذه حرفة الأنبياء والعلماء"454، ولذلك، بعث شعيب رسولا هاديا للحقّ فأمن من آمن معه من قومه وكفر من كفر منهم.

وعليه، فالمؤمن هو الصادق، الذي لم يدخل قاموسه الكذب من قريب ولا من بعيد، ولهذا (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا)، تدل أيضا على انعدام الثقة فيهم في أمر يوسف. وهذا الأمر هو الذي يجعل من أمر المؤمن أمر وثوق. ولذلك قلنا أنّ المؤمن هو: الواثق. ولذا فهو الصادق فيما يقول، ولأنه كذلك فالمؤمن كلّما استمع أو قرأ قولاً من قول الله تعالى قال: صدق الله العظيم، وهذا القول هو التصديق من المؤمن بالإضافة للمؤمن الحقّ جلّ جلاله.

ولأنّ المؤمن هو الواثق، قال جلا جلاله: {الَّذِينَ آمَنُوا وَمَنْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ يَظْلِمُ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}455.

أما الأمانة: فهي المتداولة بين الطرفين ويستشهد بها ويُشهد عليها بين مالك ومُملّك، وهي إرث يُورث، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}456

---

<sup>454</sup>المصدر السابق، ص 49.

<sup>455</sup>الأنعام 82.

<sup>456</sup>الأحزاب 72.

والأمن: فعل استقراري من فاعل أعظم إلى فاعل بالإضافة  
{الَّذِينَ آمَنُوا وَمَنْ يَلْسُوا بِإِيمَانِهِمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ  
مُهْتَدُونَ} 457.

والأمان: عهد يُقطع مما يجعل أمان الله باقي ببقائه، وأمان  
العبد زائل بزواله، والأمان عهد على حق، ولذا فالحق هو الذي جعل  
عهد الله هو العروة الوثقى التي لا انفصام لها. {أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ  
مِنَ الْأَمِينِينَ} 458.

والإيمان: اعتراف إرادي بفعل جل، {لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ  
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ  
أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ  
بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ  
الْمُقْلِحُونَ} 459.

والمؤمن الحق هو المسلم بأمره، والمؤمن بالإضافة هو المسلم  
بالمؤمن الحق، والإيمان هو التسليم، {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ  
فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا} 460 قوله: (فأمننا به)  
سلمنا به وصدقناه، ولهذا فالمؤمن لا يخاف في الحق أحدا.

وبما أن المؤمن لا يخاف في الحق أحدا، إذا أمر التسليم حق،  
ولأن أمر التسليم بالحق حق، لذا فالإيمان بالحق أمر تسليم، ولهذا  
جاء قوله تعالى: (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا

---

457 الأنعام 82.

458 القصص 31.

459 المجادلة 22.

460 الجن 13.

يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهْفًا) أي؛ أصبح فعل الإيمان أمرًا نافدا في زمن الاستماع للهدى دون انتظار أو طلب استشارة من أحدٍ. ولذلك لما يدخل الإيمان في القلوب تصبح الحقيقة هي البينة، {قَالَتِ الْأَعْرَابُ أَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} 461.

يقول القرطبي: "نزلت هذه الآية الكريمة في أعراب بني أسد بن خزيمه قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السر، فكانوا يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم: أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصدقة؛ وجعلوا يمتنون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. وقال ابن عباس: نزلت في أعراب أرادوا أن يتسموا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين" 462.

بناء على هذه الآراء فإن مكن الحقيقة هو القلب، أما اللسان يقول كل شيء فهو يقول الحق كما يقول الباطل، أما القلب؛ فهو المكين للحقيقة. والمكين هو الحافظ للحقيقة سواء أكانت سالبة أم موجبة. ولكن إظهار الحقيقة ليس بالأمر الهين، فهو دائما في حاجة للتقصي الدقيق والمتابعة الواعية، ولذا يستند البحث العلمي على التقصي في إظهار الحقائق من الباطن إلى الظاهر، وهذا التقصي هو الذي يُمكن البُحَّاثَة من بلوغ الحقيقة هي كما هي، لا هي كما ينبغي أن تكون من وجهة النظر الخاصة.

---

461 الحجرات 14.

462 القرطبي الجامع لأحكام القرآن. دار الكتاب العربي، ج 16، ص 348.

وعليه علاقة قوية بين اسم المؤمن والفعل الإيماني، وذلك من حيث أنّ اسم المؤمن هو المصدر للفعل الإيماني، أي لو لم يكن المؤمن ما كان للإيمان فعل، وبما أنّ للإيمان فعل، إذا فمن يعمل على الأخذ به وتأكيدة فهو المؤمن، وإلا هل يُعتقد أن يتم الأخذ بالفعل الإيماني من غير المؤمن؟! ولذلك من يتخذ من الصفة أفعالها يتصف بها.

وبما أنّ الأمانة عبء، والعبء ثقل ليس هينا، ومن ورائه مسؤوليات جسام، فمن الذي يتطوع لحمله؟

الواثق هو الذي يتقدم متطوعا لحمله، أمّا غير الواثق فلا يتقدم، ولهذا عبء الأمانة لا يحمله إلا الواثقون، الذين هم يتصفون بالخلائف الذين منهم رسول الله شعيب الذي بُعث رسولا هاديا للحقّ وناهيا عن اتباع الباطل وظلم العباد فنهى عن المفسد التي جعلت قومه مشهورين بتطيف الكيل والميزان وهم يبخسون الناس أشياءهم { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَتَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } 463.

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ } 464 وقوله

<sup>463</sup>الأعراف 85، 86.

<sup>464</sup>النساء 136.

تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } 465.

في الآيتين السابقتين كانت المخاطبة مباشرة للمؤمنين، إلا أنّ الآية الأولى حددت بمن يكون الإيمان، وهو: الإيمان بالله والرّسول محمد صلى الله عليه وسلّم، والكتاب القرآن الكريم، والكتاب الذي أنزل من قبل، وهو الذي يستوجب التصديق بالكتب التي نزلت على الرّسل الذين كان محمد ورسالته الخاتمين لكلّ رسول ولكلّ رسالة، ولهذا نحن لا نفرّق بين أحدٍ من رسله صلوات الله وسلامه عليهم، وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

وفي الآية الثانية جاء الأمر للمؤمنين كافة أن يدخلوا السلم، وجاء النهي أيضا لهم كافة أن لا يتبعوا خطوات الشيطان، ولذلك فالعلاقة قوية بين المؤمنين والسلم الذي كما سبق أن بينا هو المستمد من اسمه السلام جلّ جلاله. ولأنّ المؤمن هو الذي يؤمن بالسلام عزّ وجلّ، فبطبيعة الحال أن يكون داخلا في السلم والسلم خيرا.

ولهذا؛ فالمؤمن جلّ جلاله هو: الموثوق فيه، أي أنه محلّ الثقة المطلقة، والمؤمن بالإضافة هو المتّبع التزاما لكلّ ما جاء به المؤمن الحقّ، تسليما بالقول، وتسليما بالفعل، حتى يتماثل الباطن مع الظاهر (السر مع العلانية)، ولذلك تغرس الثقة في المؤمن بالإضافة بعد المعاشة والمرافقة والتجريب معه في القول والفعل اللذين بتطابقهما مع الصدق ينالان الثقة. ولذلك، يعدّ المجرب هو الذي عُرف عنه قول الحقّ وفعل الحقّ ممّا يجعله محلّ ثقة بين الناس.

---

<sup>465</sup>البقرة 208.

وعليه: فالمؤمن المطلق هو الذي جاء بالإيمان بدين الحق الذي آمن به المؤمن المضاف حتى اتصف به قولاً وسلوكاً.

وآمن به، تعني: وثق به وصدّقه، حتى اعتقده حقيقة، ولذا فالإيمان هو الوثوق والتصديق والتسليم، وفي ذلك يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: "من آمن بالله اعتقده حقيقة، فأمن بوجوده وبصفاته التي وصف بها نفسه في كتابه، وعلى لسان نبيه عليه الصلاة وأتم التسليم"466.

ويتساءل الشعراوي بقوله: "ما المقصود (بالمؤمن) حين يكون اسماً ووصفاً للحقّ تبارك وتعالى؟

ويجيب: المؤمن كوصف من أوصاف الله عزّ وجلّ له معانٍ متعددة. منها أنه تبارك وتعالى مؤمن بكلّ ما دعانا إلى الإيمان به، فهو مؤمن بأنه موجود، ومؤمن بأنه موصوف بصفات الكمال المطلق، ومؤمن بأنه واحد أحد، ومؤمن أنّه لا إله سواه"467.

وعليه: فالإيمان خير، والمؤمن هو الخير، ولذا فمن يُريد خيراً فعليه بالإيمان، ومن يريد شراً عفانا الله فليس له من غيره، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}468؛ فقوله تعالى: (فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ) دليل إثبات أن الإيمان هو الخير في ذاته، ولهذا، ارتبط بذات الله العلية، وفي مقابل ذلك ينفصل الشر عن ذاته ويرتبط بفاعله.

---

<sup>466</sup> محمد متولي الشعراوي أسماء الله الحسنى. القاهرة، أخبار اليوم قطاع الثقافة، ص 159.

<sup>467</sup> المرجع السابق، ص 160.

<sup>468</sup> النساء 170.

وقال الزجاج: صفة المؤمن بالله أن يكون راجيا ثوابه، خاشيا عقابه. وعن ابن عمر قال أتى رجل إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال من المهاجر؟ فقال من هجر السيئات. وقال من المؤمن؟ قال: من أتمنه النَّاس على أموالهم وأنفسهم<sup>469</sup>.

والأمانة التي عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها وأشفق منها هي المسؤولية التي حملها الإنسان، والمسؤولية التزام بالطاعة وعدم المعصية، طاعة الله واحد أحد لا شريك له، ولذا فإن الأمانة عبء كبير ومن ورائها منافع أكبر فمن كان أميناً وحريصاً عليها كانت له الخلافة، ومن لم يستطع فلن يكون خليفة على الأمانة.

ولثقل عبء الأمانة التي التزم الإنسان أمام ربِّه تعالى بحملها لم يُوفَّق في حملها بالتمام، فكان التقصير من بعضه، وكان الشرك من بعضه، وكان الظلم وقتل النفس التي حرَّم الله، وكان الفساد في الأرض، وكان أكل أموال النَّاس بالباطل، وكان قول الزور متمشياً مع شهادة الزور، وكان الرِّنا مع المحرمات، والكثير من المعاصي وعدم الالتزام. وهذا لا يعني أنّ الكلَّ على هذه الشاكلة، بل هناك الأنبياء والرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم الذين منهم شعيب الذي اتصف بالإيمان فكان مؤمناً بحقٍّ ومؤمناً بإحقاقه، وهناك الصالحون رضي الله عنهم الذين يعملون على إصلاح ما يُفسده المخالفون، وهناك المجاهدون الطائعون، وهناك الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وهناك المتصدِّقون والمزكُّون والقائمون بأعمال الخير والإحسان، وهؤلاء هم الذين إذا أقسموا بالله لأبرِّهم، فالحمد لله ربِّ العالمين. ولهذا كان الانقسام والخلاف بين الذين ثقلت موازينهم والذين موازينهم خفَّت.

---

<sup>469</sup>المصدر السابق، ص 108.

{أَمَا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} 470.

ولأنّ الميزان هو أساس القسط، فكان الاستخلاف هو الأمانة التي بها ثقلت الموازين، قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} 471.

تؤكد هذه الآية الكريمة على أن الاستخلاف في الأرض هو للذين آمنوا، ولهذا، قال تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات) فالذين آمنوا منكم، لا تعني الذين لم يؤمنوا منكم، ولذا كان الاستثناء في استخلاف الأرض يخص الذين آمنوا، ولا يعمّ الذين كفروا ولا يخصّ الذين لم يعملوا الصالحات. ولذلك فالاستخلاف خاصة ترتبط بالمؤمن وبالذين يعملون الصالحات، والعمل الصالح بطبيعته عمل المؤمنين، فهؤلاء هم الذين أراد الله تعالى استخلافهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم (ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم).

وعليه: فكلّمة منكم، تعني بعضكم وليس عمومكم، ولأنّ الناس لم يؤمنوا بعد جميعاً، فلن يكونوا بالعموم خلائف.

---

<sup>470</sup>القارة 6. 8.

<sup>471</sup>النور 55.

قال تعالى: { فَلَمَّا بَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ } 472  
بعد أن رأى موسى صلى الله عليه وسلم آية ذلك الجبل صعق موسى صلى الله عليه وسلم، ولما أفاق، (قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) فأول المؤمنين تعني: أول المصدقين الذين نزع الشك والظن من صدورهم، تسليما بما يقوله الله تعالى، وإيمانا تاما بأنه هو الله، وقوله الحق سبحانه لا شريك له.

ولهذا؛ فقول موسى صلى الله عليه وسلم: (تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) تعني: أنا أول خليفة بعد أولئك الذين سبقوني بالإيمان مصداقا لقوله تعالى: (كما استخلف الذين من قبلهم). وبما أن الله قد استخلف سابقين، فهو بطبيعة الحال يستخلف حاضرين وسيستخلف من بعدهم لاحقين حتى النهاية، ولهذا جعل الله تعالى في الأرض الخلائف في حالة اتصال وتعاقب عبر الزمن، أي أن أبواب الاستخلاف مفتوحة دائما لمن يهتدي، ولأن أبواب الاستخلاف مفتوحة عبر الزمن، لذا فإن عدد المؤمنين دائما في حالة ازدياد دائم حتى النهاية فالحمد لله رب العالمين.

ومن عرف أن الله سبحانه وتعالى هو المؤمن لم يطلب الأمن والاستقرار للناس في حياتهم الدنيا إلا في شرع الله وعلم أن أهواء البشر ونظراتهم العاجلة القاصرة لا تنتج إلا فسادا وخللا واضطرابا قال تعالى: { وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ } 473 فلا أمن في العالم إلا وهو مستفاد بأسباب تفرد الله تعالى بخلقها والهداية التي

---

<sup>472</sup>الأعراف 143.

<sup>473</sup>المؤمنون 71.

استظل بها قال تعالى: { قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } 474.

وحظَّ العبد من اسم ربه (المؤمن جلَّ جلاله) أن يكون أميناً على نفسه وماله وأن يتخلق بالأمانة والصدق فالمؤمن لا يكذب ولا يسرق ولا يزني ولا يرتكب شيء من الفواحش بل يتقي الله ربه في كل شيء يقوله أو يفعله، ويهدي للتي هي أحسن، { وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } 475.

واسم المؤمن جلَّ جلاله كما يراه بعض من العلماء الذين "عبَّروا عن هذا الاسم بعبارات مختلفة فمنهم من ذهب إلى أن المؤمن يعني الذي يؤمن خلقه من ظلمه، كابن جرير، بينما ذهب الزجاجي وابن كثير والشوكاني إلى الجمع بين معنيين:

أحدهما: أنه الذي يأمن عباده من بأسه وعذابه.

وثانيهما: أنه المصدق عباده المؤمنين" 476.

قال تعالى: { هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ } 477 تنص هذه الآية صراحة على أن المؤمن اسم من أسماء الله الحسنى، وجاء في هذه الآية اسمه مرتباً بعد صفة الملك والقدوس والسلام، وهذا الترتيب المنظم يدل على: أولاً: تأكيد صفة المؤمن على ما سبقها من صفات الله تعالى.

---

<sup>474</sup> طه 50.

<sup>475</sup> الإسراء 53.

<sup>476</sup> مشرف الغامدي منهج الإمام ابن القيم الجوزية في شرح أسماء الله الحسنى. الرياض، دار

أبن الجوزية، الطبعة الأولى 2005، ص 283.

<sup>477</sup> الحشر 23.

ثانيا: احتوى صفة المؤمن على ما سبقها من الصفات  
الحسان.

ثالثا: تفتح صفة المؤمن آفاق واسعة أمام الصفات التي تليها.  
ولهذا، اسم الله تعالى لا يتعدد وصفاته متعددة.

ويقول الدكتور محمد بكر إسماعيل: "إنّ لاسم المؤمن جلاً  
جلاله معنيين:

المعنى الأوّل: "أنّه الذي آمن بنفسه وشهد بأنه الواحد الأحد  
الفرد الصمد، وثنى بشهادة ملائكته فكانت شهادتهم عبادة له وتنزيها  
لذاته، وهي شهادة مبنية على شهادة الله تعالى، ثم تلي ذلك بشهادة  
أولي العلم وهم المؤمنون بالوحدانية الإلهية يقينا"478، وذلك مصداقا  
لقوله تعالى: { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا  
بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }479.

والمعنى الثاني للمؤمن: "هو الذي يؤمن للمؤمنين. أعني:  
يستجيب لهم إذا استجابوا له"480. وفي ذلك قال الله تعالى: { وَإِذَا  
سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ  
فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ }481. فليستجيبوا لي  
تعني: أن لا يعصوا أمري الذي هو من أجلهم، وليس من أجلي، فالله  
عزّ وجلّ لم يكن في حاجة لأحد، بل هو الذي كلّ أحدا في حاجة

---

<sup>478</sup> محمد بكر إسماعيل أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها. القاهرة، دار المنار، الطبعة الأولى

2000، ص 31.

<sup>479</sup> آل عمران 18.

<sup>480</sup> أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها، مصدر سابق، ص 31.

<sup>481</sup> البقرة 186.

إليه، فكلّ قول من الله تعالى هو من أجل من قيل له القول. فالله تعالى لم يكن في حاجة، بل الذي في حاجة هو الذي يجوع ويظمى، ولأنه مالك كلّ شيء فهو الذي لم يكن في حاجة لأي شيء، بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير.

المؤمن الحقّ هو مصدر القوّة المطلقة، والمؤمن بالإضافة هو الذي يستمد قوته من المؤمن الحقّ، وهو الذي يُسلّم به تسليماً تاماً لا ظن فيه. ولذا فإن اسم المؤمن بالإضافة هو اسم تسليمي، يؤمن بما أنزل ولا يعصي الله أمراً.

واسم المؤمن بالإضافة اسم تعبدي، بعد أن يتم التسليم بالله ورُسُله وكتبه وبكلّ ما أمر به ونهى عنه يصبح الإيمان فعل إضافة لفعل التسليم، ويصبح المؤمن في هذه الحالة هو الذي يملأه اليقين مصداقاً لقوله تعالى: (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ).

والأمن نقيض الخوف، فمتى ما حلّ الأمن نُزِعَ الخوف، وهذا يعني: أنّ الإيمان هو بيت الاستقرار والسكينة الذي به تطمئنّ القلوب. وبما أنّ الإيمان هو بيت السكينة والاطمئنان، إذا أريد للأمن أن يستقر في القرية الصغيرة التي ينادى بها في عصر العولمة فلا مفر من المؤمن الحقّ إلا المفر إليه وحده لا شريك له بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير. وإن لم يتم ذلك لا يمكن للفتن أن تزول، ولا يمكن للحقّ والمكائد أن تزول، وبما أنّ الأمر كذلك فستظلّ الفتن والمكائد والصدمات والحروب إلى أن تتم العودة إليه بدلاً من المفر منه مصداقاً لقوله تعالى: { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } 482.

---

<sup>482</sup>الكهف 80.

وبما أنَّ الإيمان هو المشتق من اسم المؤمن جلَّ جلاله، وهو بيت السكينة والاطمئنان، إذا فمن آمنَ بالمؤمن آمنَ نفسه من الجوع والخوف {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ} 483. وعليه فمن أراد ألا يكون من الخائفين فعليه بالإيمان. {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} 484.

وبما أنَّه لا أمان إلا منه. إذا فالإيمان به هو الممكِّن من الإيمان منه. ولذا فمن أراد أمانه فعليه بالإيمان به واحد أحد لا شريك له، والإيمان في هذه الحالة هو عهد قطعي لا رجعة من بعده ممَّا يستوجب اللجوء إليه دون غيره، حيث لا أحد غيره يطعم من الجوع ويأمن من الخوف. وإلا هل هناك من يضمن ذلك ويؤمن جانبه إلى الأبد غيره؟  
نقول:

الإجابة تكمن في قوله تعالى: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} 485.

بالرغم من وضوح القوَّة والمقدرة الإلهية على الفعل المطلق، إلا أنَّ المؤمن جلَّ جلاله رءوف بالذين يرثون الأرض، فلم يصبهم بذنوبهم التي بها يفسدون في الأرض التي استخلفهم الله فيها ليصلحوا. والفرق كبير بين ورثة الأرض وبين الاستخلاف فيها: فورثة الأرض

---

<sup>483</sup>قريش 4.

<sup>484</sup>الرعد 28.

<sup>485</sup>الأعراف 97 . 100.

حقّ معيشة عام لا استثناء فيه. والاستخلاف في الأرض بابه مفتوح للجميع ولكن لا يدخله إلا مؤمن (مصلح). ولذا قال الله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} {486،

وعليه: فالفساد دائما يؤدي إلى النهاية غير الحسنة، فأخذناهم بما كسبوا تعني بما عملوا من مفسد في الأرض؛ فالأرض التي خلقها الله وجعلها كنز وافر في الحياة الدنيا، العيش فيها حق للجميع (المؤمن وغير المؤمن) وبالتالي لا يحقّ الإفساد فيها حتى لا يجرم أحد من ورثتها من العيش الآمن، ولذا فمن يُفسد فيها يكون العذاب جزاءه في الدار الآخرة. ولأن من يملك الكلّ يملك الجزء، فالله خلق الأرض ليرثها الجميع، ولكن إذا أراد أن يملكها لعباده الصالحين فهو القادر متى ما يشاء وكيفما يشاء، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} {487.

فالعذاب والعقاب لا يأتيان إلا لملاحقة خيانة، ولهذا فالقاعدة: الإباحة هي الحلال، والاستثناء هو التحريم والنهي، ولذا فكلّ ما يقع من خيانة هو خروج من دائرة الإباحة الحلال ودخول إلى دائرة الاستثناء (الممنوع والحرام)؛ فالفساد في الأرض منهي عنه وهذه قاعدة تستوجب الإتيان، فمن يُفسد فيها يُجَلَّ بالقاعدة ويدخل دائرة الاستثناء، وبناء على القاعدة والاستثناء فإن المصلحين فيها هم الخلفاء، والذين يعيشون عليها هم الورثة.

وعليه، قد يتساءل البعض:

---

<sup>486</sup>الأعراف 96.

<sup>487</sup>الأنبياء 105.

بما أنّ الإباحة هي القاعدة، والتحریم هو الاستثناء من القاعدة، وأن الوجود مؤسس على القاعدة والاستثناء، فهل هذا دليل إثبات انعدام المطلقية؟

نقول:

لا مطلق إلا من عند الله، وهذه قاعدة.

ولا استثناء إلا من عند المخلوق وهذه قاعدة.

وقد يتساءل آخر:

بما أنّ المخلوق هو في دائرة الاستثناء، فكيف لنا بالمطالبة أن يكون متمسكا بالقواعد؟

نقول:

الإنسان مع أنّه حُلِقَ في أحسن تقويم إذا ما قورنا بغيره من المخلوقات الأخرى، إلا أنّه لم يُخلَق على الكمال، فهو الذي يُفكّر ويتذكر في وقتٍ واحد (يُفكر في مستقبله، ويتذكر ماضيه) ومع ذلك لن يستطيع أن يفكر في كلّ شيء مهما فكّر، فأى شيء يقع في دائرة المطلق، ولن يستطيع أن يستدعي كلّ ماضيه مهما تدكّر، فالماضي بالتمام مثل المستقبل يقع في دائرة المطلق وهذه لم تكن دائرته.

وبما أنّ هذا حاله فكيف يكون الخليفة في الأرض؟

نقول:

بمقارنته بكلّ المخلوقات فهو الأقدر الذي حُلِقَ في أحسن تقويم، ومقارنته بالخالق فهو الضعيف الذي في حاجة لقوة من خالقه

تمده بإمكانات السيادة والأمان والمن على الأرض التي يراد له الاستخلاف فيها، ولذا فالقوة بإمكانه أن يستمدّها بتمسكه بقواعد الإباحة الحلال، التي منها أن يعمل على الإصلاح في الأرض، واستثمار خيراتها، وأن يشرب حلال، ويأكل حلال، ويجمع حلال، ويقول الحق، ويفعل الحق، ويتعلم إلى النهاية حتى يتمكن من الغوص في كلّ آية من آياته العظام، وأن لا يشغل عقله بآله آخر غيره، فيكون انشغاله به على حساب إيمانه بالوحدانية، التي يتعلق أمرها بإحداث المطلق، وأن يمارس حقوقه بإرادة، ويؤدّي واجباته بإرادة، وأن يحلّ مسؤولياته بكلّ حرية، وأن يُقدّر بني جنسه أحسن تقدير وأن يعدل إذا طُلب منه أن يحكم بين الناس، وأن لا يكتفم شهادته. وعليه فإن التزم بالقواعد وابتعد عن الاستثناءات قد آمن، وإن لم يفعل فقد كفر.

ولذا يكون الإنسان مؤمناً إذا التزم بالقواعد، ويكون منحرفاً إذا حاد عنها، ولهذا السكر استثناء، وأكل أموال الناس بالباطل استثناء، والزنى استثناء، والإفساد في الأرض استثناء، والظلم استثناء، وتطيف الكيل والميزان كما كان في قوم شعيب استثناء وجميع هذه الاستثناءات وغيرها كثير وللأسف الشديد هي من عمل من يُراد له أن يكون الخليفة، ولأنّ أمر الإرادة بيد الإنسان، فإذا أراد أن يكون من بين الخلائف في الأرض فيمكنه أن يكون، وإذا لم يرد فالأمر أمر إرادة. ولهذا فنحن مثلما سلمنا بقاعدة لا مطلق إلا من عند الخالق تعالى، سلمنا أيضاً بقاعدة أنّه لا استثناء إلا من عند المخلوق.

فالمخلوق إن آمن اطمأنّ، وتخلّص من مسببات الضعف والوهن وامتلك مقاليد القوة، وساد في الأرض خليفة مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا

تَخَافُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} 488 فنحن أولياكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فالمؤمن جلّ جلاله هو ولي المؤمنين بأسباب إيمانهم الذي تم استخلافهم به في الأرض فكانوا نعم الوارثين {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} 489. إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ تعني إِنَّ أَحْصَى النَّاسِ بِخِلافةِ إِبْرَاهِيمَ هم الذين اتبعوه بالإيمان، كشعيب ومن سبقه وتلاه من الأنبياء والرُّسل الذين اختتموا بمحمّد رسول الكافة.

### 19 - أمين:

الأمين: هو المتصف بالإيمان الراسخ الذي لا خيانة ولا غدر فيه ولا خوف إلا من خيانة الأمانة إن أودعت عنده وأتمن عليها، فيكون الخوف من ظرف طارئ يمنعه قسرا من أدائها، إنه المخلص في حرصه على رعاية الأمانة وحفظها، وهو المأمون الموثوق فيه إخلاصا وطاعة لله تعالى، وهو من يؤتمن على ما يؤتمن عليه دون أن يلحق من أأتمنه شكٌ أو ظن فيه أو خوف منه.

الأمانة: هي المودعة حفظا ومحافضة عليها كي لا تمس بأي أثرٍ سلبي.

الأمّن: استقرار نفسي وعقلي مع وافر الطمأنينة حيث لا وجود لخائف ومخيف.

---

<sup>488</sup>فصلت 30، 31.

<sup>489</sup>آل عمران 68.

والإيمان: عهد وموثق ومؤسس على الثقة والتصديق  
والطمأنينة.

ولكي يكون الإنسان أميناً لا بدّ وان يكون مؤمناً بالحق  
واتباعه وإلا لن يكون أميناً، وأن يكون محل ثقة الآخرين وأسوتهم التي  
ترسم لهم القدوة الحسنة. ومع ذلك قد يغفل القوم عن أسوتهم إذا  
كان القوم على الضلال والكفر والشرك والزندقة، وهذا ما حصل  
لشعيب صلى الله عليه وسلّم مع قومه مطففي الكيل والميزان مصداقاً  
لقوله تعالى: {وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ  
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا  
تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ  
خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ  
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَتَرْتُمْ  
وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي  
أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ  
الْحَاكِمِينَ} 490.

من هذه الآيات الكريمة نستخرج المواعظ والحكم والنصائح  
والنواهي التي تضمنتها وهي:

. دعوة شعيب قومه لأن يوحدوا الله واحداً أحداً، (قَالَ يَا قَوْمِ  
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ).

. دعوة شعيب لقومه هي التي آتت شعيب عليها بالرسالة التي  
اصطفاه الله بها رسولا كرسم (قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ).

---

<sup>490</sup>الأعراف 85 . 87.

. رسالة شعيب الذي أتمن عليها لأجل الإصلاح الاقتصادي والأخلاقي في المعاملات بين الناس، (فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ).

. (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ).

. بُعث شعيب مصلحا وناهيا لقومه عمّا ألم بهم من مفساد؛ فهم الذين يقعدون أمام الناس الذين آمنوا بشعيب واتبعوه لكي يضلّوهم عن الهداية وكذلك يمنعون الآخرين من أن يهتدوا إلى الحقّ مع شعيب، بدون شك أنه الضلال الذي كان شعيب ناهيا عنه من أجل الاستقامة بالحقّ على الحقّ، {وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا} 491.

. ولأنّ شعيب قد بُعث بالبينّة لقومه فجاءهم مُبين لبيّن لهم ما كانوا عليه من قلة وضعف وما هم عليه بالبينّة إن اتبعوها من قوّة، (وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثُرْتُمْ)، ويُفسّر الرازي هذه الآية بقوله: "والمقصود منه أنّهم إذا تذكروا كثرة إنعام الله عليهم فالظاهر أن ذلك يحملهم على الطاعة والبعد عن المعصية، قال الزجاج: وهذا الكلام يحتمل ثلاثة أوجه، كثر عددكم بعد القلة، وكثركم بالغنى بعد الفقر، وكثركم بالقدرة بعد الضعف، ووجه ذلك أنّهم إذا كانوا فقراء أو ضعفاء فهم بمنزلة القليل، في أنّه لا يحصل من وجودهم قوّة وشوكة" 492.

. شعيب المؤمن بالبينّة لهداية قومه جاء لقومه هاديا بالتي هي أحسن فكان لهم ضارب مثل من أجل الاتعاض حتى لا يستمروا في الأرض مفسدين، (وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ).

491 الأعراف 86.

492، تفسير الرازي، ج 7، ص 185.

. ولأنّ المؤمن على ما يؤتمن عليه يكون دائما حريصا، لذا،  
كان شعيب صلى الله عليه وسلّم حريصا على قومه الذين آمنوا  
فبشّرهم بأن حكم الله هو الحكم الخير الذي بحكمه ينتصر المؤمنون  
ويُهزم الذين ضلوا وكفروا وأشركوا، (وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ أَمَنُوا بِالَّذِي  
أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ  
الْحَاكِمِينَ).

ولأنّ الله هو خير الحاكمين جاء الحكم كما كان شعيب به  
متوعدا لقومه مصداقا لقوله تعالى: { وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ  
لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي  
دَارِهِمْ جَاثِمِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَعْزُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا  
كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ  
رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ } 493.

## 20 - شيخ كبير:

لقد توصلنا في ثنايا بحثنا بالأدلة من القرآن الكريم بأن الشيخ  
الكبير الذي زوج موسى إحدى ابنتيه بعد أن ورد موسى ماء مدين  
ليس هو نبي الله شعيب صلى الله عليه وسلّم، ولهذا فقد اختلط الأمر  
من اسم المكان على كثير من الناس فظنوا أن شعيبا صلى الله عليه  
وسلّم، هو الشيخ الكبير الذي التقاه موسى بدلالة (مدين) التي  
وردت وتدل على مكان إقامة كلٍّ منهما، أو كليهما من مدين،  
ولكنهما في زمن مختلف كما توصل إليه البحث من نتيجة حيث  
نقف على كلام شعيب في قوله تعالى: { وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ  
بِبعيدٍ } 494.

---

<sup>493</sup> الأعراف 90 . 93.

<sup>494</sup> هود 89.

ومعلوم أنّ لوطا وإبراهيم صلّى الله عليهما وسلّم متعاصران  
وشعيب ليس منهما ببعيد، بينما موسى بُعث بعد يوسف بأزمان  
كثيرة عندما ورد ماء مدين وقابل الشيخ الكبير، ولأن شعيبا من أهل  
مدين فقد وقع الخلط لدى كثيرٍ من النَّاس بينهما، وفي هذا الصدد  
سيقف القارئ على تفصيل ذلك عند الكلام عن (مدين وموسى  
والرجل الصّالح)، ولذا رأينا أن نورد هذه الصفة التي تدل على صلاح  
كلّ منهما.

ولما كانت دلالة الشيخ الكبير من الوقار والحكمة والصلاح ما  
تضفي على شخصية الإنسان من هبة عمدنا لإثبات هذه الصفة لما  
تحمل من محامد يتصف بها شعيب وإن جاءت نصا في حقّ الشيخ  
الكبير.

ومن جانب آخر كان تناول هذه الصفة بين شعيب والشيخ  
الكبير خدمة لتوضيح ما اختلط في أذهان النَّاس أنّ الشيخ الكبير هو  
شعيب والأمر ليس كذلك، مع أنّ هذه الصفة لا تقتصر على شعيب  
فحسب بل هي صفة للأنبياء الكرام والصالحين العظام على حدٍ  
سواء.

والشيخ من حيث المفهوم له أكثر من دلالة منها:

. من مكث من عمره سنينا طويلة في دائرة النسبية من مجتمع  
لآخر.

. من بلغ من العلم الديني والنضج العقلي ما يُمكنه من أن  
يصبح مرجعية للهداية والافتداء به أسوة حسنة.

. من أصبح زعيما اجتماعيا لقبيلته حتى وإن لم يبلغ من العمر السن التي يوصف بها من بلغها بأنه شيخ، وفي المجتمعات القبيلة هناك من يرث أباه في مشيخة القبيلة في حالة مرضه أو موته.

. من يرتضى النزول بالأماكن العليا ولا يرتضى أن ينزل بالأماكن السافلة.

. من بلغ السداد في الرأي حتى ولو لم يكن من علماء الفقه والشريعة، بل بلغها بجلال فهمه وسداد رأيه ودرايته لأمر الحياة وخبرته وتجربته التي أصقلته وأعدته على الرشاد والهداية.

أما الشيخ الكبير فهو من يتصف بكبر سنّه ونضج عقله وسداد رأيه وتقواه وهدايته بالحقّ للحقّ.

ولأنّ هذه هي صفات الشيخ الكبير فقد وُصف بها من قبل ابنتيه المرأتين الكريمتين مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْتَأْذِنُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ: لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْذِنِي إِنْ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْذَنَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ فَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ} 495.

<sup>495</sup>القصص 28 .32.

ولأنه شيخ كبير من حيث العمر والرشاد والتقوى كانت ابنتاه على حُسن التربية والاستحياء وعلى حُسن الأدب مع فائق الاحترام، (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةَ مِنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ).

ولأنه شيخ كبير ربى ابنتيه على الحشمة وفي الوقت ذاته على الاعتماد على النفس، الحشمة من حيث عدم مخالطة المزاحمين من الرعاء على البئر، والاعتماد على النفس أن تردا البئر وتسقيان ماشية أبيهم دون أن يطلبوا من أحدٍ (وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)، ولكن عندما التقت معارف الكبار (موسى والشيخ الكبير) كان الاستحياء علامة مشتركة بين موسى وابنتي الشيخ الكبير، مما جعل موسى يتطوع لسقاية ماشية البننتين، ثم بعد ذلك جاءته أحد البننتين واثقة الخطى تمشي على استحياء تلبية لأمر أبيها لأن تدعوه إليه، (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا).

ولأن الكبار يظنون كبارا كان الشيخ خير منصتٍ لما قصه عليه موسى ولما تبين قال له لا تخف وهذه كلمة من كلمات الكبار العظام (فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

ولأن الكبار يظنون كبارا (موسى والشيخ) تطوع كل منهما بما يستطيع من قوة هداية بالحق للحق، فكما تطوع موسى لأن يسقي تطوع الشيخ الكبير لأن يجازي (لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا).

وبعد أن أستمع الشيخ لحديث موسى إليه طمأنه وأكد له نجاحه من القوم الظالمين، وحينها قالت إحدى ابنتي الشيخ الكبير: (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَمَّمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ فَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكَيْلًا، هكذا هي موثيق الكبار الذين إذا عاهدوا وفؤوا وإذا قالوا صدقوا وإذا عملوا أحسنوا.

والكِبَر والاستكبار يكون على معنيين متناقضين تماما وهما:

أولاً: الاستكبار بفعل الطاعات فيشعر من يقوم بها أنه صار عظيماً وكبيراً بمداومته على فعل ما يرضي الله عزَّ وجلَّ وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} 496، وهذا أمرٌ من الله عزَّ وجلَّ لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يعلن بأن مقصده في كلِّ عباداته وطاعاته وأعماله وحاله من إخلاص وإيمان عند مماته ومدة حياته إنما هو لله عزَّ وجلَّ، وإرادة وجهه الكريم وطلباً لرضاه.

وهذا الأمر يحوي نوعاً من العظمة فهو يقوله مفتخراً بأنه عبد لله متعالياً بذلك متعاضماً به، ويلزمنا نحن المؤمنين أن نتأسى بنبينا الكريم في ذلك، فيجب أن نفخر بأننا نطيع الله عزَّ وجلَّ ونعبده حقَّ عبادته وأن نشعر بالسعادة وتوفيق الله لنا 497، فالخليفة الذي يستحقُّ خلافة الله العظيم لا بدَّ أن يكون عظيماً وكبيراً وعلياً، وعظمتنا هذه نابعةٌ من عبادتنا لمن هو أعظم ولمن هو أكبر وأعلم فيستكبر الخليفة ويعلو بفعله للطاعات عن الوقوع أو عن ما يؤدِّي

<sup>496</sup> الأنعام، 161 – 163.

<sup>497</sup> تفسير الثعالبي، ج 2، ص 15.

إلى الوقوع في المعاصي، فيكثر من الاستغفار لينجيه الله من كل ما يؤدي إلى عصيانه عزّ وجلّ وإغضابه والعياذ بالله، والذي لا يستكبر عن الطاعات يكون ممن أخبر عنهم الله عزّ وجلّ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ {498}.

ثانيا: الاستكبار عن فعل الطاعات ويكون بالامتناع عن قبول الحقّ معاندةً وتكبراً دون أي حجة أو دليل وفي ذلك يقول الحقّ تبارك وتعالى في محكم آياته: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ {499} فبيّن الله تعالى أن المشركين الذين وصفهم الله تعالى كانوا إذا قيل لهم قولوا (لا إله إلا الله يستكبرون) أي يتعاضمون عن قول ذلك ويتكابرون عن عبادة الله الواحد الأحد ويصرون على عبادة غيره من الأوثان والأصنام التي لا تنفع ولا تضر فيصغرون بكفرهم وشركهم ولا يستكبرون 500، والذين يستكبرون من العباد عن طاعة الله عزّ وجلّ لا يمكن أن يكونوا خلفاء الأرض في أرضه لأنهم ضعاف الإيمان ولا يتصفون بصفات الخالق عزّ وجلّ، فلمستكبر عن فعل الطاعات يدرك أن ما استكبر عنه هو الحقّ ولكنه يرفض فعل هذه الطاعات معاندةً بدون مبرر مقنع ولا دليل دامغ بل أنهم أنفسهم يقولون عكس أفعالهم.

ولأنّ الأعمار بيد الله فهو لا بدّ وأن تكون لها بداية ونهاية، ولهذا مهما كبر المخلوق وشاخ لن يبلغ الكبر الأعظم الذي يحتوي الزمان والمكان ولا يحتويه زمان ومكان، ولذلك فالموجودات لكلّ منها

---

<sup>498</sup>النحل، 49.

<sup>499</sup>الصفات، 35.

<sup>500</sup>تفسير الطبري، ج 21، ص 33.

بداية معروفة، ونهاية محتومة مهما طال بها الزمن، فالإنسان إذا طالت سنون حياته يُقال له: كبير وفقاً لقاعدة النسبية إذا ما قورن بغيره؛ أي كبيرٌ في السن طويل في مدة البقاء بالنسبة لمن هو أصغر منه عمراً، ولا يقال له على ذلك: عظيم.

فالعظمة من معاني الكبير، ولكنها لا تكون إلا لله تعالى وحده. فقد جاء في لسان العرب "الكبير في صفة الله تعالى العظيم الجليل؛ وقال ابن الأثير: الكبير يعني العظيم ذو الكبرياء والمتعالي عن صفات الخلق 501.

والكبرياء يعني العظمة وهي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ولا يوصف بها إلا الله تعالى، والكبير والكبرياء من الكبر وهو العظمة، ويقال كبر يكبر أي عَظُم فهو عظيم 502.

والخالق العظيم الكبير المتعال هو الذي خلق الإنسان على هذه الأرض وميّزه عن كلّ المخلوقات؛ بأن أحسن خلقه وفي هذا الأمر كبر أي علو موجد ومميّز بأحسن الخلق، قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} 503، وفضّله المولى عزّ وجلّ على سائرهما بأن زوّده بالعقل ليدرك به الخطأ من الصواب ويكون بذلك أعظم المخلوقات على الإطلاق، فهو أفضل من الملائكة المكرّمين مصداقاً لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

---

<sup>501</sup>لسان العرب، ج 5، ص 125.

<sup>502</sup>المحيط في اللغة، ج 2، ص 48.

<sup>503</sup>التين، 4.

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ  
يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ  
غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا  
لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ  
الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا  
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا  
الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ  
عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ  
كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ {504}.

فيا أيها الإنسان يا من خلقك الله تعالى واستخلفك في  
الأرض وسخر لك المخلوقات لخدمتك عليك أن تكبر عن كل ما  
من شأنه أن يوقع بك في أزدل المنازل وأحطها؛ فكن عند حسن ظن  
خالقك فيك بأن تستمد صفاتك من صفاته فتكبر عن الرذيلة وتكبر  
عما يصعرك في القول والفعل حتى توصف بالكبر الذي يجعلك  
مستخلفا في الأرض كما يُراد لك أن تكون مميزا بما ميزك الله به عن  
بقية المخلوقات، وأن تعظم بعظمته، وتكبر بكبره، وتستحق بذلك  
خلافة الله العظيم، فخلافته لا تكون لأي إنسان مخلوق، فقط لمجرد  
أنه إنسان، ولكن خلافته تكون لمن يستحق الخلافة بجدارة، باتصافه  
بصفات الله وطاعته له عز وجل في كل أمور الحياة.

ولذا فالكبير هو من علا عن كل النواقص كما علا عنها ذلك  
الشيخ الكبير الذي كانت تربيته ومنطقه وحجته فوق كل حجة في  
زمانه والكبير هنا هو من أسس نفسه على القوة لا على الضعف

<sup>504</sup>البقرة 30 .37.

الذي يقوده إلى الطمع الذي هو الآخر يقوده إلى المنازل الوضيعة،  
ولذلك فالكبير من يكون كبيرا في الآتي:

أ . القدرة العقائدية:

بأن تكون عقيدتنا في ربنا وديننا ونبينا قوية راسخة لا تتزعزع  
وأن نسهم في تقوية هذه المعتقدات في نفوس شبابنا بكل قوة وإصرار  
وذلك بإظهارهم على كل حقيقة وبكل شفافية حتى يدخل الإيمان في  
قلوبهم بأن الله حقّ واحد أحد، وأنّ العدل بين الناس حقّ فيعملوا به  
ويعملوا عليه، وأنّ العذاب حقّ فيجتنبوا كلّ قول أو فعل يؤدّي إليه،  
وأنّ النار حقّ بما يُزهق الباطل، وأنّ الجنة حقّ بما يُنصر الحقّ، وأن  
البعث حقّ من بعده الحياة السرمدية، وأنّ الدنيا حقّ فانية؛ فلا  
يجعلوها في قلوبهم ولا ينسوا نصيبهم منها، وأنّ يقتدوا في آدابهم  
وسلوحياتهم وأفعالهم بتلك التربية العظيمة التي تربت عليها ابنتي الشيخ  
الكبير، وإن الرّسول حقّ فيتبعون رسالته الخاتمة، ويصلون عليه كما  
صلّى الله وملائكته عليه وعلى سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء صلوات الله  
وسلامه عليهم جميعا.

ب - القدرة العلمية والعقلية:

وهي أن يكون الشيخ ذو قدرة علمية وعقلية تمكّنه من الرد  
على الافتراءات والأكاذيب الباطلة والموجهة ضد الإسلام والمسلمين  
بالحجج والبراهين والأدلة العقلية والعلمية التي تكون في الوقت نفسه  
ردا على الأكاذيب وأدلة إقناع للمتريدين والمشككين في أمر هذا  
الدين، وبذلك يعطي الصورة الحسنة للمسلم الرّباني الحقّ، قال تعالى  
في كتابه العزيز مخاطبا سيدنا محمّد - صلّى الله عليه وسلّم -  
والخطاب بالتالي مُوجّها لنا نحن المسلمين عموما وللخلفاء خصوصا:

{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} 505. الحكمة هي مكنن الحقيقة التي لا تتلون ولا تتبدل، وهي التي تُملأ باللين كأسلوب معاملة بين الناس، ولهذا كانت المجادلة بالتي هي أحسن أسلوب متبع في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي استخلفه الله تعالى بإتباع ذلك، والحسن جمال ذوقى يفوح بطيب المعاملة الطيبة.

### ج - القدرة البدنية:

فليحرص كل من يريد أن يكون كبيراً في أرضه على أن يكون قادراً بقوته الجسدية أن يتحمل مسؤولياته المنوطة به من أجل إعلاء كلمة الله عز وجل، وإن لزم الأمر بالمقارعة.

وعليه، لا قوة لمؤمن كبير إلا بإيمانه وعلمه الذي يمكّنه من كشف الحقيقة وتجليها للآخرين، ولذا فلا بد أن يعمل على أن يكون مأكلاً وملبساً ومشرباً حلالاً طيباً، مثلما قوله وفعله حقاً صادقاً، فيمده بذلك الله تعالى بالقوة البدنية اللازمة له، ليسخرها في خدمة الدين والعباد المراد لهم الاستخلاف في الأرض لتكون طاهرة من كل رذيلة في هذه الدنيا الفانية، ويكون فيها مصلحون غير سافكي دماء بغير حق.

وقد أطلق الله العليّ جلّ وعلا وصف الكبير على أشياء كثيرة معنوية تتعلق بالإنسان، من تلك الأشياء قوله تعالى: {ذَلِكَ هُوَ الْفُضْلُ الْكَبِيرُ} 506، وقوله تعالى: {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ} 507،

---

<sup>505</sup>النحل، 125.

<sup>506</sup>فاطر، 32.

وهذا الوصف لهذه الأشياء يوجب على من يحصل على هذه الأشياء الموصوفة بالعظمة لا بد أن يكون هو عظيما أيضا، فلا يمكن أن يتحصل على هذا الفضل أو الفوز مقصّر في حق الله سبحانه وتعالى بارتكاب بعض النواهي وترك بعض الأوامر، وذلك لأنهم لم يصلوا درجة من العظمة والكبر التي تؤهلهم لينالوا هذا الفضل الكبير والفوز الكبير، والآيات السابقة الذكر توضح ذلك تمام التوضيح فيقول فيها جل من قائل: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ} 508 فلم يكن ذلك الفوز العظيم حقا لمن آمن فقط بل قرن تعالى الإيمان بالعمل، حيث أن العمل هو الترجمة الفعلية للإيمان الحقيقي، وهو المقياس الدقيق الذي يحدد درجة الإيمان في قلب كل عبد، فالعبد المؤمن تمام الإيمان يطيع الله في كل الأوامر التي أمر الله تعالى بها ويسعى دائما إلى التقرب والتودد إليه بفعل الطاعات والقربات، ويستحيل أن يعصيه أو أن يتجرأ حتى على مخالفة أوامره، فيستحق بذلك كله أن يوصف بأنه كبير المقام وعظيم المعرفة وخليفة لله في أرضه، قال تعالى: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً).

والكبير بالإضافة هو خليفة الله في الأرض فيجوز عليه الحيز والزمان والمكان والمادة والعرض والجوهر، إلا أنه كبير من حيث الصفات المادية والمعنوية وما تمتع به من القيم الأخلاقية الفاضلة النبيلة، وما يندرج تحت ذلك من الإيمان والتقوى والعلم، فكان الخليفة كبيرا بما اتصف به من الصفات النسبية للكبير المطلق، فهو الداعي إلى الخير ومكارم الأخلاق، ويهدي إلى صراط الله المستقيم

<sup>507</sup>البرج، 11.

<sup>508</sup>البرج، 11.

الذي أمره به الكبير جلّ جلاله، فيطيع من شاء الله له الهدى، ويعصي من كُتب عليه الشقاء، فيكون الخليفة شاهدا عليهم وعلى أعمالهم وأفعالهم فقد قال تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَسْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} 509 فالله سبحانه وتعالى جعل الأنبياء والخلفاء والأولياء شهداء على الناس، ثم أيدهم بشهادته على أفعال الخلق وأعمالهم، حيث أنّ الله أكبر شهادة من الجميع، فشهادته أكبر من شهادة الخلق، لأنّ شهادة الخلق وعلومهم لا تحيط بحقائق الأشياء كلّها، والحقّ سبحانه هو الذي يحيط علمه بجميع حقائق الأشياء.

#### مدين مدينة شعيب:

قبل البحث في قصة شعيب صلى الله عليه وسلم، لابدّ من الحديث عن (مدين).

ذلك أنّ هذا الاسم لنقل بداية ارتبط بأكثر من نبي على بعض الآراء، وكما نُسب إليه القوم الذين يسكنون هذا البلد أو هذه القرية، بأنهم أصحابها.

فقد جاء ذكر شعيب صلى الله عليه وسلم مقترنا معه في أكثر من آية في كتاب الله تعالى، منسوبا إلى قومه بالأخوة كقوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ} 510.

<sup>509</sup> الأنعام 19.

<sup>510</sup> الأعراف 85.

وقوله تعالى: {وَأِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ} 511.

وذكرت مع موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أكثر من موضع في قوله تعالى: {فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدَرًا يَا مُوسَى} 512.

وقوله تعالى: {وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ} 513.

وكذلك الشيخ الكبير الذي زوج ابنته لموسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث قال تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْتَفُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} 514.

ثم أنَّ هذا الرجل وعد موسى أن يكون من الصالحين بمشيئة الله، حيث قال تعالى: {قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَّائِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} 515.

لقد ارتبط اسم (مدین) هذا البلد أو هذه القرية بثلاث شخصيات:

---

<sup>511</sup>هود 84.

<sup>512</sup>طه 40.

<sup>513</sup>القصص 22.

<sup>514</sup>القصص 23.

<sup>515</sup>القصص 27.

1 . شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

2 . موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

3 . الرَّجُلُ الصَّالِحُ الَّذِي زَوْجُ ابْنَتِهِ لِمُوسَى، وَلِذَلِكَ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِرِينَ وَالْبَاحِثِينَ عَلَى أَنَّهُ هُوَ نَبِيُّ اللَّهِ شُعَيْبٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدَلَالَةِ ذِكْرِ (مَدِينِ).

ولبيان الحقائق التي تحملها هذه الاحتمالات لا بدّ من:

. تحديد موقع مدين.

. معرفة زمن كلّ واحد وعصره ممن ارتبط اسمه بمدين قدر المستطاع.

. المسافة الزمنية التي تفصل أحدهم عن الآخر أو تجمعهم مع الآخر.

. المسافة المكانية بين مدين وما ارتبط معها من أماكن من خلال النصوص القرآنية.

ولهذا، انسحبت صفة الشيخ الكبير من هذه الدلالات على نبي الله شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأفردنا لها تفصيلاً.

موقع مدينة مدين:

إنّ موقع مدين على ما تشير إليه الأدلة من النصوص القرآنية لا يتعدّى حصرها ما بين شبه جزيرة سيناء وجنوب فلسطين، ذلك أنّ موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما خرج خائفاً يترقب توجه شرقاً لكي ينجو من القوم الظالمين، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَدِينٍ قَالَ عَسَى

رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ  
النَّاسِ يَسْتَفُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا  
لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ {516.

ومعلوم ثابت أنّ نبي الله موسى صلى الله عليه وسلم لم يدخل  
فلسطين، وإنما الذين دخلوا فلسطين هم الأنبياء من بني إسرائيل من  
بعد موسى.

وإنّ نبي الله شعيب صلى الله عليه وسلم عندما دعا قومه إلى  
عبادة الله تعالى وترك ما هم فيه من بخرس الناس أشياءهم، وضرب لهم  
المثل بقوم لوط صلى الله عليه وسلم ونصح لهم من أجل الاعتبار كي  
يمنتعوا عما هم فيه قال: {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ  
مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ  
بِبَعِيدٍ {517.

فقوله: (وما قوم لوط منكم ببعيد).

وقد بعث لوط صلى الله عليه وسلم إلى القرية التي كانت  
تعمل الخبائث، وهذه القرية قريبة من البحر الميت وما جاوره، فلا  
يتعدى ذلك النصف الجنوبي من فلسطين، لأن قريشا في رحلة الشتاء  
كانت تتجه إلى اليمن، وفي الصيف تتجه إلى الشام بحيث لا يجاوزون  
بيت المقدس إلا قليلا، ثم إن هاشم بن عبد مناف الجد الأعلى لمحمد  
صلى الله عليه وسلم، توفي في غزة في إحدى رحلاته التجارية إلى  
الشام، ولما كانت قرش تعلم جغرافية المنطقة وتاريخها من مكة إلى  
بيت المقدس، ذكر الله تعالى لهم قوم لوط والمكان الذي يعرفون أنه

---

<sup>516</sup>القصص 21 . 23.

<sup>517</sup>هود 89.

بعث فيه، فقال تعالى: {وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَحْرِينَ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} 518.

فمرور قريش على آثار قوم لوط عند الصباح وبالليل حسب مسير القافلة في الوقت التي تصل به إلى مكان آثار قوم لوط، وقد كانت قوافل قريش إلى الشام تنطلق من مكة إلى المدينة إلى تبوك ثم تدخل غزة وتأخذ شمالاً إلى بيت المقدس ثم تعود أدرجها، فقد تمّ تحديد موقع قوم لوط على أنه لا يتجاوز بيت المقدس، فهم في نواحي البحر الميت على أغلب الآراء، ونحن نرجح ذلك استناداً للنصوص القرآنية التي أشارت إلى المكان.

وعليه:

. أن موسى صلى الله عليه وسلم لم يدخل فلسطين.

. وأن قريشا لم يجاوزوا نواحي بيت المقدس.

. وأخبر الله تعالى أن قوافل قريش تمرّ على آثار قوم لوط

مصبحين وبالليل.

. أقصى ما تصل قوافل قريش في رحلة الصيف لا يجاوزون

الشام.

. شعيب قال لقومه وما قوم لوط منكم ببعيد.

فقد تحدّد موقع مدين من خلال النصوص القرآنية من غزة إلى

الشمال منها، وليس هو في سيناء لسبب بسيط، وهو عندما عاد

---

<sup>518</sup>الصفات 133 . 138.

موسى إلى سيناء مع قومه بعد أن نجاهم الله من فرعون، كانت الأحداث فيما بعد بين موسى وقومه تجري في سيناء بالقرب من جبل الطور، الذي ذكره الله تعالى مرات كثيرة، ومعلوم بدلالة النصوص القرآنية أن جبل الطور يقع في سيناء، قال تعالى: {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَصَبْغٍ لِأَلْكَالَيْنِ} 519.

فهذه الآية حددت موقع الطور ومكانه على أنه في سيناء، ثم بعد ذلك تكرر كثيرا ذكر الطور مع موسى وقومه:

. في المناداة، قال تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} 520.

. في الميثاق، قال تعالى: {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} 521.

. في المواعدة، قال تعالى: {وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوَى} 522.

غير أن النص الذي يؤكد أن مدين خارج سيناء، وربما إلى الشمال من غزة أيضا قوله تعالى: {فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا} 523.

---

<sup>519</sup>المؤمنون 20.

<sup>520</sup>مريم 52.

<sup>521</sup>النساء 154.

<sup>522</sup>طه 80.

<sup>523</sup>القصص 29.

فموسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى الْأَجَلَ لِأَبِي زَوْجِهِ فِي مَدِينٍ، وَلَمَّا قَضَى هَذَا الْأَجَلَ سَارَ بِأَهْلِهِ فِي رِحْلَةِ الْعُودَةِ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى جَانِبِ الطُّورِ الَّذِي آنَسَ مِنْهُ النَّارَ.

وهو دليل على أن مدين ليست في سيناء، وإنما هي خارج سيناء بعكس اتجاه رحلة العودة لموسى إلى مصر مصحوبا بأهله، وعليه تمّ تحديد مكان مدين من خلال النصوص القرآنية، ولم نأت على ما ذكرته كتب الجغرافيا والبلدان في تحديد موقع مدين لأننا نعتمد النص القرآني في مجال بحثنا.

### مدين وموسى والرجل الصّالح:

لقد اصطَلَحنا على تسمية عمّ موسى أبي زوجته بالرجل الصّالح بدلالة النص القرآني الذي أورد ذلك مرهونا بالمشيئة عندما قال لموسى: { قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ فَإِنْ أَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصّٰلِحِينَ } 524.

فلا خلاف إذن في أنّ موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذا الرجل الصّالح متعاصران زمانا، ومكانا الذي هو (مدين) في فترة من هذا الزمن، ولا خلاف في أنّ موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو نبي مرسل من الله تعالى.

بقي من هذه المسألة إثبات نبوة الرجل الصّالح أو نفيها.

إذا أخذنا برأي من قال أنّ هذا الرجل الصّالح هو نبي الله شعيب، وقد اجتمع مع موسى في الفترة نفسها، فيلزم من هذا أن نقف على آيات تتحدث عن ذلك لأسباب كثيرة منها:

---

<sup>524</sup>القصص 27.

. أنّ اجتماع أكثر من نبي أو رسول في الفترة نفسها لا يقدر  
بنوة أحد منهم.

. عندما يجتمع أكثر من نبي أو رسول في فترة نجد القرآن  
يصرح بذلك.

. عندما يجتمع نبيان أو رسولان في المكان نجد الحديث والحوار  
بينهما يرقى إلى مستوى النبوة والرسالة مثل موسى وهارون عليهما  
الصلاة والسلام، كقول موسى لهارون وجواب هارون له في قوله  
تعالى: { قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ  
أَمْرِي قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا نَأْخُذُ بِبَلْحِيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ  
فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي } 525.

. اجتماع نبيان أو رسولان في الزمان، يعلم أحدهما بالآخر،  
ويُعلم به، مثل إبراهيم ولوط عليهما الصلاة والسلام، قال تعالى:  
{ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ  
إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ  
رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ  
وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ } 526.

بينما نفتقد هذا النوع من العلم، والمستوى من الحديث بين  
موسى صلى الله عليه وسلم، وبين الرجل الصالح، ولكن ربما الذين  
ذهبوا إلى أن هذا الرجل هو نبي الله شعيب، اعتمدوا أيضا على

---

<sup>525</sup> طه 92 . 94 .

<sup>526</sup> هود 74 . 77 .

حديث القصص بينهما قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} 527.

فمن الطبيعي أن هذا الرجل الصالح عندما علم من موسى صلى الله عليه وسلم، ما أخبر به عن فرعون وطغيانه، وصف فرعون وملائه بما فيهم، وأراد أن يطمئنه بالنجاة وفق ما يمليه العقل والمنطق، لأن فرعون ما كان لي جيش الجيوش ويقطع صحراء سيناء وصولاً إلى مدين من أجل أن موسى قتل رجلاً من العامة.

وأما من يقول أن المصريين وصلوا إلى فلسطين، ونحن نؤيد ذلك ولكن ليس سعياً في طلب موسى لأن الرجل الصالح قال لا تخف (من قدوم فرعون) فهذا أبعد ما يكون.

إن وصول المصريين إلى فلسطين كان صدام بين دولتين وصراع بين حضارتين، في معركة مجدو في سهل عامر بينهم وبين الكنعانيين، وليس طلباً لموسى صلى الله عليه وسلم أنه قتل رجلاً منهم.

ثم أن الذي يؤكد أن هذا الرجل ليس نبي الله شعيباً، عندما نقف على حال هذا الرجل، وعلى حال شعيب صلى الله عليه وسلم، من وصف القرآن الكريم لحال كل منهما.

فعندما ورد موسى صلى الله عليه وسلم ماء مدين وجد امرأتين تذودان حيث قال تعالى: {قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى هُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} 528.

---

527القصص 25.

528القصص 23، 24.

فهذا الرجل شيخ كبير ليس له من العصبة من يسقي له غنمه، مما يضطره إلى الاعتماد على ابنتيه في سقي أغنامه وربما رعيها، إذ لو كان له عصبة ما، أبناء أو قبيلة أو عشيرة لأوكل إليهم ذلك، أو لضمّ غنمه إلى ماشيتهم على الأقل.

وأما شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد قال له قومه: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} 529.

فقوم شعيب يرونه فيهم ضعيفا، ولكن هذا لا يكفي لإيذائه بالرجم أو غيره، ذلك أن خلفه عصبة أشداء، ويبدو أن منهم على دينه ممن اتبعه وأن رهط شعيب، يجنون شعيبا، فلما اجتمع مناعة رهطه وحبهم له، لم يجرأ قومه على إيذائه لأن هيبة رهطه استمكنت من نفوس قومه فامتنعوا عنه، فلو كان هذا الرجل هو شعيب لكفوا ابنتيه صدور الماء ووروده لماشيتهم، وهذا يعني أنه ليس شعيبا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

### الزّمن الفاصل:

إنّ شعيبا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما أراد أن يسوق العبرة لقومه من أجل الاتعاظ والعدول عما هم عليه من البخس والتطيف وأكل أموال الناس بالباطل، ذكرهم بالأقوام السابقة عليهم ممن عصوا والمصير الذي آلوا إليه من الأقدم نزولا إلى أقرب قوم لهم زمنا، حيث قال: {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} 530.

---

<sup>529</sup>هود 91.

<sup>530</sup>هود 89.

فقد تسلسل معهم من قوم نوح إلى قوم هود إلى قوم صالح، ثم قال وما قوم لوط منكم ببعيد، والبعد يحمل معنيين، وقد بيّنا البعد المكاني، وهنا نبين البعد الزمني.

وطبيعي أنّ البعد الزمني هو المقصود أكثر من البعد المكاني لأنّ البعد الزمني هو الذي يحمل الخبر العبرة من أجل الاتعاض، وليس المكان، فإن كان نوح وهود وصالح وأقوامهم بعيدون عنكم ويفصل بينكم وبينهم زمن طويل، فإن قوم لوط ليسوا منكم ببعيد.

ومعلوم أن لوطا صلّى الله عليه وسلّم قد عاصر إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، فهم ليسوا ببعيدين عن إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم.

وهنا ننتقل خطوة أخيرة في اتجاه آخر، وهي أن ذرية النبوة التي بدأت بإبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، وصولا إلى موسى يفصل بينهما أنبياء كثيرون، ولذا نأتي إلى هذه السلسلة المصطفاة ونذكرها نزولا:

- إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم.

- إسحاق صلّى الله عليه وسلّم.

- يعقوب صلّى الله عليه وسلّم.

- يوسف صلّى الله عليه وسلّم.

ولقد قال مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه، لقومه: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ

بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ  
مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ {531.

فَقَوْلُهُ: حَتَّى إِذَا هَلَكَ يُوسُفُ قَالَ آلُ فِرْعَوْنَ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ  
بَعْدِهِ رَسُولًا، وَهِيَ دَلَالَةٌ عَلَى طُولِ الْفِتْرَةِ بَيْنَ يُوسُفَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا  
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

بَيْنَمَا نَجَّدَ شُعَيْبًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لِقَوْمِهِ (وَمَا قَوْمُ  
لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ) وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ هَذَا الْبَعْدَ دَلَالَةٌ عَلَى قَرَبِ الْعَهْدِ بِهِمْ،  
وَلُوطٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مُعَاوِرًا لِإِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،  
بَيْنَمَا نَجَّدَ بَيْنَ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ أَرْبَعَةَ أَنْبِيَاءَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ  
أَجْمَعِينَ مَا نَدْرِي الْفِتْرَةَ بَيْنَ نَبِيِّ وَآخَرٍ، إِنْ كَانَتْ قَصِيرَةً بَيْنَ أَبْنَاءِ  
إِبْرَاهِيمَ الصَّلْبِ مِنْ إِسْحَاقَ إِلَى يُوسُفَ، إِلَّا أَنَّهَا مِنْ يُوسُفَ إِلَى  
مُوسَى هِيَ مَدَّةٌ طَوِيلَةٌ جِدًّا، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا  
مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ  
عَلَيْكَ} {532.

فَمَنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ مَدَى الْفَاصِلِ الزَّمَنِيِّ بَيْنَ مُوسَى وَشُعَيْبٍ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِمَا، وَعَلِيِّ: فَإِنَّ صَاحِبَ مُوسَى لَيْسَ نَبِيَّ اللَّهِ شُعَيْبًا صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ أَجْمَعِينَ.

وَلِذَا، نَحْنُ نَقُولُ:

إِنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ مُوسَى فِي مَدِينِ، لَيْسَ نَبِيَّ  
اللَّهُ شُعَيْبًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

<sup>531</sup>غافر 34.

<sup>532</sup>غافر 78.

## رسالة شعيب

انتشر النَّاس بين جنبات الأرض يبحثون لهم عن معاش، فتجمعوا هنا وهناك بحسب ما يريدون وما يطمحون، ذلك أن النسق الإنساني قد تباينت فيه الرؤى فلم تكن كلّها على وتيرة واحدة، فقد حصل اختلاف بينها، هذا الاختلاف تحقّق فيه الاعتقاد والسلوك البعيد عن منهج الله تعالى، هذا الابتعاد لم يكن له أن يستمر فلا بدّ من عودة النَّاس إلى جادة الصواب، ذلك أن الغاية من خلقهم هو عبادة الله تعالى مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} {533}، هذه العبادة لا تقتصر على فروض الطاعة فقط كالصلاة مثلا، بل هي أمر أكبر من ذلك، فالعابد يجب أن يتمثل لأوامر الله تعالى ونواهيه كي يحقّق من خلالها مرضات ربه جلّ جلاله.

إنّ كلّ الرسالات السماوية جاءت لكي تصحح ما انحرف وتعيد الأمور إلى ما كانت عليه، فالانحراف الذي وقع يجب أن يقوم وهذه هي مهمة الرّسول المرسل، ونحن بصدد رسالة النبي شعيب صلّى الله عليه وسلّم نرى أن دعوته تشعبت، فإنّ دعوة شعيب صلّى الله عليه وسلّم كانت أوسع من دعوة الرّسل من قبله هوّد وصالح عليهم السّلام إذ كان فيها تشريع أحكام فرعيّة ذلك أنّها لم تعالج قضية واحدة، بل كانت قضايا متعددة، فقد انغمس النَّاس في الكفر والظلم، وأصبحت حياتهم الاقتصادية تسير في نحر من الحرام ليس له بداية ولا نهاية، هذه الأنهار المتعددة لا يمكن تركها تجري دون وقفها وان لم تقف فيجب تخفيفها حتى لا يبقى الكفر والمعصية يدبون في

---

<sup>533</sup>الذاريات 56 – 58.

الأرض كما تدب الحياة في شرايين الناس، ولهذا جاءت دعوة شعيب صلى الله عليه وسلم من أجل الإصلاح وان لم يتحقق الإصلاح فتكون الدعوة حجة عليهم يوم القيامة، إذ يقول تعالى: { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } 534.

يقول تعالى: { كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } 535، هنا تبدأ الملامح الأولى لدعوة النبي شعيب صلى الله عليه وسلم، فدعوته صلى الله عليه وسلم اصطدمت بقوم:

. متكبرين .

. معاندين .

. رافضين .

. قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة .

إن هذه السمات تنبأ بان دعوة شعيب صلى الله عليه وسلم ستصطدم بعقبات عدة، ذلك أن العقول المخاطبة تسير وفق توجه دينوي، فلم تحاول أن تقف على دعوة شعيب صلى الله عليه وسلم وتنظر ما فيها، والنظرة التي نقصدها نظرة:

---

<sup>534</sup> الأنعام 130 – 131 .

<sup>535</sup> الشعراء 176 – 180 .

. تفحص .

. تبيان .

. مراجعة .

هذه النظرة لم تتحقق، ذلك أن فكرهم المعرفي قابع في زاوية دنيوية لا يغادرها ولهذا أن تساؤلاتهم كانت لا تغادر ما يكون أمامهم، فلم تسعفهم أي ذاكرة لأنهم لم يقفوا على كلام شعيب صلى الله عليه وسلم وقفت تأمل، ففي كلامه كثير من الإحالات التي تحاول أن توقظ تلك الذاكرة إلا أنها تأتي إلا أن تبقى في سبات دائم.

يقول الله تعالى: ﴿وَالِى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ 536

هذه هي دعوة شعيب صلى الله عليه وسلم، دعوة متفرعة طرقت أبوابا كثيرة من أبواب الابتعاد عن أوامر الله تعالى ونواهيه، فكان الشكل الواقع شكلا مغايرا لما يجب أن يكون عليه هؤلاء القوم، فالنعمة أسبغت عليهم وجعلتهم من المتقدمين على الناس في الجانب الاقتصادي، والذي نعتقده أن الخروج عن الحق والعدل في معاملاتهم التجارية لم يتحقق لغيرهم، فلو تحقق للجميع هذا الخروج لا يتحقق الخسارة للجميع، بمعنى أن النقص في الميزان والمكيال لو كان عاما للكل لم يتحقق فيه النقص الحاصل، إنما يتحقق النقص للجميع وبذلك يسود النقص وبذلك يكون الظلم أعم وأشمل للجميع فلا

يكون هناك لا غالب ولا مغلوب ؛ إنما الخطاب القرآني يدلل وبشكل أكيد أن البخس لم يتحقق من غيرهم إنما تحقق منهم فقط، إذ يقول تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ} هذه الآية الكريمة تطرح الأمر وفق سياق واضح وهو:

. كان النداء مخصوصا لقومه.

. بدا بالتوحيد لأنّ رأس الدعوات هو التوحيد.

. انتقل بعد ذلك إلى النقص في المكيال والميزان بأسلوب العطف الذي يقتضي المغايرة، إلا إن هذه المغايرة تمنح النص المشاركة في الخطاب فلم يحدد بخطابه إلى قوم غير قومه أو إلى أناس غيرهم.

. والخير الذي هم فيه يكون مانعا لهم بالاستمرار بالنقص في المكيال والميزان، لان وجود النعمة يكون عاملا كبيرا في إقبال الناس نحو الحلال دون الحرام.

. إنّ نظرتهم إليهم أنهم بخير وهذا من باب التخصيص أوجب أن يكون غيرهم ليس في خير، وهذا يمنحهم جانبا اقتصاديا كبيرا دون غيرهم.

. لو كان الجميع كلّهم بخير لماذا يتحقق البخس؟ وان تحقق البخس للجميع فهل يتحقق النقص للجميع؟

إنّ دعوة النبي شعيب صلى الله عليه وسلم اكتسبت بعدا اقتصاديا، إذ رسمت نسقا مستمرا استخدمه الفاسدون في محاولة الحصول على قدر كبير من المال أيا كان جنسه، هذا الفساد استشرى بين كثير من الناس، وسبب استشرائه انه يأخذ شكل الحيلة والخديعة

التي لم تجد لها مكانا في تفكير النَّاس عندما يقدمون على شراء أيّ شيء، فهنا تكمن خطورة الأمر الذي بصدده دعوة شعيب صَلَّى اللهُ عليه وسلّم، فالنقص الذي يحصل يقلل من أقوات النَّاس أيّا كانت ويمنح مدخراتهم نقصا مستمرا، وقد تكون نتيجة أمرهم إذا استمر هذا النقص أن يعودوا إلى درجة الصفر التي لا يكون بعدها أي خير لهم.

إنّ بداية رسالة شعيب صَلَّى اللهُ عليه وسلّم مع قومه أهل مدين حملة شكّل القرابة، يقول تعالى: (وإلى مدين أخاهم شعيبا) هذا الشكّل يمنح دعوته بعدا مهما، فعند الوقوف عليها نجد أن دعوته صَلَّى اللهُ عليه وسلّم تمثل فيها جانبان:

الجانب الأوّل: خاص بعبادة الله تعالى وتوحيده، (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) أي وخذوا الله تعالى ليس لكم إله تعبدونه بحقّ إلا هو إذ هو ربكم الذي خلقكم ورزقكم ويدبر أمركم.

الجانب الثاني: يتعلق بأمر دنيوي وهو:

أ . قوله تعالى: (ولا تنقصوا المكّيال والميزان) أي لا تنقصوا المكّيال إذا كلّتم لغيركم، والميزان إذا وزنتم لغيركم.

ب . قوله تعالى: (ولا تبخسوا النَّاس أشياءهم)، أي؛ تنقصوه حقوقهم وما هو لهم بحقّ من سائر الحقوق.

ت . قوله تعالى: (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) أي؛ ولا تسعوا في الأرض بالفساد وهو شامل لكلّ المعاصي والمحرمات.

هذه الجوانب تمثل الانحراف الذي يسير فيه قوم شعيب صَلَّى اللهُ عليه وسلّم، إذ تمثل فيه العتبة التي يكون من خلالها الخروج عن مرضات الله تعالى.

إنّ رسالة شعيب صلى الله عليه وسلّم تمثل فيها وحدة دعوات الرُّسل الكرام عليهم الصّلاة والسّلام وهي البداية بتوحيد الله تعالى أوّلاً ثم الأمر والنهي لإكمال الإنسان. وإسعاده بعد نجاته من الخسران. كما أنّها طرحت أمراً مهماً وهو أن حرمة نقص الكيل والوزن أشد حرمة. فلا بدّ من الرضا بالحلال وإن قل، وسخط الحرام وإن كثر.

كما أنّ البخس في حقوق النّاس أيا كانت في الأجر أو الأسعار هو حرام واضح فيه تسلب الحقوق التي كتبت لها أن تتحقّق. وحرمة السعي الفساد في الأرض بأيّ نوع من الفساد وأعظمه تعطيل شرائع الله تعالى، فهذه الشرائع إن عطلت يكون الفساد هو السمة التي تسود المجتمع، فيصبح الحقّ باطلاً والباطل حقّاً، فتتعدّم الحياة الكريمة التي أرادها الله تعالى للناس جميعاً.

يقول تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} 537.

لجاء قوم شعيب صلى الله عليه وسلّم إلى الصّلاة دون غيرها، وهذا يطرح أنّهم لم يجدوا شيئاً يتكفوا عليه في الصد عن دعوته، فالبحث عن أيّ إحالة يتطلب فكراً واعياً يغربل كلّ ما هو حولهم

سواء على الجانب المادي أم على الجانب الذهني، ذلك أن مجابهة الدعوة يحتاج إلى حجج أيا كانت فعن طريقها يكون الوقوف ولو مؤقتا تجاه ما يطرح أمّامها، إن الصّلاة تتمثل فيها العبادة أو هي أحد صور العبادة، فنظرهم إليه صلّى الله عليه وسلّم وهو يصلي دائما أكسبتهم إصرارا على المواجهة، فلم يكتفوا بذلك بل جعلوا الصّلاة مؤثرا مهما على عقله فبها كان الأمر بترك عبادتهم والتصرف في أموالهم.

ظهرت إشارات الاستهزاء بشعيب صلّى الله عليه وسلّم، فقد عمدوا إلى وصفه بالحلیم الرشید، هذه الصفات لم يردوا حقيقتها بل أرادوا الاستهزاء به صلّى الله عليه وسلّم وذلك أن:

. الحلم . ضد . الطيش .

. الرشيد - ضد . السفه .

وهنا نجد أن المدح لم يكن له مكانا في خطابهم، بل عمدوا إلى الاستهزاء بهذه الطريقة التي تنم عن سفاهتهم واستخفافهم بالدعوة، أمّا موقف شعيب صلّى الله عليه وسلّم فقد كان موقف الداعي الذي يرى الأمور بعين ويعالجها بالعين الأخرى.

أقر قومه بأنه حلیم رشید، وأمّا أقروا له بذلك لأنه كان مشهورا فيما بين الخلق بهذه الصفة، فكأنه صلّى الله عليه وسلّم قال لهم إنكم تعرفون من حالي أني لا أسعى إلا في الإصلاح وإزالة الفساد والخصومة، فلما أمرتكم بالتوحيد وترك إيذاء الناس، فاعلموا أنه دين حقّ وأنه ليس غرضي منه إيقاع الخصومة وإثارة الفتنة، فإنكم تعرفون أني أبغض ذلك الطريق ولا أدور إلا على ما يوجب الصلح والصلاح بقدر طاقتي، وذلك هو الإبلاغ والإنذار، وأمّا الإيجار على الطاعة

فلا أقدر عليه، ثم إنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكد ذلك بقوله: {وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} 538، وبين بهذا أن توكُّله واعتماده في تنفيذ كلِّ الأعمال الصالحة على توفيق الله تعالى وهدايته.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَوَكَّلْتُ إِشَارَةٌ إِلَى مَحْضِ التَّوْحِيدِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوَكَّلْتُ يَفِيدُ الْحَصْرَ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَكَيْفَ وَكَلَّ مَا سِوَى الْحَقِّ سُبْحَانَهُ مِمَّنْ لِدَاتِهِ فَإِنْ بَدَاتِهِ، وَلَا يَحْصُلُ إِلَّا بِإِيجَادِهِ وَتَكْوِينِهِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَجْزِ التَّوَكُّلُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَمَّا قَوْلُهُ: {وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} فَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى مَعْرِفَةِ الْمَعَادِ، وَهُوَ أَيْضًا يَفِيدُ الْحَصْرَ لِأَنَّ قَوْلَهُ: {وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا مَرْجِعَ لِلْخَلْقِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا ذَكَرَ شَعِيبَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "ذَاكَ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ" الْحَسَنَ مَرَّجَعَتَهُ فِي كَلَامِهِ بَيْنَ قَوْمِهِ 539.

قرأ شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقول قومه فعمد إلى أمرين:

الأمر الأول: هو القول بالإصلاح.

إنَّ القولَ بالإصلاح يدلُّ على وجود تغيير حاصل خرج عن نوااميس الحياة التي أقرها الله تعالى، فالعودة إلى تلك النوااميس يتطلب مراجعة فعلية لكلِّ الأنساق التي يقف عندها الخروج، وهنا تكمن عملية الإصلاح، لأن تحديد الأمر المراد إصلاحه هو البداية لخلق إشارة البحث عن وجود الخطأ. ولهذا، نجد في خطابهم أنهم ينكرون عليه نهيهم عن عبادة الموروث التي كان يعبدها آباؤهم من قبلهم

---

<sup>538</sup> هود 88.

<sup>539</sup> تفسير الرازي، ج 8، ص 458.

كما ينكرون عليه نهيهم عن نقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم وأمرهم إياهم بالتمسك بالحق والعدل في ذلك، ينكرون عليه نهيهم وأمرهم إياهم وينسبون ذلك إلى كثرة صلاته فهي التي في نظرهم قد أصابته بضعف العقل وقلة الإدراك.

الأمر الثاني: التذكير بقوم لوط صلى الله عليه وسلم.

هذا الأمر في غاية الأهمية ففيه تكمن حالة استرجاعية لذاكرتهم سواء أكانت على مستوى:

. الحضور.

. أم الغياب.

ذلك أنّ الصورة المتحققة لعذاب قوم لوط صلى الله عليه وسلم تمثل واقعا متحققا لعقاب الله تعالى، فهذه الصورة قابلة للتكرار وفق شكل الرفض الذي يتحقق منهم، لان التذكير هو باب من أبواب الدعوة ففيه يكون المخاطب ذو تفكير واحد لا يحاول أن يدور بفكره بحركات مختلفة تعينه على تقبل ما هو مطروح أمامه ذلك أن التذكير يكمن فيها إعادة البحث عن مرتكبات جديدة يكون فيها الطرح مستندا إلى صورة سابقة متحققة على مستويات عدة، وهذا يمنح الدعوة بعدا جديدا وإطارا جديدا، فمسح غبار الماضي يظهر حقيقة كثير من الأمور التي دخلت طور النسيان أو قد دخلت طور التناسي.

إنّ هذا السياق لم يكن خاصا بدعوة شعيب صلى الله عليه وسلم، إذ يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ

تُولُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ {540}، وقوله تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ إِذْ جَاءَهُمُ الرَّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} {541}، هذا التذكير يتشكل منه أحد أهم أساليب الدعوة، فهو يدخل في باب الترهيب، ذلك أن النفس الإنسانية يتنازعها:

. الترهيب .

. الترغيب .

والترغيب في بعض الأحيان لا يستطيع أن يطرق أبواب النفس ليدخل إليها مما يكون للترهيب المجال الأوسع في الدخول إلى سبر أغوارها ومحاولة زعزعتها، وإحداث التغيير الكبير المراد.

عليه: تكون دعوة شعيب صلى الله عليه وسلم قد سلكت أكثر من مسلك، فطرح الأمور على حقيقتها وتبيان ما فيها من أوجه يتمثل فيها الخروج السافر عن أوامر الله تعالى ونواهيه، هذا من جانب، ومن جانب آخر كان التذكير هو أحد المتكآت التي اتكأ عليها شعيب صلى الله عليه وسلم، فهذه العقول لا بد من زجرها والوصول بها إلى جادة الصواب كي يتحقق الخلاص الذي هو رسالة كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إذ يقول تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا

---

<sup>540</sup> غافر 30 – 33.

<sup>541</sup> فصلت 13 – 14.

هُم يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا  
يَفْسُقُونَ {542}.

عمد شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى طرح دعوته بأسلوب  
فكري، فجعل ما يريد أن يدعوهم على شكل حزمة ثم يقوم بنشرها  
أمامهم كي يحول تحريك عقولهم إلى ما يُطرح أمامهم، إذ يقول تعالى:  
{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا  
وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا  
اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} 543 "وبَيِّنَةٌ  
شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي جاءت في كلامه: يجوز أن تكون  
أطلقت على الآية لمعجزة أظهرها لقومه عرفوها ولم يذكرها القرآن،  
كما قال ذلك المفسرون، والأظهر عندي أن يكون المراد بالبيِّنَة حجة  
أقامها على بطلان ما هم عليه من الشُّرك وسوء الفعل، وعجزوا عن  
مجادلته فيها، فقامت عليهم الحجة مثل المجادلة التي حكيت في سورة  
هود فتكون البيِّنَة أطلقت على ما يُبيِّن صدق الدَّعوى، لا على  
خصوص خارق العادة، أو أن يكون أراد بالبيِّنَة ما أشار إليه بقوله:  
{فاصبروا حتى يحكم الله بيننا} أي يكون أنذرهم بعذاب يحلّ بهم إن  
لم يؤمنوا، كما قال في الآية الأخرى "544".

ويمكن القول في البيِّنَة أنها:

. إنَّ شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على برهان وعلم يقيني  
بألوهية الله تعالى، ووعدته لأوليائه ووعدته لأعدائه.

---

<sup>542</sup> الأنعام 48 – 49.

<sup>543</sup> هود 88.

<sup>544</sup> التحرير والتنوير، ج 5 ص 372.

. أنّ الله تعالى رزقه رزقا حسنا أي حاللا طيبا فهل يليق به أن يتنكر لهذا الحق والخير ويُجاريهم على باطلهم. اللهم لا.

. وشيء آخر وهو أنني ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه فإني لا أمركم بتوفية الكيل والوزن وأنقصها ولا بترك عبادة الموروث، ولا أنهاكم عن كسر الدراهم وأكسرها فأكون كمن يأمر بالشيء ولا يفعله، وينهى عن الشيء ويفعله فيستحق اللوم والعتاب ونزع الثقة منه، وعدم اعتباره فلا يؤخذ بقوله ولا يعمل برأيه.

وأمر آخر هو أنني ما أريد بما أمرتكم به ولا بما نهيتكم عنه إلا الإصلاح لكم ما استطعت ذلك وقدرت عليه. وما توفيتني في ذلك إلا بالله ربّي وربكم عليه توكلت في أمري كلّه وإليه وحده أنيب أي أقبل بالطاعة وأرجع بالتوبة. ثم ناداهم محذرا إياهم من اللجاج والعناد فقال: ويا قوم لا يجرمنكم أي لا يحملنكم شقائي أي خلافي على الاستمرار في الكفر والعصيان فيصيبكم عذاب مثل عذاب قوم نوح وهو الغرق أو قوم هود وهو الريح المدمرة أو قوم صالح وهو الصيحة المرجفة ﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْ طُؤِ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾<sup>545</sup>، وذلك في الزمان والمكان، وقد علمتم ما حلّ بهم من دمار وخراب. أي؛ لا يحملنكم شقائي وعداوتي على أن ينزل بكم العذاب، واستغفروا ربكم ممّا أنتم عليه من الشرك والمعاصي، ثم توبوا إليه بالطاعة، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُؤِدٌ﴾<sup>546</sup>؛ فلا يعذب من تاب إليه ودود يحب من أناب إليه.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

---

<sup>545</sup> هود 89.

<sup>546</sup> هود 90.

1 . التعريض القريب يُعطي القذف الصريح.

2 . كراهية إتيان الشيء بعد النهي عنه، وترك الشيء بعد الأمر به والحث عليه.

3 . كراهية اللجاج والعناد لما يمنع من الاعتراف بالحق والالتزام به.

4 . وجوب الاستغفار والتوبة من الذنوب.

5 . وصف الرب تعالى بالرحمة والمودة 547.

يقول تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ} 548

إنّ هذه الآيات الكريمة تعرض طريقة قوم شعيب صلى الله عليه وسلم في محاولة صد دعوته بأسلوب ينم عن:

. احتيال.

. مغالطة.

<sup>547</sup>أيسر التفاسير، ج 2، ص 187.

<sup>548</sup>هود 91 – 95.

. هروب .

. ادعاء عدم الفهم .

. جعلوا كَلَامَهُ المَشْتَمَلِ عَلَى فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف إذ ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل ولم يجدوا إلى محاورته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبيلا من قبيل التخليط والهديان الذي لا يفهم معناه ولا يدرك فحواه، وقيل: قالوا ذلك استهانة به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يقول الرجل لمن لا يعبأ به: لا أدري ما تقول، وليس فيه كثير مغايرة للأول، ويحتمل أن يكون ذلك لعدم توجههم إلى سماع كَلَامِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمزيد نفرتهم عنه أو لغباوتهم وقصور عقولهم 549.

ثم بعد ذلك يعدلون إلى أسلوب القوّة، يقول تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} 550.

أَنَّكَ تقول مَا لَا نصدق به. وهذا مقدمة لإدانته واستحقاقه الذم والعقاب عندهم في قولهم: (ولولا رهطك لرجمناك)، ولذلك عطفوا عليه (وإنّا لنراك فينا ضعيفا) أي؛ وإنك فينا لضعيف، أي غير ذي قوّة ولا منعة. فالمراد الضعف عن المدافعة إذا راموا أذاهُ وذلك ممّا يُرى لأنّه تُرى دلائله وسماته.

وذكر فعل الرؤية هنا للتّحقيق، كما تقدّم في قوله تعالى: {ما نراك إلاّ بشرا مثلنا وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا} 551 بحيث

---

<sup>549</sup> تفسير الالوسي، ج 8، ص 343.

<sup>550</sup> هود 91.

<sup>551</sup> هود 27.

نزّله منزلة من تُظنون أنّهم لا يرون ذلك بأبصارهم فصرحوا بفعل الرؤية. وأكّده (إنّ) ولأمّ الابتداء مبالغة في تنزيه منزلة من يجهل أنّهم يعلمون ذلك فيه، أو من ينكر ذلك، قولهم: {وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ} وهو المقصود ممّا مُهدّ إليه من المقدمات، أي لا يصدّنا عن رجمك شيء إلاّ مكان رهطك فينا، لأنك أوجبت رجمك بطعنك في ديننا.

والرهط إذا أضيف إلى رجل أريد به القرابة الأدنّون لأنهم لا يكونون كثيرا، فأطلقوا عليهم لفظ الرهط الذي أصله الطائفة القليلة من الثلاثة إلى العشرة، ولم يقولوا قومك، لأنّ قومه قد نبذوه. وكان رهط شعيب صلّى الله عليه وسلّم من خاصة أهل دين قومه فلذلك وقّروهم بكفّ الأذى عن قريبتهم لأنهم يكرهون ما يؤذيه لقرابته. ولولا ذلك لما نصره رهطه لأنهم لا ينصرون من سخطه أهل دينهم. على أنّ قرابته ما هم إلاّ عددٌ قليل لا يُخشى بأسهم ولكن الإبقاء عليه مجرد كرامة لقرابته لأنهم من المخلصين لدينهم<sup>552</sup>.

ما زال السياق في الحديث عن شعيب وقومه إنه بعد الحوار الذي دار بين شعيب وقومه يقول ويقولون وكان صلّى الله عليه وسلّم فصيحاً مؤيداً من الله تعالى فيما يقول فأفحمهم وقطع الحجّة عليهم لجأوا إلى أسلوب القوّة والتهديد بل والشتم والإهانة وكان هذا منهم إيذانا بقرب ساعة هلاكهم فقالوا فيما قصّ تعالى عنهم في هذه الآيات (يا شعيب ما نفقه كثيرا ممّا تقول)، فق نادوه لسمع منهم ثمّ أعلموه أنّهم لا يفقهون كثيرا من كلامه مع أنه يخاطبهم بلغتهم، ولكنه الصلف والكبرياء فإن صاحبها لا يفهم ما يقوله الضعفاء. وقالوا له: وإنا لنراك فينا ضعيفا وهو احتقار منهم له، وقالوا: ولولا رهطك

---

<sup>552</sup>التحرير والتنوير، ج 7، ص 187.

لرجمناك أي ولولا وجود جماعة من عشيرتك نحترمهم لرجمناك أي لقتلناك رميا بالحجارة، وأخيرا وما أنت علينا بعزير أي بممتنع لو أردناك. وهنا رد شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم بقوله فقال ما أخبر تعالى به عنه (قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريًا) أي غير مبالين بأمره ولا نهيهِ كما جعلتموه وراء ظهوركم لا تلتفون إليه ولا تسمعون منه ولا تطيعونه، يا ويلكم (إن ربي بما تعملون محيط) أي؛ علمه فأعمالكم معلومة له لا يخفى منها عليه شيء ولسوف يجزيكم بها عاجلا أو آجلا وقابل تهديهم له بمثله فقال لهم (ويا قوم اعملوا على مكانتكم) أي على تمكنكم من عملكم (إني عامل) أي على تمكني من العمل الذي أعمله (سوف تعلمون بعد من يأتيه عذاب يخزيه) يذله ويهينه ومن هو كاذب منا فيعذب ويخزي ويذل ويهان أيضا وعليه فارتقبوا يومذاك (وارتقبوا فإني معكم رقيب)، منتظر قال تعالى: (ولما جاء أمرنا)، أي؛ بالعذاب نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا أي بفضل منا ونعمة من عندنا، (وأخذت الذين ظلموا)، أي بالشرك والعصيان (الصحية)، أي صحية العذاب التي ارتجفت لها قلوبهم وانخلعت فبركوا على ركبهم جاثمين هلكي لا يتحركون. قال تعالى في بيان حالهم (كأن لم يغنوا فيها)، أي؛ كأن لم يقيموا في تلك الديار ويعمرها زمنا طويلا. ثم لعنهم فقال: {ألا بعدا لمدين} بعدا لها من الرحمة وهلاكها، كما بعدت قبلها ثمود وهلكت.

.553

### متضمنات رسالة شعيب

تتضمن رسالة شعيب أمور منها:

1 . التوحيد:

<sup>553</sup>أيسر التفاسير، ج 2، ص 186.

يقول تعالى: {وإلى مدینِ آخاهم شعیبًا قال یا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غیره قد جاءتکم بینة من ربکم فأوفوا الكیل والمیزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تُفسدوا فی الأرض بعد إصلاحها ذلكم خیر لكم إن كنتم مؤمنین ولا تفعدوا بكل صراطٍ تُوعدون وتصدون عن سبیل الله من آمن به وتبعونها عوجًا واذكروا إذ كنتم قليلًا فكثرکم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى یحكّم الله بیننا وهو خیر الحاکمین} 554. هذه الآيات الكريمة تخللتها الدعوة إلى توحيد الله تعالى، والتوحيد هو المقدمة في كل دعوات الأنبياء عليهم الصلوة والسلام، ذلك أن تصحيح الاعتقاد هو رأس الهرم، إذ يقول تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فی الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبین} 555. لقد بین الله للأمم على السنة الرسل صلی الله عليهم وسلم أنه يأمرهم بعبادته واجتناب عبادة الأصنام؛ فمن كل أمة أقوام هداهم الله فصدقوا وآمنوا، ومنهم أقوام تمكنت منهم الضلالة فهلكوا. ومن سار في الأرض رأى دلائل استئصالهم.

والطاغوت: جنس ما يعبد من دون الله من الأصنام. وقد يذكرونه بصيغة الجمع، فيقال: الطواغيت، وهي الأصنام. والتعبير في جانب الضلالة بلفظ حقت عليهم دون إسناد الإضلال إلى الله إشارة إلى أن الله لما نهاهم عن الضلالة فقد كان تصميمهم عليها إبقاء لضلالتهم السابقة فحقت عليهم الضلالة، أي ثبتت ولم ترتفع.

<sup>554</sup>الأعراف 85 – 87.

<sup>555</sup>النحل 36.

وفي ذلك إيماء إلى أنّ بقاء الضلالة من كسب أنفسهم؛ ولكن ورد في آيات أخرى أن الله يضلّ الضالّين، كما في قوله: { وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأْتَمَّا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ }<sup>556</sup>، وقوله عقب هذا { فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ }<sup>557</sup>، على قراءة الجمهور، ليحصل من مجموع ذلك علم بأن الله كوّن أسبابا عديدة بعضها جاء من توالد العقول والأمزجة واقتباس بعضها من بعض، وبعضها تابع للدعوات الضالّة بحيث تهيأت من اجتماع أمور شتى لا يحصيها إلا الله، أسباب تامة تحول بين الضالّ وبين الهدى. فلا جرم كانت تلك الأسباب هي سبب حقّ الضلالة عليهم، فباعتبار الأسباب المباشرة كان ضلالهم من حالات أنفسهم، وباعتبار الأسباب العالية المتوالدة كان ضلالهم من لدن خالق تلك الأسباب وخالق نواميسها في متقادم العصور. فأفهمهم<sup>558</sup>.

إنّ دعوات الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام تضمنت قضية توحيد الله تعالى توحيداً كاملاً خالصاً من الشرك في جميع صورته، وقد بينت النصوص القرآنية أن التوحيد يتناول ثلاث مسائل أساسية:

أ . توحيد الله تعالى في ربوبيته وأنه تعالى وحده الخالق المالك المدبر للكون وشئونه.

ب . توحيدة تعالى -ترتيباً على ما سبق- في صفاته التي تجب له وتليق بعظمته وجلاله وكذلك توحيدة في أسمائه التي سمي بها نفسه من أسماء حسنى تتضمن كماله وجلاله.

---

<sup>556</sup> الأنعام 125.

<sup>557</sup> النحل 137.

<sup>558</sup> تفسير التحرير والتنوير، ج 8، ص 43.

ج . إفراده تعالى بالعبادة حتى لا يتخذ معبودًا سواه بأي وجه من وجوه العبادة.

إنّ دعوة شعيب صلّى الله عليه وسلّم تشكّلت من أمور عدة، فلم تكن دعوته صلّى الله عليه وسلّم لأمر واحد يكمن فيه التحقّق؛ إنّما كانت دعوته ذو أذرع متعددة تحاول الإصلاح في قضايا عدة إلا أنّ قضية التوحيد كانت هي البداية، ذلك أنّ العبادة التي أمر الله بها لا تسمى عبادةً إلا مع توحيد الله تعالى، فلا تصح العبادة مع الشرك، ولا يوصف أحد بأنه عبد لله تعالى إلا مع تحقّيقه التوحيد، وإفراد الله تعالى وحده بالعبادة، فمن عبّد الله تعالى وأشرك معه غَيْرَهُ فليس عبداً لله.

فتوحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة لله وعدم الإشراك به، هو الشرط في قبول العبادة عند الله، ففي حالة تحقّق العبادة يدخل الإنسان ضمن ثنائية:

. القبول.

. الرفض.

فأعماله تدخل شرع الله تعالى كي يتحقّق من خلاله:

. الثواب.

. العقاب.

هذا السياق يمنح دعوة الأنبياء والرُّسل عليهم الصلّاة والسّلام ومن بينهم شعيب صلّى الله عليه وسلّم أن تكون مقدّمة دعوتهم في الدعوة إلى عبادة الله تعالى، فليس من المعقول أن يدعو

الرّسول أو النبي إلى الإصلاح ولم تكن هناك مرجعية للإصلاح تكون هي المتكأ الذي يستند عليه في طرح ما يريد أن يصححه.

ولهذا، نرى أن دعوة شعيب صلّى الله عليه وسلّم لم يكن سياق الطرح فيها بداية عن قضية التطفيف بالميزان أو بخس أشياء الناس؛ إنّما كان التوحيد هو البداية والتي ينساب بعدها بقية القضايا التي يتشكل منها أسباب الإصلاح.

## 2. الدعوة إلى الإيفاء بالكيل:

يمثل الجانب الاقتصادي الركيزة الأساسية لكلّ الشعوب فبه تسيير الحياة ضمن نمط معروف يتحقّق من خلاله العدالة في التعامل، وهذا الجانب إذ ما تحقّق فيما يريده الله تبارك وتعالى يُرى فيه أحد أوجه العدالة فضلا عن الجوانب الأخرى إلا أن الانحراف البشري يحاول أن يمزق مختلف الأنماط في سبيل أن يستل حقوق الآخرين ويمنحها له دون أدنى تفكير بما تؤوّل إليه النتيجة، ليس على مستواه هو فقط بل على مستوى الجميع، وبذلك تكون النتيجة فيها تداعيات خطيرة تشظي الناس في أفكارهم ومعتقداتهم وأمالهم ممّا يمنح الرذيلة مساحة واسعة من الانتشار.

إنّ دعوة الله تعالى تجري وفق نمط التغيير الذي يجعل الأمور تسيير وفق عملية قلب لكلّ ما هو حاصل، فترك الواقع بما عليه من خروج عن سنن الله تعالى يبدد العدالة التي يريدها الله سبحانه، فهو العدل، والعدل: قيمة بينية تحكيمية تتوسط طرفين أو أكثر، مركزها الاتزان وأطرافها من توازن. تؤسس قيمة العدل على إعطاء كلّ ذي حقّ حقه. لذا فهي قول حقّ وفعل حقّ.

والمساواة المساواة قيمة لاعتدال كفة الميزان القسط، فمن عمل بها كان عادلا ومحسنا، وجامعا للشمل غير مفرق، ومن تعدها فقد تعدى حدود الله في أرضه.

الله جلّ جلاله خلق الإنسان في أحسن تقويم، ليقيم القسط والعدل، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ وَإِنَّ عَلَىٰ كُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } 559. فالإنسان إذا لم يقم القسط بين الناس، فإن ميزان الحياة فيها سيتغير ويكون وبالا عليه، ويكون هو السبب في الخسران الدنيوي قبل الأخروي، فعلى الإنسان أن يراعي العدل الذي وضعه الله تعالى، ولا يعمل على تغيير ما وضع الله تعالى من حقوق وقواعد واضحة لا يمكن الزيف عنها، فإذا ما تحقّق الزيف ظنا منه أنه قادر على التغيير والتبديل، بأي طريقة من أجل الوصول إلى الثراء الفاحش، فإن هذا أمر فيه خرق للعدل الذي أرساه الله تعالى بين الناس كي يعيشوا بسلام وأمان.

والكيل: آلة تقدر بها الأشياء التي تكال، ووحدته: كيلة أو قدح أو أردب. والميزان كذلك: آلة يقدر بها ما يوزن.

وقوله تعالى: { أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ } 560. المخسر: هو الذي يتسبب في خسارة الطرف الآخر في مسألة الكيل،

---

<sup>559</sup> الانفطار 6 . 12.

<sup>560</sup> الشعراء 181.

بأن يأخذ بالزيادة، وإن أعطى يعطي بالنقصان. وفي الوزن قال  
{ بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ } 561.

والقسطاس: يعني العدل المطلق في قدرة البشر وإمكاناتهم في تحري الدقة في الوزن، مع مراعاة اختلاف الموازنات، فوزن الذهب غير وزن التفاح مثلا، غير وزن العدس أو السمسم، فعليك أن تتحرى الدقة قدر إمكانك، لتحقق هذا القسطاس المستقيم.

لكن، لماذا خص الكيل والوزن من وسائل التقدير والتقييم، ولم يذكر مثلا القياس في المساحات والمسافات بالمتر أو بالذراع؟

قالوا: لأن الناس قديما وكانت أمما بدائية لا تتعامل فيما يقاس، فلا يشترون القماش مثلا: لأنه يغزل، تغزله النساء ويغزله الرجال، ولم يكن أحد يغزل لأحد أو يبيع له، فهذه صورة حضارية رأيناها فيما بعد.

وقديما، كان الناس يتعاملون بالتبادل والمقايضة، وفي هذه الحالة لا يوجد بائع على حدة ولا مشتر على حدة، فلا يتفرد البائع بالبيع، والمشتري بالشراء، إلا في حالة مبادلة السلعة بثمن، كما قال تعالى: { وَشَرَوْهُ بِثَمَنِ بَحْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ } 562 أي: باعوه.

أما في حالة المقايضة، فأنت تأخذ القمح تأكله، وأنا آخذ التمر آكله، فالانتفاع هنا انتفاع مباشر بالسلعة، فإن قدرت أن كل واحد في الصفقة بائع ومشتري. تقول: شري وباع. وإن قدرت الأثمان التي لا ينتفع بها انتفاعا مباشرا كالذهب والفضة، أو أي معدن آخر،

---

<sup>561</sup> الشعراء 182.

<sup>562</sup> يوسف 20.

وهذه الأشياء لا تَوَكَّلَ فهي ثمن، أمّا الأشياء الأخرى فصالحة أن تكون سلعة، وصالحة لأن تكون ثمنا.

وقد أفرد القرآن الكريم سورة مخصوصة لمسألة الكيل والميزان هي (سورة المطففين)، يقول سبحانه: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوا يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} 563.

نقول: كال له يعني: أعطاه، واكتال عليه يعني: أخذ منه. فإن أخذ أخذ وافيا، وإن أعطى أعطى بالنقص والخسارة. والقرآن لا ينعى عليه أن يستوفى حقّه، لكن ينعى عليه أن ينقص من حقّ الآخرين، ولو شيئا يسيرا.

فمعنى (المطففين) من الشيء الطفيف اليسير، فإذا كان الويل لمن يظلم في الشيء الطفيف، فما بال من يظلم من الكل؟

فاللوم هنا لمن يجمع بين هذين الأمرين: يأخذ بالزيادة ويعطي بالنقص، أمّا من يعطي بالزيادة فلا بأس، وجزاؤه على الله، وهو من المحسنين، الذين قال الله فيهم: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} 564.

ومع تطور المجتمعات بدأ الناس يهتمون بقياس دقة آلات الكيل والوزن والقياس، فوجدت هيئات متخصصة في معايرتها والتفتيش عليها ومتابعة دقتها؛ لأنها مع مرور الزمن عرضة للنقص أو الزيادة، فمثلا سنجة الحديد التي نزن بها قد تزيد إن كانت في مكان

---

<sup>563</sup>المطففين 1 - 6.

29، التوبة 91.

بحث تتراكم عليها الزيوت والتراب، وقد تنقص بالحركة مع مرور الوقت، كما تنقص مثلا أكرة الباب من كثرة الاستعمال، فتراها لامعة، ولمعانها دليل النقص، وإن كان يسيرا565.

أمّا قوم شعيب صلّى الله عليه وسلّم فقد كان الكيل عندهم صورة من صور جمع الأموال، ذلك أنهم كانوا يمثلون كما نعتقد مركزا تجاريا مهما، يتحكمون بالبضائع المختلفة وبأسعارها حتى أن المنافسة التي يمكن أن تتحقّق لم تتحقّق معهم، فكما نعتقد أنهم يمثلون ثقلا تجاريا كبيرا، فبعد أن أمرهم بثلاثة أمور:

أحدها: إصلاح الاعتقاد، وهو من إصلاح العقول والفكر.

وثالثها: صلاح الأعمال والتصرفات في العالم بأن لا يفسدوا في الأرض.

ووسط بينهما الثاني: وهو شيء من صلاح العمل خص بالنهي لأنّ إقدامهم عليه كان فاشيا فيهم حتى نسوا ما فيه من قبح وفساد، وهذا هو الكف عن نقص المكيال والميزان.

فابتدأ بالأمر بالتوحيد لأنه أصل الصلاح ثم أعقبه بالنهي عن مظلمة كانت متفشية فيهم، وهي خيانة المكيال والميزان. وهي مفسدة عظيمة لأنّها تجمع خصلتي السرقة والغدر، لأنّ المكتال مسترسل مستسلم. ونهاهم عن الإفساد في الأرض وعن نقص المكيال والميزان فعزّزه بالأمر بضده وهو إيفاؤهما. وبعد هذا الطرح قال لهم (إني أراكم بخير) تعليل للنهي عن نقص المكيال والميزان. والمقصود من (إني أراكم

---

30 تفسير شعراوي، ج 1، ص 6657.

بخير) أنكم بخير. وإنما ذكر رؤيته ذلك لأنها في معنى الشهادة عليهم  
بنعمة الله عليهم فحقّ عليهم شكرها.

إنّ التذكير بالنعمة التي هم عليها فيه جانب كبير من أبواب  
النهي، فلم يكن هناك أمراً يمنحهم الخروج عن طاعة الله تعالى إن  
صح هناك أمر يخرج الناس عن طاعة الله تعالى، فمادامت النعمة  
إقامتها دائمة عندهم لماذا يسلكون هذه المسالك التي من خلالها  
يسلبون حقوق الناس، والذي يكون فيه أيضاً انتشار الفساد بشكلٍ  
يدعو إلى أن تغير خارطة البشرية ضمن نسق لم يختاره أحد إلا  
المطففين.

والخير: حسن الحالة. ويطلق على المال كقوله: {إِنْ تَرَكَ  
خَيْرًا} 566. والأولى حمله عليه هنا ليكون أدخل في تعليل النهي،  
أي أنكم في غنى عن هذا التطفيف بما أوتيتم من النعمة والثروة. وهذا  
التعليل يقتضي قبح ما يرتكبونه من التطفيف في نظر أهل المروءة  
ويقطع منهم العذر في ارتكابه. وهذا حثّ على وسيلة بقاء النعمة.

ثم ارتقى في تعليل النهي بأنّه يخاف عليهم عذاباً يحل بهم أمّا  
يوم القيامة وأمّا في الدنيا. ولصلوحيته للأمرين أجمله بقوله: (عذاب  
يوم محيط) وهذا تحذير من عواقب كفران النعمة وعصيان  
وَاهِبَهَا 567.

. بحس الناس أشياءهم .

---

<sup>566</sup>البقرة 180.

<sup>567</sup>التحرير والتنوير، ج 7 ص 180.

يقول تعالى: {وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} 568

(بخس) البَخْسُ النَّقْصُ بِحَسِّهِ حَقُّهُ يَبْخَسُهُ بَخْسًا إِذَا نَقَصَهُ  
وامرأة باخسٌ وباخسةٌ وفي المثل في الرجل تَحْسَبُهُ مَغْفَلًا وهو ذو نكرأة  
تَحْسَبُهَا حَمَقَاءٌ وهي باخسٌ أو باخسةٌ أبو العباس باخسٌ بمعنى ظالم  
ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ لَا تَظْلِمُوهُمْ وَالْبَخْسُ مِنَ الظُّلْمِ أَنَّ تَبْخَسَ أَخَاكَ  
حَقُّهُ فَتَنْقِصَهُ، وقوله عز وجل: (فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا) أي لا  
ينقص من ثواب عمله ولا رهقا أي ظلما 569.

والبخس فسروه بالنقص، وزاد الراغب في «المفردات» قيدا،  
فقال: نقص الشيء على سبيل الظلم، وقول أبي بكر بن العربي في  
(أحكام القرآن): "البخس في لسان العرب هو النقص بالتعيب  
والترهيد أو المخادعة عن القيمة أو الاحتيال في التزيد في الكيل  
والتقصان منه " فالبخس هو إنقاص شيء من صفة أو مقدار هو  
حقيق بكمال في نوعه. ففيه معنى الظلم والتحيل، وقد ذكر ابن سيده  
في المخصص؛ البَخْسُ في باب الذهاب بحق الإنسان، ولكنه عندما  
ذكره وقع فيما وقع فيه غيره من مدوني اللغة، فالبخس حدث يتصف  
به فاعل وليس صفة للشيء المبخوس في ذاته، إلا بمعنى الوصف  
بالمصدر، كما قال تعالى: {وَشَرُّهُ بِئْمَنٍ بِخَسٍ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا  
فِيهِ مِنَ الرَّاهِدِينَ} 570 إذا أن البخس كان من سمات قوم شعيب  
صلى الله عليه وسلم 571.

<sup>568</sup>هود 85.

<sup>569</sup>لسان العرب، ج 6 ص 24.

<sup>570</sup>يوسف 20.

<sup>571</sup>التحرير والتنوير، ج 5 ص 373.

والفرق بين البخس والنقصان: أن البخس النقص بالظلم قال  
تعالى: {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ  
مُفْسِدِينَ} 572 أي لا تنقصوهم ظلماً، والنقصان يكون بالظلم  
وغيره 573.

والبخس يدخل عالم النقص بصورة يتمثل فيها:

- . السلب.
  - . المخادعة.
  - . الغصب.
  - . التصرف في أمر دون أمر صاحبه أو على وجه لا يرضاه.
  - . الذم.
  - . القبح.
- فقد كان قوم شعيب صلى الله عليه وسلم مع شركهم بالله:
- . يطفّفون المكيال والميزان.
  - . يبخسون أشياء الناس إذا ابتاعوها منهم.
  - . يفسدون في الأرض.

هذه الأفعال المتعددة أدخلت قوم شعيب صلى الله عليه  
وسلم في حالة يتشعب معها الخطاب، فضلاً عن ذلك أن الخطاب  
لابد له أن يمر بحالة تنويرية، وهذا ما تحقّق على يد شعيب صلى الله

---

<sup>572</sup>الشعراء 183.

<sup>573</sup>الفروق اللغوية، ج 1 ص 92.

عليه وسلّم، فكان كلّ أمر يريد طرحه يجعل الحلّ أمامه، بصورة يهشم فيها كلّ الصدّ المتحقّق أمامه، فالأعدار وان توالّت إلا أنّ بيان الخطأ كان واضحاً أمام أعينهم، فالبخس لا يمكن أن يجد له مكاناً في شرع الله تعالى من ناحية الإباحة إلا أنّ وجوده يظهر للإبانة عند تحقّقه.

إنّ طمر البخس ومحيه يكون بالإيفاء، فقال لهم (أوفوا) أمر بالإيفاء، أي؛ جعل الشيء وافيًا، أي تامًا، أي اجعلوا الكيل غير ناقص. والمُخسِر: فاعل الخسارة لغيره، أي المُنقَص، (ولا تكونوا من المخسرين) لا تكونوا من المطفّفين. وصوغ {من المخسرين} أبلغ من: لا تكونوا مُخسرين. لأنه يدل على الأمر بالتبرؤ من أهل هذا الصنيع.

والقسطاس: بضم القاف وبكسرهما من أسماء العدل، ومن أسماء الميزان،

وبخس أشياء الناس: غبن منافعها وذمُّها بغير ما فيها ليضطروهم إلى بيعها بغيرها. وأمّا الفساد فيقع على جميع المعاملات الضارة.

ومن بخس الأشياء أن يقولوا للذي يعرض سلعة سليمة للبيع: إن سلعتك رديئة، ليصرف عنها الراغبين فيشتريها برخص. فهذا الأسلوب يسلب الحقوق بطريقة تعبد الأرض للفساد فيكون فيها:

. انتشار للظلم بين الناس بطريقة تجارية ففيها تكمن حياة الناس.

. انتشار السرقة بالنهار دون الليل؛ فالإنسان يرى بضاعته تسرق منه ومن باب المفارقة تكون برضاه المجرور عليه.

. ومن باب الاحتمال أنّ الذي وقع عليه البخس سيفكر فيه مستقبلا كي يرد ما أخذ منه بالطريقة نفسها.

. إنّ انتشار البخس يسقط المصداقية عن الناس فان انتشاره يلغي أية مصداقية وان تحققت.

إنّ قوم شعيب صلّى الله عليه وسلّم اتسموا بأنهم يطففوا في الميزان والمكيال، وأن يأخذوا بالقسر والغصب زائدا عن حقّهم، ويعطوا أقل من حقّ الناس، ويشتروا بثمن بخس ويبيعوا بثمن مرتفع. ويبدو أنّهم كانوا في ممر قوافل التجارة، فكانوا يتحكمون فيها. وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط في هذا كلّه، لأنّ العقيدة الصحيحة يتبعها حسن المعاملة، ولا تستطيع أن تغضي عن الحقّ والعدل في معاملات الناس.

ثم استجاش شعيب صلّى الله عليه وسلّم مشاعر التقوى في نفوسهم، وهو يذكرهم بخالفهم الواحد. خالق الأجيال كلّها والسابقين جميعا:

يقول تعالى: {وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ} 574.

فما كان منهم إلا أن يطلقوا عليه الاتهام بأنه مسحور، فهو يخلط ويهذي بما يقول:

{قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} 575.

وإلا أن يستنكروا رسالته. فهو بشر مثلهم، وما هكذا في زعمهم يكون الرسول. ويرمونه بالكذب فيما يقول:

---

<sup>574</sup>الشعراء 184.

<sup>575</sup>الشعراء 185.

{ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَطُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ } 576.

وإلا أن يتحدوه أن يأتيهم بما يخوفهم به من العذاب إن كان صادقا فيما يدعيه؛ وأن يسقط عليهم رجوما من السماء، أو يحطمها عليهم ويسقطها قطعاً:

{ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } 577.

وهو تحدي المستهتر الهازئ المستهين! وهو شبيه بتحدي المشركين للرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

{ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ } 578.

ويعجل السياق بالنهاية دون تفصيل ولا تطويل.

{ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } 579 .

قيل: أخذهم حر خانق شديد يكتم الأنفاس ويثقل الصدور. ثم تراءت لهم سحابة، فاستظلوا بها؛ فوجدوا لها برداً، ثم إذا هي الصاعقة المجلجلة المدوية تفرعهم وتدمرهم تدميراً.

وكان ذلك { يوم الظلة } فالظلة كانت سمة اليوم المعلوم!

ثم يجيء التعقيب المكرور:

---

<sup>576</sup>الشعراء 186.

<sup>577</sup>الشعراء 187.

<sup>578</sup>الشعراء 188.

<sup>579</sup>الشعراء 189.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ  
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } 580.

ويختتم القصص في السورة ليحيى على إثره التعقيب  
الأخير 581.

هذه كانت نهايتهم كنهاية الأقسام الذين كذبوا رسلهم واستمروا  
في طريق الغواية، إنّ رسالة شعيب صلى الله عليه وسلم جاءت لكي  
تصحح الانحراف المتحقق بعد

بيان قضية التوحيد التي تعد المركز الذي تدور حوله بقية  
القضايا، هذا التصحيح تناول جوانب مهمة من الحياة، وأهم ما فيها  
هو الجانب الاقتصادي، فهو عصب الحياة الذي يسيرها نحو ما هو  
صحيح، فإذا اختل اختلت الحياة وتشابكت الأمور ببعضها، وصار  
الحق باطلاً والباطل حقاً، فتتغير المعايير وتغيرها تضيع حقوق الناس  
ويسود الحرام، الذي يفتت المجتمعات ويجعل السرقة وأي جريمة هي  
التي تقود المجتمع نحو الضياع والاضمحلال، فيقع الناس في مستنقع  
ضحل لا يجدون من ينقذهم، ولهذا كانت رسالة شعيب صلى الله  
عليه وسلم رسالة إنقاذ، ذلك أنّ البشرية يحتاجون إلى مصلح يأخذ  
بيدهم نحو الخلاص، فالنسق البشري لا يجري على وتيرة واحدة بل  
هو متغير بين:

. الخير .

. الشر .

---

<sup>580</sup> الشعراء 190، 191.

<sup>581</sup> في ظلال القرآن، ج 5، ص 316.

ولهذا، جاءت الرسالات السماوية كي تصحح ما انحرف،  
وتعيد الأمور إلى ما يرضي الله تعالى، إذ يقول تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا  
رُسُلَنَا تَتْرَىٰ كُلًّا مَّا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَأَتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا  
وَجَعَلْنَاهُمْ أَخَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} 582، ولو لم يكذب  
الرَّسول ما كان هناك ضرورة لإرساله إلى قومه، وما جاء الرَّسول إلا  
بعد أن استشرى الباطل، وعم الطغيان، فطبيعي أن يكذب من هؤلاء  
المنتفعين بالشر المستفيدين من الباطل والذين يدافعون عنه بكلِّ  
قواهم، وكأن تكذيبهم للرسل دليل على صواب مجيء الرُّسل، وإلا لما  
كان هناك ضرورة لرسالات جديدة 583.

#### مستهدفات رسالة شعيب:

إِنَّ أَصْحَابَ مَدْيَنَ قَوْمِ نَبِيِّ اللَّهِ شُعَيْبٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
الذي أرسل إليهم، ابتلوا بأعظم ذنب من الذنوب، حيث كان دأبهم  
بخس النَّاسِ أشياءهم ونقص المكيال والميزان، وهو ظلم عظيم مبین،  
ولذا كانت دعوة نبي الله شعيب تتجسد بعد التوحيد في الدعوة إلى  
إصلاحهم وردهم إلى جادة الصواب التي أمر بها الله تعالى حيث قال  
أخوهم شعيب: {وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا  
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي  
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ  
بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ  
مُفْسِدِينَ} 584.

<sup>582</sup>المؤمنون 44.

<sup>583</sup>تفسير الشعراوي، ج 1، ص 6175.

<sup>584</sup>هود 84، 85.

فدعوة شعيب صلى الله عليه وسلم انصب اهتمامها على معالجة المشكلة الاقتصادية، التي هي من أهم محاور اهتمام الإنسان منذ أن أوجده الله تعالى على الأرض، ذلك أنها مرتبطة بمعيشته وحياته اليومية، ولما كانت المجتمعات الإنسانية تتشكل من مجموع أفراد، فهذا يعني أن الجانب الاقتصادي يكون محل اهتمام المجتمع بأكمله أي مجتمع كان. وهذه أبرز سمة عاجتها رسالة شعيب صلى الله عليه وسلم، ولكن قبل هذا فإن رسالة شعيب صلى الله عليه وسلم تحمل أشياء أخرى قبل الاقتصاد وبعده.

ولذا؛ فإننا سنتناول في هذا البحث أهم القضايا التي عاجلها شعيب صلى الله عليه وسلم في رسالته التي جاء بها إلى قومه، منها:

. التصحيح العقدي.

. الإصلاح الاقتصادي.

. الإصلاح الأخلاقي.

. الإصلاح الاجتماعي.

### **التصحيح العقدي:**

ما من نبي ولا رسول بعثه الله تعالى إلى عباده، إلا وكان أول ما أمره به بالدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد ونبذ كل ما يشركون به بداية، مع اختلاف خصوصيات الأنبياء والمرسلين في عصر الرسالة التي يأتي بها النبي أو الرسول في معالجة قضية معينة، فتكون الدعوة إلى عبادة الله تعالى بداية، ثم بعد ذلك يأتي الأمر بالموجب والنهي عن السالب في القضية التي تعالجها رسالة النبي المرسل مثل:

. نوح صلى الله عليه وسلم: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ  
يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ  
عَظِيمٍ} 585.

إبراهيم صلى الله عليه وسلم: {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا  
اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} 586.

هود صلى الله عليه وسلم: {وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ  
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ} 587.

صالح صلى الله عليه وسلم: {وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا  
قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} 588.

شعيب صلى الله عليه وسلم: {وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ  
يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} 589.

وما من رسول بعثه الله تعالى إلا وكانت أول دعوته إلى عبادة  
الله، قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا  
الطَّاغُوتَ} 590.

فجميع الرُّسل الذين أرسلهم الله تعالى كانت رسالتهم واحدة  
في التوحيد وإن كان بعضها مختلف عن بعض في القضية التي يعالج بها  
شأن قومه بعد التوحيد.

---

585 الأعراف 59.

586 العنكبوت 16.

587 هود 50.

588 الأعراف 37.

589 هود 84.

590 النحل 36.

وعليه: فإن معالجة أي قضية لأي قوم من أقوام الأنبياء والمرسلين يجب أن يكون هناك إجماع على هدف بداية وصولاً إلى الغاية، وهذا الهدف وهذه الغاية لا يتحققان ما لم يكن هناك إجماع على شيء من قبل المستهدفين في التغيير.

وهذا التغيير يأتي بداية لتصحيح العقيدة الفاسدة، لأنه ما لم تفسد عقائد الناس، فلا تفسد أخلاقهم ومعاملاتهم، ومن ثم ينعكس هذا الفساد على جزئيات المجتمع الأخرى من الجوانب السياسة والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية.

ولهذا، كان دأب شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تصحيح عقيدة قومه بداية، واستبدالها بعقيدة سليمة تحمل قانون الطاعة لله تعالى أولاً، الذي ينبثق عنه العدل والحقّ والمساواة بين جميع الأفراد وفق قانون العقيدة السليمة.

ولذا، أوّل ما أمر به شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبلغ قومه به التوحيد والإخلاص ثمّ النهي عن الفساد، قال تعالى: ﴿وَأِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ {591}.

إنّ مجتمع مدين قوم نبي الله شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عندما داخله الكفر والشرك، لم يعد هناك ميزان عدل يحتكمون إليه، ويرجعون فيه إلى الحقّ والعدل، ولذا، تعددت موازينهم ومكائيلهم عندما تخلوا عن المرجعية الحقّة التي لا يظلم فيها أحد.

فكانت الكلمة الأولى التي وجهها شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قومه أن قال لهم: (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ).

---

<sup>591</sup>العنكبوت 36.

وهذه الكلمة تعني: إزالة القيم الوضعية التي تواطأ عليها عليه القوم خدمة لمصالحهم، ولما كان ذلك المجتمع له موازينه الأخلاقية الخاصة التي تضمن لمن وضع تلك الموازين منفعة وفائدة على حساب حقوق الآخرين، بعيدة عن الحق والعدل، فأول ما أوجب الله تعالى على شعيب صلى الله عليه وسلم استبدال تلك الموازين التي وضعها قومه، بموازن تضمن حقوق الناس بعدم بحسبهم أشياءهم، وهذا القانون الذي يضمن الحق والعدل، يجب أن يتعرف عليه الذين يتعاملون به، وأول ما يتعرفون عليه قبل التعامل به، فقد وجب أن يكون معلوم المصدر بالنسبة لهم لضمان ثقة المشرع، والذي شرع هذه العقيدة التي تحمل قانون الحق والعدل والمساواة هو الله تعالى، وعليه كانت الدعوة بداية إلى التعريف بالمشرع فقال: (اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ). فعبادة الله في الدنيا رجاء اليوم الآخر للآخرة ينحصر ما بينهما كل مستلزمات الرجاء لذلك اليوم.

وعلى هذا يتم استبدال قيم دنيوية وضعية متعددة مختلفة متفاوتة من الكفر والشرك على ما يحمل كل منهما، واستبدالها بفضيلة واحدة هي (عبادة الله) والاتصال به وحده.

فعندما تتحقق عبادة الله تعالى يتوجه الجميع إلى إله واحد هي فضيلة لهم جميعا، تتحقق فيها وحدة المجتمع العقدي، وبهذا يتم العزوف عن عبادة القيم الدنيوية الوضعية من مثل:

. القبلية.

. العنصر.

. الأرض.

. الدم.

. القوم.

. المال.

والعبادة هنا في هذه الأشياء: أنّ الإنسان عندما سلّم لها أو لبعض منها كلّ أمره، في الخير والشرّ والباطل وبطيئها حبا بها أو امتثالا لها دون احتكام إلى العقل الذي يقرر وجه الحقّ والعدل، فلا شك أنه مستعبد لها، فكانت دعوة شعيب صلّى الله عليه وسلّم لقومه إلى عبادة الله تعالى، هي بمثابة تخليصهم من رق العبودية لهذه المخلوقات، إلى انطلاقة التوحيد في عبادة الخالق.

وهذه العبادة التوحيدية التي يُجمع عليها المجتمع، سوف يجمع أيضا على ما ارتضاه المعبود لهم من تشريع يضمن حقوقهم فيما بينهم.

فدعوة العبادة لله تعالى من شعيب صلّى الله عليه وسلّم لم يختص بها وحده دون الأنبياء، وإنما كان الأنبياء جميعا يبدؤون دعوتهم بهذه الكلمة التي هي أساس التغيير في أي مجتمع أرسل إليه رسول، ذلك أن الرُّسل والأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين، يوحدون المجتمع ويجمعونه على كلمة التوحيد وعبادة الله تعالى ثم يعالجون قضايا المجتمع من خلال الإجماع على الرمز، ثم استئصال القيم الفاسدة والممارسات الخاطئة، بعد تثبيت العقيدة الصحيحة.

وعندما يتم تثبيت العقيدة يكون التفاضل بين الناس على أساس:

. العقيدة الصحيحة.

. القلب السليم.

. العمل الصالح.

. الخلق الفاضل.

وهذا يؤدّي بدوره إلى تأسيس عقيدة في نفوس وقلوب من اكتسب عقيدة التوحيد، فما صحت العقيدة في قلب إنسان إلا اكتسب النزوع إلى التجديد والإصلاح، على تفاوت في الهمم لدى الناس حسب طاقتهم ومواهبهم.

فالله سبحانه وتعالى قبل أن يأمر شعيباً صلى الله عليه وسلم بالإصلاح، أمره أن يعلن أن العقيدة الصحيحة هي تحرير العباد من كلّ طاعة إلا طاعة الله وحده، وما أمر بطاعته في المعروف والأداء بالإحسان هو الدين الذي يرضاه الله تعالى لعباده ديناً.

ومن جانب آخر يدرك الناس على أن:

. تعدد الأنبياء.

. تراخي العصور والأزمنة.

. اختلاف القضايا التي عاجتها رسالة كلّ نبي.

. أوّل دعوة الرسول أو النبي قبل الإصلاح هي التوحيد.

هو دليل على وحدة المصدر والتشريع، بدليل عبادة الله الواحد الذي دعا إليه جميع الأنبياء والرسل، حيث نعلم من خلاله أن أصل الرسالات السماوية واحد، وأن جميع الرسل إخوة، ولذا وجدنا جميع الأنبياء والرسل على الصراط المستقيم في الدعوة إلى الله تعالى وإلى عبادته لأنه هو الذي خلق الخلق وأوجد الوجود.

ثم إنَّ نبي الله شعيبا عندما ضرب لقومه المثل كما جاء في قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} 592.

فقد ساق لهم من الأنبياء والأقوام ما عندهم منه:

. خبر .

. علم .

. معرفة .

وأهم يعلمون حقيقة ما يعرفون عن تلك الأقوام، إذ ليست العبرة بانتساب الأفراد إلى أنبيائهم، وإنما العبرة في حقيقة ما يعتقدون، وحقيقة ما يعملون مما جاء به النبي أو الرسول.

لقد قرّب نبي الله شعيب لقومه الأمثال في الأمم السالفة التي عندهم علمها أو خبر منها، وأن أساس هلاكها لم يكن مرتبطا بأعمال وتصرفات دنيوية فقط، وإنما لما انحرفوا عن العقيدة الصحيحة والشريعة السليمة، انحدروا إلى الممارسات الأخلاقية الدنيئة، ولذا فإن تصحيح العقيدة لدى أي قوم هو بمثابة طوق النجاة من العذاب والهلاك، لأن ذلك عودة إلى طريق الحق في المعاملات الدنيوية التي ترضي الخالق والمخلوق.

لقد آمن لشعيب صلى الله عليه وسلم عدد من قومه، ولا بدّ أن هذا العدد هو الجزء الأقل من القوم بدليل إهلاك قوم شعيب واستثناء المؤمنين مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا لَنَجِّنَا شُعَيْبًا

---

<sup>592</sup>هود 89.

وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ {593}.

إنَّ الله سبحانه وتعالى يدفع الكفر بالإيمان، ليقر في الأرض حقيقة العقيدة الصحيحة، التي جاء بها الرُّسل جميعاً، وليجزى كلّاً بعمله. لذلك، قدر الله أن يكون النَّاس مختلفين في ميولهم، موكِّلين إلى أنفسهم في اختيار طريقهم، كما قدر الصراع بين الهدى والضلال، وأن يجاهد أصحاب الإيمان لإقرار الحقيقة الواضحة المستقيمة، وهي شريعة الله التي انحرف عنها أصحاب مدين قوم شعيب فانتصر لها الله تعالى.

### الإصلاح الاقتصادي:

إنَّ المشكّلة الاقتصادية عامّة مرتبطة بوجود الإنسان على الأرض، وهي من العوامل المؤثرة في المسيرة التاريخية للإنسان، وهو رهين أثرها وجوداً وامتداداً من حيث:

. العيش الكريم.

. البناء والعمران.

. تعاقب الأجيال.

. استمرار الحياة.

ولما كان الجانب الاقتصادي متعلق إلى هذا الحدّ بحياة الإنسان، وما يحمل تحته من مفردات في مضمونه تكوّن عوامل أساسية في حركة الحياة من:

. التملك.

---

<sup>593</sup>هود 94.

. البيع .

. الشراء .

بحيث إذا سارت هذه العوامل في التعاملات وفق جانب الحق الذي يرتضيه الله تعالى لعباده من عدم بحس الناس أشياءهم، تستمر الحياة وفق ناموس العدل الذي أمر به الله تعالى، وإذا انحرف التعامل الاقتصادي عن الأخلاق العامة التي تسير مع العدالة بما تواطأ عليه المجتمع من أخذ الحقوق وأداء الواجبات، وأصبح تغييرا في اتجاهه، وتبدلا في مساره. ولما كان دأب قوم شعيب صلى الله عليه وسلم، بحس الناس أشياءهم أرسله الله تعالى لبيّن لهم الحق من الباطل في هذا الجانب بأمور كثيرة منها:

. دعوة التوحيد .

. تبين القانون الإلهي في التعاملات .

. تصحيح هذا الخطأ .

. تعديل الانحراف .

. تشريع قاعدة اقتصادية .

. وضع أسس التعامل السليم .

. إرساء قاعدة عامة للبشر .

فمن أجل ذلك أرسل الله تعالى نبيّه شعيبا صلى الله عليه وسلم، إلى قومه، ليقوم اتجاهاتهم المنحرفة في التعاملات الاقتصادية.

ثمّ إن دعوة شعيب صلى الله عليه وسلم، أكدت على أهمية الإصلاح الاقتصادي المرتبط بسلامة العقيدة، ذلك أن العقيدة تنبثق

من منطلقات إيمانية أساسها التوحيد وعمادها الحقّ والعدل، ولأنّها دعوة نبي إلى بناء اقتصاد سليم كانت أبرز المنطلقات التي دعا شعيب صلّى الله عليه وسلّم قومه إليها:

. عبادة الله الذي لا إله غيره.

. عدم بحس الناس أشياءهم في التبادل التجاري.

. عدم أكل أموال الناس بالباطل.

. البيع والشراء بالتراضي.

. النهي عن الفساد بجميع أشكاله.

فهذه الأمور، من أهم الجوانب التي تسبب قيام المشكلات الاقتصادية ممّا يؤدّي إلى الاحتكار وارتفاع الأسعار وانتشار الفقر الذي يترتب عليه مشكلات أخرى منها:

. اجتماعية بفساد المجتمع.

. صحية بانتشار المرض نتيجة الفقر.

لقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن واقع قوم شعيب وسلوكهم الاجتماعي وتصرفهم الاقتصادي القائم على سوء التوزيع من خلال:

. الغصب.

. الغش.

. التطفيف.

وقد بين الله تعالى ذلك في قوله والسبب في إرسال شعيب صلّى الله عليه وسلّم إليهم بقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا

قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُسُوا الْمِكْيَالَ  
وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ  
أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا  
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ {594}.

وعندما قال الله تعالى: (أخاهم) ذلك للدلالة على أنه واحد  
منهم في النسب، وذلك أدعى من جوانب منها:

. أنه يجري عليه ما يجري عليهم من التزام الحق والعدل  
بالقسط.

. أدعى لقيام الحجّة عليهم أن يشهد عليهم واحد منهم.

. أنّ شعيبا معروف عندهم برجاحة العقل بوصفهم إياه (حليم  
رشيد).

فكان شعيب صلى الله عليه وسلم شأنه مع قومه شأن سائر  
الأنبياء مع أقوامهم في القضية العامة التي عمادها التوحيد مع  
خصوصية رسالة كلّ نبي، ولذا، أمرهم بداية أن يعبدوا الله وحد ولا  
يشركوا به شيئا، فليس لهم إله سوى الله تعالى.

فكانت دعوته لقومه بداية على غرار دعوة جميع الأنبياء في  
التوحيد واحدة، فدعوا إلى الله الواحد وعبادته، ولذا أمرهم شعيب  
صلى الله عليه وسلم:

. بالتوحيد أولا لأن ذلك جماع الأمر كلّ وقوامه.

. نهاهم عمّا اعتادوه من النقص في الكيل والوزن.

---

<sup>594</sup>هود 84، 85.

فقد قيل عنهم: "أنه كان لهم مكيالان وميزانان أحدهما أكبر من الآخر فإذا اكتالوا على الناس يستوفون بالأكبر وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون بالأصغر والمراد لا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود تتوسلون بذلك إلى بخس حقوق الناس" 595.

ولما كانت دعوة شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تتعارض مع مصالحهم لا بد أن يقع التصادم، فهم تجاوزوا العقيدة وقدموا عليها المصلحة المادية بصرف النظر عما يمارسون من أعمال تخالف شرع الله تعالى ناهيك عن مخالفة الأخلاق العامة في التعامل بين البشر حيث قال تعالى: {إِلَى قَوْلِهِ: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} 596.

وفي هذه الآيات تبرز الإشارات واضحة في:

. أثر عدم العدل في التوزيع.

. التبادل التجاري الظالم في البيع والشراء.

. أكل أموال الناس بالباطل.

فهذه الأسباب تؤدي إلى سوء الأوضاع الاقتصادية للفرد والمجتمع على حدٍ سواء، جراء الممارسات الخاطئة من التعدي على حقوق الآخرين، لذا نلحظ من جواب شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

<sup>595</sup> تفسير حقي، ج 5، ص 483.

<sup>596</sup> هود 87، 88.

لهم، بوصفه للواقع الذي يعالج مشاكله، أنه يمارس التجارة مثل أبناء قومه، ولكنه يلتزم بأوامر الله ونواهيه، وهذا واضح من قوله أن الله تعالى لما وجده ملتزماً بما أمر به وشرعه لعباده، فقد رزقه رزقاً حسناً بسبب الطاعة والالتزام بما يأمر به قومه من العدل في التعامل، قال تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُمُ} 597.

### الإصلاح الأخلاقي:

لم تقتصر دعوة شعيب صلى الله عليه وسلم على الدعوة إلى التوحيد وإصلاح الجانب الاقتصادي فحسب، وإنما تجاوزت ذلك إلى الجانب الأخلاقي في المجتمع، ذلك أنه ما لم تصلح أخلاق المجتمع وتبتعد عن الفساد المتأصل في النفوس من حب الطمع جرياً وراء الدنيا وملذاتها، لا يمكن إصلاح الجوانب الأخرى، لأن الفساد الأخلاقي تكون نتائجه السلبية كثيرة منها:

. تحييد الحق والعدل.

. إحلال الظلم والطغيان.

وبهذا يسود قانون القوة محل قوة القانون في الجانب الاقتصادي كما ساد عند أصحاب مدين قوم شعيب الذي قام على:

. الهضم.

. البخس.

. الغصب.

فشعيب صَلَّى اللهُ عليه وسلّم بدعوته ما لم يصلح أخلاق المجتمع، وتكون الدعوة الأساس فيه إلى الأخلاق الكريمة في التعامل القائم على الحقّ والعدل والتراضي في البيع والشراء، فلن يكون هناك إصلاح اقتصادي.

فلو تدبرنا الجانب الأخلاقي في دعوة نبي الله شعيب صَلَّى اللهُ عليه وسلّم لوجدناه يتمثل في قوله تعالى: {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} 598.

فهي دعوة أخلاقية كريمة، في العدول عن الظلم والهضم والبخس، إلى البيع والشراء بالتراضي الذي يترتب عليه الربح الحلال، لأن ما يؤدي الآخريين من هذه الممارسات، فإنها إذا مارسها أحد على قومه فإنهم سيشعرون بالغبن والظلم، وهم ما لا يرضاه لهم الله تعالى ولا نبيه شعيب صَلَّى اللهُ عليه وسلّم، ومن هنا كانت دعوة شعيب إلى قومه أنه ما يؤذيهما فهو إيذاء للآخرين، وما يشعرون به من ظلم كذلك يشعر به الآخرون إذا صدر منهم هذا الظلم والبخس والهضم.

فالبعد الأخلاقي الذي ينصب على الجانب التربوي نستشعر مغزاه ومعناه أنه يشمل جميع أنواع البخس للناس من حقوقهم ليس المادية فقط، وإن كان الجانب المادي هو المسيطر عليهم، إلا أن دعوة شعيب صَلَّى اللهُ عليه وسلّم كونها رسالة نبوة من الله تعالى، لا بد أن يكون لها أبعادها المنطقية في الشمول الأخلاقي والاجتماعي التربوي في حسن التعامل بكلّ الأشياء المادية والمعنوية والروحية.

. المادية التي تتعلق بالاقتصاد والتجارة.

. المعنوية ما يمتّ للأخلاق الحميدة بصلات طيبة.

. الروحية التي تتعلق بالعتيدة والجانب الإيماني.

. تأسيس العلاقات المادية المباحة شرعا.

. نشر الأخلاق المقيدة للعلاقات المادية.

فمن هنا كانت دعوة شعيب صلّى الله عليه وسلّم، وإن كانت دعوة خاصة لقومه في إصلاح الجانب الاقتصادي، إلا أنّها عامّة في هذا الخصوص من جوانب أهمها:

. أنّ الإصلاح الاقتصادي هو جزء من الدعوة.

. لا يتم إصلاح الاقتصاد والتجارة ما لم يصلح المجتمع.

. إصلاح المجتمع متوقف على إصلاح أخلاقه.

. الدعوة إلى التوحيد تزيل الفوارق وتجعل الناس على قدر

المساواة.

. المساواة تجعل الجميع تحت سلطة القانون.

. القانون هو شريعة الله تعالى الذي خلق الناس.

. هذه الأسس تخرج دعوة شعيب من الخصوص إلى العموم

لعدم تعارضها مع الأخلاق العامة للبشر.

. ما يجمع عليه الناس عادة ما يكون هو عدل وحقّ.

. الحقّ والعدل فوق الجميع بالرضا، وبذا تكون دعوة عامّة وإن

كانت للخصوص.

وعليه: فإن الإصلاح كلّ متكامل لا يدخل جزء من الحياة دون جزء وإن بدأ بأحد الأجزاء فإن ذلك مدعاة للاهتمام أولاً والتنبيه على المصدر الأساس الذي انطلق منه الفساد أو أن الإفساد في الجوانب الأخرى هو نتيجة مترتبة على فساد ذلك الجانب.

والإصلاح له بعده التربوي والأخلاقي في حياة الإنسان الذي من خلاله ينسحب على بقية أفراد المجتمع ونواحيه.

فالإصلاح نعم؛ إنها كلمة جميلة سهلة الإخراج من اللسان، خفيفة الوقع على الأذان، تنشرح لسماعها الصدور، وتألفها القلوب؛ إلا أن الجانب العملي والتطبيق الفعلي في نشر هذا الصلاح وإيداعه في القلوب التي يجب أن تكون موافقة للفطرة التي فطر الله الناس عليها؛ تحتاج إلى نبي أو من هو متمسك بشريعة نبي.

ولهذا، قال نبي الله شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقومه لما دعاهم إلى عبادة الله وحده، ونهاهم عن إنقاص المكايل والموازين، وأمرهم بتوفيتها، وعدم بخس الناس أشياءهم قال لهم: {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} 599. وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يريد الإصلاح لأنه مأمور به، ولم يجزم بالأمر حتى لا يخرج عن الاستطاعة، فهو يفعل ما بوسع من أجل إخراج قومه مما هم فيه بعد التوكل على الله تعالى، ثم التوفيق منه سبحانه وتعالى. لأن الله سبحانه وتعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها، وما يدخل في طوعها.

وهنا يعلن نبي الله شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه على يقين من أنّ الله سبحانه وتعالى قد أعطاه حجة ومنهجاً، وقد رزقه الرزق

---

<sup>599</sup>هود 88.

الحسن الذي لا يحتاج معه إلى أحد أن يبخرس أحدا حقه أو يأكل مال غيره ظلما.

ثم يؤكد لهم شعيب صلى الله عليه وسلم على الجانب الأخلاقي ويبدأ بنفسه قائلا: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ).

فهو، أول من يطبق ما يدعوهم إليه على نفسه قولا وعملا؛ فلا ينقص كيلا ولا يخسر ميزانا، ولا يبخرس أحدا أشياءه، لأنه لا يعبد غير الله.

ثم قوله: (أخالفكم) في سياق الآية الكريمة، تدل على اتجاهين متضادين:

الأول: إذا كان الهدف من المخالفة صرف المخاطب عن فعل لكي تفعله أنت ولا يفعله هو، تكون قد خالفته.

الثاني: إذا كان الهدف من المخالفة أن يفعل المخاطب فعلا كيلا تفعله أنت، تكون قد خالفته أيضا.

فشعيب صلى الله عليه وسلم يوضح لهم هذا الأمر بشكل لا لبس فيه ولا غموض، أنه لا ينهاهم عن أفعال يفعلها هو، أو كي يفعلها عندما تنعدم المنافسة ليفعلها هو، بل ينهاهم عن الذي لا يفعله؛ حتى يفعلوا ما لا يفعله، لأن الله سبحانه وتعالى قد أمره بألا يفعل تلك الأفعال، حيث بين الله له بما أوحى إليه المنهج والشرعة التي يجب أن يكون عليها في الرسالة التي كلفه بها وأنزلها عليه.

وشعيب صلى الله عليه وسلم لا ينهاهم عن أفعال يفعلها هو، لأنه لا يستأثر لنفسه بما يروونه خيرا يعود عليهم بالنفع كما

يظنون، إذ ليس في نقص الكيل والميزان؛ أو الشرك بالله أدنى خير لأعظم إنسان، فكلّ تلك الأفعال، لا نقول إنها تحمل شرّاً، بل هي الشر نفسه.

ثمّ يوضح لهم شعيب صلّى الله عليه وسلّم مهمة النبوة ومضمون الرسالة في الجانب الأخلاقي من خلال قوله:

(إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت).

إنّ جميع الرُّسل والأنبياء الذين يبعثهم الله تعالى، كما نقف عليه من خلال القرآن الكريم، لا يحين وقت مبعثهم إلا حين يعم الفساد ويطغى، فيأتي النبي المرسل بمنهج يدلّ الناس إلى ما يصلح شأنهم وأحوالهم في الدنيا والآخرة، من خلال مجموعة الأوامر والنواهي والروادع والزواجر والترغيب والترهيب بأفعل ولا تفعل، وهذه الأمور كلّها متعلقة بالتصرف والسلوك الذي ينمّ عن الأخلاق، ولذا يكون النبي المرسل هو الأسوة الحسنة في أخلاقه لتطبيق المنهج الذي يأتي به، وأوّل ما يبدأ بنفسه، فلا يأمر أمراً هو عنه بنجوة، ويطبق على نفسه أوّلاً كلّ ما يدعو إليه، أو حتى قبل أن يدعو إليه.

وأما ذكر التوفيق والتوكّل في قوله: (وما توفّيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب).

فهو صلّى الله عليه وسلّم، يبيّن لنا الفرق بين السعي في العمل والنجاح فيه، فهو يبيّن أن هناك فرقا بين العمل، وبين التوفيق في العمل، وهذا مدعاة للربط بين العمل والنية في هذا العمل، لأن الجوارح قد تنشغل بالعمل، ولكن النية قد تكون غير خالصة؛ بمعنى أن العقيدة غير سليمة وعندئذ لا يأتي التوفيق من الله.

أمّا الإقبال على العمل في نية التوفيق من خلال التوكّل الذي توكّله شعيب صلّى الله عليه وسلّم، على الله تعالى، مع توضيح الرجوع والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، أسس لقاعدة العمل الذي يريد من خلاله الإصلاح، وهي أخلاقية أكثر منها عقدية.

فقد جاء على لسان شعيب صلّى الله عليه وسلّم قوله: (عليه توكّلت) أنّه لا يتوكّل إلا على الله، فقد قدم شبه الجملة من الجار والمجرور وآخر الفعل والفاعل لدفع وهم الاشتراك في التوكّل، فحصر التوكّل على الله تعالى حتى لا يقع وهم بأنّ هناك من يتوكّل على غير الله تعالى، أو يشترك معه في التوكّل حاشا لله.

ولذلك، كانت دعوات الرُّسل جميعهم دعوة للإصلاح، وعندما تكون الدعوة إصلاحية فلا بدّ أن الأخلاق تستحوذ على الجانب الأكبر من الدعوة، كما قال نبي الله شعيب صلّى الله عليه وسلّم عندما دعا قومه إلى توحيد الله وعبادته والالتزام بما شرعه لهم من الأحكام: (إن أريد إلا الإصلاح).

فالإصلاح هو المنهج الأخلاقي للرسول وأتباع الرُّسل، بعكس الإفساد الذي هو منهج المنافقين ومعارض رسل الله رغم تبجحهم بزعم الإصلاح وادعائه تهرباً من الامتثال للحق والانصياع له كما قال الله تعالى عن المنافقين: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ} 600.

---

<sup>600</sup>البقرة 11 . 13.

وعلى هذا المقياس أو قريب منه أجاب أصحاب مدين نبي  
الله شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قالوا: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ  
كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ  
عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} 601.

فطبيعة رؤية هؤلاء كانت تفرض عليهم الاحتكام إلى أخلاقهم  
من زاويتين:

أولاهما: ما تعلق بضعف المخاطب، وهي تقتضي استصغاره  
والتهوين من قدره، ومن ثم عدم الالتفات لما يقول.

وثانيتها: تتمثل في استحضار ما يمكن أن ينتج عن إلحاق  
الأذى المادي المقصود بالمخاطب (لرجمناك).

إنَّها رؤية تحتكم لقانون المظاهر من قوة وضعف، وحاشية  
ومحيط، ولا شيء غيرها.

ومن جهة أخرى نجد من كانت رؤيته على هذه الشاكلة  
يقتفي أثر قارون الذي آتاه الله مالا فظن أنه إنما أوتيته بذكائه وفطنته،  
قال تعالى: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي} 602.

فهذه الرؤية ليست مقتصرة على قوم شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ، وإنما هذا دأب جميع الأقسام الذين خالفوا أنبياءهم ورسلمهم،  
وهي سارية بينهم يتبناها ويمارسها، كلٌّ من فقد شرط التوازن بين  
الجوانب:

. الروحية.

---

<sup>601</sup>هود 91.

<sup>602</sup>القصص 78.

. الأخلاقية.

. المادية.

وانزاح إلى ما يقتضيه تطرف الظلم والطغيان والغطرسة طالما هو مقتدر، فإذا نُزع منه هذا الاقتدار الذي آتاه الله إياه ذَلَّ واستكان، كما صورته الله تعالى بقوله: {فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} 603.

### الإصلاح الاجتماعي:

مجتمع مدين قوم نبي الله شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يقول عنه القرآن الكريم:

كانت الكلمة الأولى التي وجهها شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قومه أن قال لهم: {وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} 604.

وقوله تعالى: {وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} 605.

ولكن بعد أن استقصينا ذلك التصحيح العقدي قدر المستطاع بما يسمح به هذا المجال، نتناول الجانب الاجتماعي الذي دأب شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إصلاحه في قومه

---

<sup>603</sup> الزمر 49.

<sup>604</sup> الأعراف 85.

<sup>605</sup> العنكبوت 36.

فمن خلال معظم الآيات التي تكلمت عن قوم شعيب، نرى أنه صَلَّى اللهُ عليه وسلّم يبدأ بالدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، ثم بعد ذلك يتناول القضايا التي تخص الحياة الدنيا وما يترب عليها من جزاء في الآخرة من الثواب والعقاب.

ومن هنا أن شعيبا صَلَّى اللهُ عليه وسلّم، أوّل ما يدعو قومه، بدعوة جميع أخوته من الأنبياء صَلَّى اللهُ عليهم وسلّم أجمعين إلى التوحيد في عبادة الله تعالى، حيث أنّ جميع الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، يبدؤون دعوتهم بهذه الكلمة التي هي الأساس لتغيير القيم الضالّية واستبدالها بقيم أخلاقية عالية وفضائل إلهية سامية.

بمعنى أنّه استهدف من أجل إزالة السلطة الفاسدة بجميع أنواعها على تعدد مسمياتها، وإقامة سلطة قوامها الحقّ والعدل والإنصاف بعد التوحيد (مالكم من إله غيره).

فبعد أن بدأ شعيب صَلَّى اللهُ عليه وسلّم بنسف السلطة التي ذكرناها وإحلال سلطة عقيدة التوحيد، بدأ يشير إلى النظام الاقتصادي بما يربط المجتمع في دينه ودنياه من حيث الترابط في أن عمل الدنيا مترتب عليه جزاء الآخرة، ومن حيث التكامل، إذ لا يمكن أن تكون دنيا بلا آخرة، طالما أنّ الشيء له بداية فلا بدّ أنّ له نهاية، وعلى ضوء ذلك قال شعيب صَلَّى اللهُ عليه وسلّم لقومه: {فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} 606.

إنّ نبي الله شعيب صَلَّى اللهُ عليه وسلّم ما أراد إلا الإصلاح، وذلك أنّ الأمر بالإصلاح ينمّي العلاقة بين الإنسان والإنسان، وبين

الإنسان ومحيطه من المجتمع والبيئة والطبيعة، وعندما يكون المجتمع صالحاً، تكون جميع هذه العلاقات القائمة بين أفرادهِ ومحيطه متنامية نحو الإصلاح وتدفع بالفساد خارج المجتمع والبيئة والمحيط الذي يعيش به هؤلاء الأفراد.

ولذا، لا يمكن أن يكون المجتمع صالحاً ما لم تحكمه الفضائل، ولما كانت أولى الفضائل وأعلاها، هي التوحيد وعبادة الله الواحد الأحد، كانت هذه الفضيلة أول ما دعا إليه شعيب صلى الله عليه وسلم، ثم بعد ذلك يبدأ بالإصلاح ما استطاع، ذلك أن علاقة المصلح بمن يريد إصلاحهم تقوم بداية على التقوى، ومن ثم تنتقل إلى التربية والتوعية في الجانب الأخلاقي، وبهذا يمكن أن ينطلق المجتمع إلى التنمية والريح وعدم بحس الناس أشياءهم، في حين أن أصحاب مدين الذين بُعث فيهم شعيب صلى الله عليه وسلم، يمكن أن يوصف بالمجتمع المتخلف لأنه يسوده الفساد، وطالما دعاهم إلى الإصلاح، فمعنى ذلك أنهم مفسدون ليس في البخس والكيل والميزان فحسب، وإنما مفسدون بما يترتب على أعمالهم من نتائج كالإسراف والترف والتهتك، لأن هذه الأمور نتيجة طبيعية لما يمارسون من البخس والتطيف ظلماً وطغياناً.

وهكذا بعد الدعوة لعبادة الله تعالى، أتت دعوة الإصلاح من شعيب صلى الله عليه وسلم، وبهذه الخطوة يريد أن ينقل المجتمع من التخلف الذي فرضه المبخسون، إلى التقدم الذي أمر به الله تعالى:

. فلا يكون تقدم وتنمية حقيقة ما لم تتحقق المساواة.

. تحقيق المساواة يقوم على الحق والعدل.

. الحق والعدل ألا يبخس أحداً أحداً شيئاً.

. تحقّق هذه الشروط لإصلاح اجتماعي .

إنّ شعيباً صلّى الله عليه وسلّم، أرسى قاعدة المجتمعات الإصلاحية، أو المجتمعات التي تطمح أن تكون صالحة أو يجب أن تكون صالحة، وهذه القاعدة أنّ أيّ مجتمع ما لم يكن موحداً ويعبد الله إلهاً واحداً، فهذا المجتمع ليس مصلحاً ولا صالحاً، لأن الله سبحانه وتعالى يأمر بالعدل والإحسان، والبخس والتطيف ليسا من العدل والإحسان في شيء، وعلى هذا تكون ميزة الإصلاح هي ميزة المجتمعات التوحيدية، وأمّا الإفساد فيمثل ميزة المجتمعات الكافرة أو المشركة، فعندما نتأمل قول نبي الله شعيب صلّى الله عليه وسلّم لقومه: (فأوفوا الكيل والميزان) أي كلّ واحد منكم عليه أداء حقوق الآخرين كما هي دون نقصان، وإذا زاده فوق حقّه فقد وصل المجتمع إلى درجة التسامح، هذا يعني أن الإنسان يؤدّي حقوق الآخرين وزيادة، وهذه الزيادة تمثل صدقة عن المال بوجه من الوجوه، فإذا وصل المجتمع إلى تأدية الصدقات من تلقاء نفسه عن طيب خاطر، يكون المجتمع قد وصل إلى رضوان الله تعالى حيث قال: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ {607}.

ثم يقول شعيب صلّى الله عليه وسلّم بعد ذلك: (ولا تبخسوا الناس أشياءهم).

لقد جاء تعريف البخس في لسان العرب: "البخس النقص بخسه حقّه يبخسه بخساً إذا نقصه، وبأخس بمعنى ظالم، ولا تبخسوا الناس لا تظلموهم، والبخس من الظلم أن تبخس أخاك حقّه فتقصه

---

<sup>607</sup>البقرة 272.

كما يبخس الكيال مكياله فينقصه، وقوله عزّ وجلّ فلا يخاف بخسا ولا رهقا، أي؛ لا ينقص من ثواب عمله ولا رهقا أي ظلما وثمان بخس دون ما يجب "608.

فقد عرّفهم شعيب صلّى الله عليه وسلّم بحقوق كلّ واحد منهم، وبحقوق الآخرين عليهم، ودخل في قوله أشياءهم، كلّ ما له علاقة بحقوق الآخرين المادية والمعنوية المتعلقة بالمجتمع، بدليل أنه لم يقل: (ولا تبخسوا الناس أموالهم). ولكن عندما ذكر الأشياء فقد شمل الأمور المادية والمعنوية من:

. المال.

. البضاعة.

. المتاع.

. الاحترام.

. التقدير.

. الاعتراف.

وكلّ ما له علاقة بالمجتمع من حقوق ومزايا يملكها أفراد المجتمع من أموال وأعراض وقيم، أو ما يعتزون به من احترام وكرامة وشرف وكلّ ما له علاقة بالأشياء المعنوية التي تخصّ الناس، فهذا ما يجعل المجتمع متكاملا ومتعاوننا يسمو نحو الإصلاح.

ثمّ إنّ شعيبا صلّى الله عليه وسلّم يؤكّد حقيقة إلهية بتبليغ قومه عندما نهاهم عن الفساد: (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها).

---

<sup>608</sup>لسان العرب، ج 6، ص 24.

ذلك أنّ الله سبحانه وتعالى خلق الأرض صالحة لاستقبال الخليفة وممارسة الخلافة التي جعله الله عليها، فهي صالحة أساساً بما أودع الله فيها لكفاية خلقه وحاجتهم حيث قال تعالى: {قُلْ أَتُنْكُمُ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ} 609.

وعليه: فإنّ رزق ما خلق الله تعالى من خلق، أودعه في هذه الأرض بتقدير أقوات ما يحتاج الخلق إليه، إلا أنّ البخس والظلم والتطفيف من قبل بعض الذين يظنون أنّهم أوتوا ذلك على علم كما قال قارون، هذه الممارسة تؤدي إلى إفقار الآخرين بالتعدي على حقوقهم وبخسهم أشياءهم.

ومن سياق الآيات التي تحدثت عن أصحاب مدين يظهر لنا أنّ الإصلاح كان موجوداً في ذلك المجتمع، غير أنّ المبخسين والمطففين تجاوزوا على المجتمع بفسادهم حيث قال تعالى: {وَلَا تَفْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} 610.

ولذا، نهى شعيب صلى الله عليه وسلم قومه الكفار عن القعود على كلّ صراط، الذي يمكن أن يكون احتمالاً:

. الطريق الذي يسلكه المؤمنون إلى بيت شعيب.

. طريق الدين الحقّ الذي يمنعون الناس من اتباعه.

---

<sup>609</sup>فصلت 9، 10.

<sup>610</sup>الأعراف 86.

. كلاًهما معا لأن الرسالة جاء بها شعيب وهم يأخذون ذلك

عنه.

وهذا يعني أنّهم يجلسون على الطرقات ويخوفون من يريد الإيمان بالله وبرسوله شعيب صلّى الله عليه وسلّم، وبهذا الجلوس على الصراط يصدون من آمن من الناس عن سبيل الله، ويمنعون من يريد الإيمان بالله ويقولون إن شعيبا يريد أن يبدل دين آبائهم.

فهم بهذا يريدون اعوجاج الطريق عن الحقّ وعدوله عن القصد، وذلك بقعودهم على الصراط، وهذا لا يكون بمعنى الجلوس في الطريق، وإتّما القصد من ذلك منع الهدى الذي يدعو إليه شعيب صلّى الله عليه وسلّم، لأنّ هذا الهدى الذي جاء به شعيب صلّى الله عليه وسلّم، يدعو إلى عبادة الله الواحد الذي يمنع الظلم ويحرم البخس ويأمر بالعدل والإحسان ممّا يؤدّي إلى سيادة الحقّ في المجتمع، فهذه الأمور هي مخالفة لما يريدون، لأنّ منفعة محرمة ينالونها، بما يوقعون من ضرر على الناس الذين يبخسونهم أشياءهم.

ومن أجل ذلك يلتمسون الزيف والضلال ولا يستقيمون على طريق الهدى والرشاد، ولذا نبههم نبينهم بقوله: (واذكروا إذا كنتم قليلا فكثركم).

ونبي الله شعيب صلّى الله عليه وسلّم ذكرهم نعم أنعمها الله عليهم منها:

. كثر عددهم.

. كثرهم بالغنى بعد فقر.

. كثرهم بالقوّة بعد ضعف.

بمعنى: أتهم إذا كانوا فقراء ضعفاء فهم بمنزلة القليل، والمعنى أنه كثرتهم بعد القلة وأعزتهم بعد الذلّة، ولذا وجب عليهم شكر أنعم الله تعالى عليهم، بالعدل والإنصاف.

ومن جانب آخر فإنهم يعلمون حقّ العلم أنّ الذي يمارسونه من هضم الحقوق، وبخس الأشياء إنما هو من الإفساد الذي يعلمونه أنه إفساد ويمارسونه، ذلك أنه صلّى الله عليه وسلّم، لم يعرفهم بالإفساد، ولم يعرف الإفساد لهم، وإنما قال (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) فطلب منهم النظر نظر اعتبار بما نزل بمن كان قبلهم من الأمم السالفة والقرون الماضية، حين عتوا على ربهم وعصوا رسله، أرسل الله تعالى عليهم العذاب والهلاك، وأقرب الأمم إليهم قوم لوط، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه أنّ مجتمعهم كان مجتمعاً صالحاً قبل تفشي هذه الظاهرة التي يمارسونها، وذلك من خلال قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} 611.

فهم على معرفة تامة:

. بالأنبياء التي ذكرها لهم.

. رسالات هؤلاء الأنبياء.

. أقوام هؤلاء الأنبياء.

. عصيان الأقوام لأنبيائهم.

. أسباب هلاكهم.

---

<sup>611</sup>هود 89.

ولذا، قال لهم (فاصبروا). وليس معناه أنه يحثهم على الصبر، وإنما بمعنى الانتظار حتى يأتيهم صدق ما يتوعدهم به إن بقوا على ما هم عليه، ودليل ذلك قوله: (حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين) ففيه وعيد وتهديد حتى يقضي الله ويفصل بينهم.

وخير الحاكمين من وجهين:

الأول: أنه حاكم عادل منزه عن الجور والميل والحيف في حكمه.

الثاني: قال خير الحاكمين لأنه قد يسمى بعض المخلوقين حاكما على سبيل المجاز والله تعالى هو الحاكم المطلق، ولهذا قال وهو خير الحاكمين.

إنّ الإصلاح هي قيمة اجتماعية كانت موجودة في مجتمع النبي شعيب صلى الله عليه وسلم، ولكنها انتهت وتلاشت، ولذلك فإن شعيبا صلى الله عليه وسلم، قام بتذكيرهم بهذه الميزة.

أما القيمة الأخرى الأخرى التي كان يتمتع بها مجتمع النبي شعيب صلى الله عليه وسلم ثم فقدها، هي قيمة تجمع بين الجانب الأخلاقي والجانب الاجتماعي وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث انعكست هذه القيمة في قوم نبي الله شعيب صلى الله عليه وسلم، فأخذوا يأمرن بالمنكر وينهون عن المعروف، بل ويضعون العقبات أمام الذين يريدون أن يعملوا المعروف ويأمرن به.

فالمصلحون في أي مجتمع غالبا ما يكونون مطاردين على قتلهم، أما المفسدون الضالون فهم الذين يحاولون أن يلبسوا الحقيقة غير لبوسها من أجل نشر المنهج المنحرف الذي يتمسكون به حفاظا على مصالحهم المادية حتى لو أتت على حقوق الآخرين، بدعوى

الحرية التي تصادر حقوق النَّاس، كما قال قوم شعيب: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} 612.

إنَّ الشرع والحقَّ والعدل يقيّد النَّاس بأن يفعلوا بأموالهم ما يشاؤون، ولنا أن نتصور لو فعل كلَّ إنسان بما له ما يشاء، ما الذي سيحصل في أي مجتمع، لاسيما أن العقلاء الحلما في أي مجتمع هم أقلون، فلو أطلقت أيدي البقية بالفعل في أموالهم ما يشاؤون وتركوا على مشيئتهم لفسد المجتمع، على الرغم من وجود الحلما الذين يفعلون بأموالهم ما يشاؤه الحقَّ والعدل والمنطق ذلك أنهم أقلون، والأكثر فاعلوا ما يشاؤون.

فأصحاب مدين اعتقدوا أنَّهم أمسكوا بزمام الأمور في المجتمع، ولذا، يريدون أن يتحكموا به وفق ما تمليه مصالحهم دون النظر في الميزان الذي يفرّق بين الهدى والضلال والعدل والظلم والإصلاح والإفساد.

إنَّ القرآن الكريم يصرح في معرض حديثه عن مجتمع قوم شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن هذا المجتمع بلغ مرحلة من الفساد والكفر دفعته إلى أن يصد ويعارض من يريد أن يشيع الخير والمعروف والفضيلة. ولذلك فإن طريق الإصلاح الذي يسير فيه المصلحون، وعر المسالك لما يعترضهم به من عقبات تتمثل غالبا في علية القوم أصحاب اليد الطولى في المال والجاه والقوة والسلطة، فيكون الصدام بين المصلح وهذه القوى التي لا يردها عن غيها وضلالها وظلمها إلا إرادة نبي أو من استمسك بدعوته، فإذا أراد المصلح نشر الأخلاق

---

<sup>612</sup>هود 87.

الكرامة والقيم العالية والفضائل السامية منعه من ذلك بدعوى أنهم وجدوا آباءهم على ملة وهم على آثاهم مقتدون.

ومن جانب آخر فإنهم لا يفسحون المجال للحوار والجدال والنقاش من أجل الوصول بالنتيجة إلى الحقيقة، ذلك أن الحقيقة ليس في صالحهم، ولذا، يلجؤون إلى سدّ جميع السبل التي تؤدي إلى انتشار الخير والمعروف، واندحار الظلم والبغي.

ومن الطبيعي أنّ هذا المجتمع هو مجتمع فاسد لا يقبل الإصلاح ولا يعتمد منهجا ولا يتخذه سبيلا، ولما كان الله سبحانه وتعالى غالبا على أمره، وينصر رسله بدعوة الحق، حيث قال تعالى: { كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } 613.

فلابدّ من استئصال الفساد من نفوس المفسدين، فإن أبوا، استأصل الله تعالى أنفسهم بما فيها من الفساد واجتثهم مع باطلهم، فلما أبى قوم شعيب صلى الله عليه وسلم الإصلاح الذي سعى فيه إليهم نبيهم، وأصروا على الفساد وتمسكوا به استؤصل المجتمع بكامله لما أخذتهم الرجفة، قال تعالى: { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } 614.

### قوم شعيب:

تستهدف الرسالات السماوية الإصلاح بعد إفساد عم أو خص قوم من الأقوام المستهدفة بالتبليغ. أي عندما يتحقق لدى الإنسان في عقيدته وسلوكه حين تتحقق عنده الحرافات واضحة في

<sup>613</sup>المجادلة 21.

<sup>614</sup>العنكبوت 36، 37.

كَلِيمَهَا أَوْ أَحَدَهُمَا، لَكِنْ هَذِهِ الرِّسَالَاتُ لَا تُعْنَى بِانْحِرَافَاتِ الْفَرْدِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ يَفْعَلُ بِمَا يَخَالِفُ الْعَقِيدَةَ الصَّحِيحَةَ أَوْ السَّلُوكَ الْقَوِيمَ إِذَا تَحَقَّقْنَا فِي مَجْتَمَعِ هَذَا الْفَرْدِ، فَالْفَرْدُ يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَهُ فَرْدًا، بِمَعْنَى أَنَّهُ يُمْكِنُ لِلْفَرْدِ الْقَوِيمِ أَنْ يُوَثِّرَ فِي الْفَرْدِ غَيْرِ الْقَوِيمِ فَيُصْلِحُ الْخُلُلَ السَّلُوكِيَّةَ أَوْ الْعَقْدِيَّةَ عِنْدَهُ، وَرَبَّمَا يَقُومُ بِذَلِكَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْإِفْرَادِ دُونَ حَاجَةٍ إِلَى تَدْخُلِ السَّمَاءِ بِشَكْلٍ مُبَاشِرٍ فِي ذَلِكَ، بِمَعْنَى أَنَّ وُجُودَ الْمَصْلُوحِ أَوْ الْمَصْلُوحِينَ فِي الْأَرْضِ بِمَا يَحْقِّقُ الْإِصْلَاحَ يَجْعَلُ الْمَجْتَمَعَاتِ عَلَى الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ وَالْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ (أُمَّةٌ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَلَكِنْ عِنْدَمَا تَكُونُ الْمَسْأَلَةُ مَعْكَوسَةً أَيَّ عِنْدَمَا تَنْحَرِفُ الْجَمَاعَةُ انْحِرَافًا يُمْكِنُ أَنْ يَجْعَلَ الْإِفْسَادَ سَائِدًا وَالْإِصْلَاحَ غَائِبًا بِمَا يَهْدِدُ مَهْمَةَ الْإِنْسَانِ الْمُسْتَخْلَفِ عَلَى الْأَرْضِ مَعَ عَجْزِ الْفَرْدِ أَوْ مَجْمُوعَةِ أَفْرَادٍ عَنِ تَقْوِيمِ مِثْلِ هَذَا الْانْحِرَافِ هُنَا نَعْتَقِدُ أَنَّ الرَّحْمَةَ السَّمَاوِيَّةَ سَتَنْزِلُ عَلَى الْعِبَادِ بِاخْتِيَارِ مَصْلُوحٍ مُؤَيَّدٍ مِنَ السَّمَاءِ حَامِلٍ لِمَقُومَاتِ الْإِصْلَاحِ يَمْتَلِكُ خُطَابًا مَقْنَعًا وَمَدْعُومًا بِالْحُجُجِ الْبَيِّنَةِ، هَذَا الْمَصْلُوحُ هُوَ النَّبِيُّ أَوْ الرَّسُولُ الْمَصْطَفَى لِهَذِهِ الْمَهْمَةِ، وَهَذَا هُوَ مَا حَصَلَ بِالْفِعْلِ مَعَ شُعَيْبٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَى قَوْمِهِ رَسُولًا أَمِينًا مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾<sup>615</sup>، لَكِنْ الْقَوْمُ رَأَوْا فِيهِ مَا رَأَتِ الْأَقْوَامُ الْكَافِرَةُ أَمْثَالَهَا رَسُولٍ مَهِينٍ وَهُوَ لَيْسَ عَلَيْهِمْ بِعَزِيزٍ (وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ).

وَمِنْ الْمَهْمِ بِمَكَانِ أَنْ نَسِيرَ أَغْوَارَ قَوْمِ شُعَيْبٍ لِمَعْرِفَةِ مَا هِيَ الْأَفْكَارُ الَّتِي دَعَتِ الْكَافِرَ مِنْهُمْ لِيَصِرَ عَلَى كُفْرِهِ، وَسَبَبِ اهْتِدَاءِ مَنْ آمَنَ بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ رَسُولُهُمْ شُعَيْبٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

<sup>615</sup>الشعراء 177، 178.

كان مجتمع مدين مجتمعا مهتما بالنشاط الاقتصادي على نحو ظاهر ومميز على سلوكياته في التعامل مع الآخر، ولعل الموقع الجغرافي لمدين أسهم في هذا النشاط الاقتصادي فالظاهر عليه أنه كان في موقع أحد الطرق التجارية كما تشير حادثة توقف سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم بعد خروجه من مصر في مدين، يقول الحق جلّ وعلا: {فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ} {616، كما هناك إشارة بينة إلى كون مدين كونها تقع على الطريق بين مصر وفلسطين مصداقا لقوله تعالى: {فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} {617.

والنشاط البارز لأهل مدين هو النشاط التجاري وذلك لأن رسالة شعيب الإصلاحية كانت تستهدف أمرين هما:

1. التوحيد (وإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

2 . إصلاح السلوك الاقتصادي (وَلَا تَنفُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ).

الأمر الآخر الذي تدل عليه الآيات عن مدين وأهلها، أنها مدينة كبيرة بدليل كثرة سكانها مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ

<sup>616</sup> القصص 21، 22.

<sup>617</sup> القصص 29.

مَدِينٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ  
تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ  
كَبِيرٌ {618.

(أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ)، أي؛ جماعة كثيرة مختلفي الأصناف، ويشعر  
بالقيد الأول التنوين، وبالثاني من الناس لشموله للأصناف المختلفة  
وهي فائدة ذكره 619.

عليه: فمدین كثيرة السكان مختلفة الأعراق، وتعدد الأعراق  
يدل عليه موقف قوم شعيب من رسولهم إذ قالوا له لولا رهط  
لرجمناك، هذا القول يدل على أن رهطه هو أحد الأرهاط المتعددة في  
المدينة، والمرتبطة مكانيا (مدین) دون ارتباط نسبي وسنحل ذلك في  
موضعه.

ومجتمع مدین كغيره من المجتمعات مجتمعا طبقيًا يقوم على  
تفاضل طبقات أفرادها تبعًا لموجبات التفاضل الطبقي السائد آنذاك  
وعلى النحو الآتي:

أولاً: المملأ

ذكر الله عزّ وجلّ أن شعيباً أرسل إلى قوم مدین فأمن معه  
قليل منهم، لكن أول من رفض الاستماع إليه هم المملأ من قومه فقال  
جل وعلا: { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ  
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْلَوْا كُنَّا  
كَاهِنِينَ {620.

---

<sup>618</sup>القصص 23.

<sup>619</sup>تفسير الالوسي، ج 15، ص 102.

<sup>620</sup>الأعراف 88.

والملاهم: "أشرف القوم ووجوههم ورؤسائهم ومقدموهم  
الذين يُرجع إلى قولهم"621.

فهذا الملا يمثل كبراء قوم شعيب وقد امتازوا بعدد من  
السمات منها:

أ. من أصحاب النفوذ والقوة: تتجلى هذه السمة في نوع  
الخطاب الذي خاطب به هذا الملا رسول الله شعيب صلى الله عليه  
وسلم، فهو خطاب تسيطر عليه نبرة التلويح بالقوة ومصطبغ بصبغة  
التهديد مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ  
وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا  
بِعَزِيزٍ}622.

يلاحظ التعالي الواضح في:

1. عدم الالتفات لما يقول.

2. نعته بالضعف.

3. تهديده بالرجم.

ب. من أصحاب الرأي والعقد

بينت الآيات الكريمة أن هذا الملا هو ملا الرأي والعقد في قوم  
شعيب إجماعاً أن في هؤلاء القوم كعادة سكان الأراضي العربية وما  
حولها من كانوا على درجة من الحكمة أو أنهم ادعوا إنهم كذلك،  
لكن ملا مدين لم يظهر في سلوكهم أو خطابهم ما يدل على هذه

---

<sup>621</sup>لسان العرب 1، ص 158.

<sup>622</sup>هود 91.

الحكمة أو ظاهرا من ظواهرها، فلو توقفنا على دعائم خطاب الملائكة لوجدناه مجردا عن الحكمة، ومن هذه الدعائم:

1. التهديد (لرجمناك)، وهو سلوك لا يدل على الحكمة، بل يدل على التلويح باستخدام القوة فقط.

2. رفض الحوار، إن جهلا عميقا بحقيقة النبوة ورسالتها الإنسانية والعقدية كان يطبق على هذا الملائكة، وذلك بادٍ من خلال ادعاء متناقض ادعاه الملائكة، فقد قالوا لشعيب: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ)، ثم قالوا بعد ذلك لقومهم (وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ)، فالقول الأول هو إدعاء عدم الفهم، لكن القول الثاني يدل على فهم عميق لما يقول شعيب فقد قصر الملائكة نصيحته لقوم مدين على التلويح بالخسارة الاقتصادية، وهكذا فإن خطاب الرفض كان يدل على وعي الملائكة بمضامين رسالة شعيب، تلك الرسالة التي قدرها واهمين أنها توقع القوم في الخسارة اقتصاديا، والحق أن رسولهم شعيب صلى الله عليه وسلم نبههم إلى ذلك فقال لهم كما يخبرنا العليم الخبير: {إِنِّي أَرَأَيْتُمْ إِيَّكُمْ تُجَادِلُونَ}.

فنصيحة الملائكة تمثل صورة واضحة عن طبيعة جهل هؤلاء فلم يكونوا لا من أصحاب الرأي السديد ولا العقد الصحيح لأنهم ما نظروا في الأمر نظرة حكمة وتأمل في دعوة شعيب، ولو أنهم نظروا وتأملوا على نحو الطالب لمعرفة الحقيقة ثم وزنوا الأمر بميزان الحق لآمنوا، لكنهم أصروا على الغي، وهكذا ناقض الملائكة نفسه وبدا أنه لم يكن فيه من الحكماء.

---

<sup>623</sup>هود 84.

## ج . غلبة المادية

تدل الآيات أنّ هذا الملاء عجب مما يقول شعيب من النبوة ومبادئ الإصلاح الاقتصادي التي جاء لإرسائها في مدين، فقد عجبوا متسائلين منكرين كما يخبر الله عنهم: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ 624.

ومن أهم مظاهر ماديتهم البادية رسوخ عقيدة الإشارك المتوارثة فيهم، دون فقه حقيقي لهذه العقيدة إنما هو ميراث يتوارثونه بينهم، وهذا في الحقيقة يمثل هروبا من الغيبية والروحية إلى المظاهر المادية، حيث يرى من يؤمن بها صعوبة كبير في الإيمان بآله واحد لا يراه.

المظهر الثاني لماديتهم يتمثل في قولهم (أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ)، هذه مادية خالصة لأن هؤلاء يعتقدون أن أموالهم حق خاص بهم يتصرفون بها كيفما يشاءون بالحق وبالباطل.

فماذا هي أوجه التصرف بالمال عندهم؟

لقد خصّ الله ما وقع به كثير من أهل مدين بعناية خاصة تتمثل بإرسال رسول هو شعيب صلى الله عليه وسلم (وإلى مدينَ آحَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)، كذلك خصه بعناية الإرساء والتعميم في المعالجة فقد أصبحت المسألة أكبر من أهل مدين لتكون من

<sup>624</sup>هود 87.

قواعد السلوك وذلك من خلال شدة التنبيه والتحذير الذي وجهه الله عزّ وجلّ لمن يريد أن يتمثل سلوك أهل مدين في المعاملات الاقتصادية، وذلك من خلال سورة خصها الله لذلك فقال عز من قائل: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} 625.

(وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) والمراد الزجر عن التطفيف، وهو البخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية، وذلك لأنّ الكثير يظهر فيمنع منه، وذلك القليل إن ظهر أيضا منع منه، فعلمنا أنّ التطفيف هو البخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية.

وفي اشتقاق لفظ المطفف قولان الأوّل: أن طف الشيء هو جانبه وحرفه، يقال: طف الوادي والإناء، إذا بلغ الشيء الذي فيه حرفه ولم يمتلئ فهو طفافه وطفافه وطفّفه، ويقال: هذا طف المكيال وطفافه، إذا قارب ملاءه لكنه بعد لم يمتلئ، ولهذا قيل: الذي يسيء الكيل ولا يوفيه مطفف، يعني أنه إنما يبلغ الطفاف.

والثاني: وهو قول الزجاج: أنه إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف، لأنه يكون الذي لا يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف 626.

د . متكبرون:

---

<sup>625</sup>المطففين 1 . 6.

<sup>626</sup>تفسير الرازي، 16، ص 400.

تبين الآيات الكريمة سلوكا واضحا من سلوكيات قوم شعيب  
يمكن أن يكون من أهم أسباب رفضهم الدعوة ويتمثل في الكبر الذي  
استولى على العقول فصار سلوكا مصداقا لقوله تعالى: { قَالَ الْمَلَأُ  
الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ  
قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَوْ كُنَّا كَارِهِينَ } 627.

كذلك يتبين من خلال ما نجد من نزعة التعالي والتمييز التي  
تسيطر على خطابهم الذي يخبرنا به سبحانه وتعالى في قوله حكاية  
عنهم مخاطبين لرسول الله شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { إِنَّكَ لَأَنْتَ  
الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ } 628.

وفي تفسيره وجوه:

الوجه الأول: أن يكون المعنى إنك لأنت السفية الجاهل إلا  
أنهم عكسوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية به، كما يقال  
للبخيل الخسيس لو رآك حاتم لسجد لك.

والوجه الثاني: أن يكون المراد إنك موصوف عند نفسك  
وعند قومك بالحلم والرشد.

والوجه الثالث: أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مشهورا عندهم  
بأنه حلیم رشيد، فلما أمرهم بمفارقة طريقتهم قالوا له: إنك لأنت  
الحلیم الرشيد المعروف الطريقة في هذا الباب، فكيف تنهاننا عن دين  
ألفيناه من آبائنا وأسلافنا، والمقصود استبعاد مثل هذا العمل ممن كان  
موصوفا بالحلم والرشد، وهذا الوجه أصوب الوجوه 629.

---

<sup>627</sup>الأعرف 88.

<sup>628</sup>هود 87.

<sup>629</sup>تفسير الرازي، ج 8، ص 456.

هذا التكبر أوصل قوم شعيب إلى النهاية التي هي نهاية لكلّ ظلم أو طغيان كما يخبرنا عنهم العليم الخبير: {فَأَحَدَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ} 630.

بهذا يكون الملام من قوم شعيب قد اشتمل على مقومات الظلم من خلال مجموعة السلوكيات التي كان ينتهجها مع الناس.

ثانياً: العامة:

مصطلح يطلق لدلالة على عموم الناس بما يستثنى منهم الخواص (الملاء) وهؤلاء يتباينون في مستويات التفكير، وطرق الكسب ونمط الحياة، وهذا التباين سيكون نقطة مهمة نطلق منها لمناقشة الفكر الطبقي المسيطر على ملاء قوم شعيب.

إنّ العامة في مجتمع مدين عامّة عاملة وذلك مواكبة لحركة النشاط التجاري الكبير في تلك المدينة، وهذا النشاط التجاري يتيح فرص عمل لأبناء المدينة ممّا يجعل البطالة في أدنى مستوياتها، بل هناك في الآيات ما يوحي بحاجة مدين للأيدي العاملة، فالقرآن يشير إلى أن موسى صلّى الله عليه وسلّم وعندما ورد ماء مدين ورأى ما فيها من نشاط تجاري دعا ربه الخير فتوفرت له فرصة عمل في مدين عند الشيخ الصالح مصداقاً لقوله تعالى: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْئُقَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ

---

<sup>630</sup>الأعراف 91، 92.

بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ  
وَكَيلٌ {631}.

ورسالة شعيب لكلّ المخصوصين بها من العامّة والخاصّة،  
فإذا جاء البلاغ واستقام النَّاسُ سَوِيَّهِمْ ومنحرفهم فقد تحققت الغاية،  
بل أن يستقم غير السوي غاية أولى بالنسبة للمصلحين عموماً  
والأنبياء والرُّسل خصوصاً.

ومع العامّة من قوم مدين لم يحصل الإيمان التام الذي حصل  
في قوم يونس مثلاً، فقد آمن مع شعيب قسم وكفر قسم آخر  
مصدقا لقوله تعالى: {وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ  
وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ  
الْحَاكِمِينَ} {632}.

ولكن الظاهر أنّ أغلب من آمن من قوم مدين هم قلة من  
العامّة لأنّ المملأ ظل على كفره وطغيانه، فكان المملأ ممن حقّ عليه  
العذاب لإصرارهم على أن يكونوا الذين كفروا مصداقا لقوله تعالى:  
{وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا  
لَخَاسِرُونَ فَآخَذَهُمُ الرَّجْمَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} {633}.

هذا المملأ المصر أثر تأثيرا واضحا في عامّة مدين لاسيما أنه  
كان يخوفهم بما يحتسبون له وهي الخسارة الاقتصادية لذلك تبعه كثير  
من العامّة، بينما آمن قليل منهم مصداقا لقوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ  
لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ).

---

<sup>631</sup>القصص 26 . 28.

<sup>632</sup>الأعراف 87.

<sup>633</sup>الأعراف 90، 91.

ثالثاً: رهط شعيب

الرهط في اللغة رَهْطُ الرجلِ قومه وقبيلته يقال هم رَهْطُهُ دُنْيَةٌ والرَّهْطُ عدد يجمع من ثلاثة إلى عشرة وبعض يقول من سبعة إلى عشرة وما دون السبعة إلى الثلاثة نَقَرٌ وقيل الرَّهْطُ ما دون العشرة من الرجال 634.

فالرهط هو رابط رحمي لمجموعة ليست كبيرة من الأفراد.

وقد خاطب ملاً مدين رسولهم شعيباً بخطاب فيه إشارة إلى رهط شعيب فقالوا بنص ما يخبرنا العليم الخبير: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} 635.

والآية توضح أن قوم شعيب لم يرجموا بزعمهم لولا رهطه؟

هنا نتساءل:

هل كان المانع عدد الرهط؟

أم مكانته؟

أم تأثيره في مدين؟

بالعودة إلى دلالة العدد في الرهط (من ثلاثة إلى عشرة) ينتفي أن يكون العدد هو المانع للرجم، لأن العدد قليل بالقياس إلى ما أشرنا إلى كثافة السكان في مدين، عليه لا بد أن يكون مانع آخر غير العدد.

---

<sup>634</sup>، لسان العرب، ج 7، ص 305.

<sup>635</sup>هود 91.

فربما يكون مكانة الرهط (وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجِمْنَاكَ) فالمقصود، أي لا يصدنا عن رجمك شيء إلا مكان رهطك فينا، لأنك أوجبت رجمك بطعنك في ديننا.

والرهط إذا أضيف إلى رجل أريد به القرابة الأدنون لأنهم لا يكونون كثيرا، فأطلقوا عليهم لفظ الرهط الذي أصله الطائفة القليلة من الثلاثة إلى العشرة، ولم يقولوا قومك، لأن قومك قد نبذوه. وكان رهط شعيب صلى الله عليه وسلم من خاصة أهل دين قومه فذلك وقروهم بكف الأذى عن قريبتهم لأنهم يكرهون ما يؤذيه لقرابته. ولولا ذلك لما نصره رهطه لأنهم لا ينصرون من سخطه أهل دينهم. على أن قرابته ما هم إلا عدد قليل لا يُخشى بأسهم ولكن الإبقاء عليه مجرد كرامة لقرابته لأنهم من المخلصين لدينهم.

فالخبير المحذوف بعد (لَوْلَا) يُقَدَّرُ بما يدل على معنى الكرامة بقرينة قولهم: (وما أنت علينا بعزير)، وقوله: {أرهطي أعزّ عليكم من الله} 636، فلما نفوا أن يكون عزيزا وإنما عزة الرجل بحماته تعين أن وجود رهطه المانع من رجمه وجود خاص وهو وجود التكريم والتوقير، فالتقدير: ولولا رهطك مكرمون عندنا لرجمناك 637.

ويمكن أن نضيف احتمال آخر هو تقدير - لولا تأثير رهطك-، فيكون المانع أن رهط شعيب من المؤثرين في مدين اجتماعيا أو اقتصاديا أو سياسيا أو دينيا، فكان ذلك هو المانع بسبب منعهم الصريح من إيذاء شعيب.

وهكذا تحدد ملامح رهط شعيب بالآتي:

---

<sup>636</sup>هود 92.

<sup>637</sup>التحرير والتنوير، ج 7، ص 188.

عددهم محدد بما دون العشرة

مكانتهم عالية في مدين

لهم غزوة ومنعة

لهم تأثير في مدين

أسهموا بطريقة أو بأخرى في حماية شعيب صلى الله عليه  
وسلم والذين معه.

أن رهطه هو أحد الأرهاط المتعددة في المدينة، والمرتبطة  
مكانيا (مدين) دون ارتباط نسبي مع الأرهاط الأخرى، ودليل ذلك  
الكاف في قولهم (رهطك) أي تلك المجموعة التي ترتبط معك برحم.

#### موقف قوم شعيب:

بعد أن دعا شعيب قومه فترة من الزمن إلى توحيد الله  
وإصلاح أحوالهم الاقتصادية وما يتبعها من آثار اجتماعية مصداقا  
لقوله تعالى: { وَإِلَىٰ مَدِينِٰ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ  
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا  
تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ  
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ  
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَتَرْتُمْ  
وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } 638.

<sup>638</sup>الأعراف 85، 86.

وبعد هذه المدة انقسم قومه إلى قسمين مصداقا لقوله تعالى:  
{وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا  
فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} {639}.

والنص يوحي أن قوم شعيب انقسموا في مسألة الإيمان به  
إلى قسمين هما:

قسم مؤمن

قسم كافر

هذا يعني أنه لا يوجد قسم ثالث على درجة التردد أو الخلط  
أو غير ذلك مما يجعل للطائفتين الثالثة.

المسألة الأخرى التي توحى بها الآيات هي مسألة التعادل  
الدلالي في السياق، فقد أشار شعيب إلى وصف من آمن بالطائفة،  
ووصف من كفر بالطائفة مكررا للفظ، هذا يدل على دلالات  
احتمالية منها:

التعادل في العدد

المقاربة في العدد

لكن الله عزّ وجلّ حدد المؤمنين بأن وصفهم بأهم قليل فقال  
جل وعلا: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ} {640}.

فكيف نفسر هذا التباين؟

---

<sup>639</sup>الأعراف 87.

<sup>640</sup>الشعراء 190.

نقول إن الذين آمنوا مع شعيب قليل كما هو مؤكد بالنص  
القرآني، ولكن نظرة شعيب إلى هذا القليل صدرت من يقين بنصر الله  
وعزة أهل الإيمان وإن قلّوا، وهو أنّ أهل الكفر وإن كثروا، لذلك  
فأهل الإيمان في نظر شعيب وإن قلوا يقابلون أهل الكفر وإن كثروا.

ويمكن أن نبحث في ملامح كلّ من المؤمنين والكافرين من  
قوم شعيب وعلى النحو الآتي:

أولاً: قسم مؤمن

آمن لشعيب في دعوته قليل من المؤمنين مصداقاً لقوله تعالى:  
(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ).

فمن هؤلاء القلة؟

وما صفاتهم؟

ولماذا وكيف آمنوا؟

إنّ الآيات القرآنية المعجزة قدمت لنا هذا القليل في مشهد  
الصراع بين شعيب وبين الملأ من قومه، فعرضت لنا هذا القليل كما  
كان يراه ويحكم عليه الكافرون من جهة، وكما يراه ويحكم عليه الحقّ  
من جهة أخرى، فقد وصف الكفار هذا القليل بأنّه:

. ضعفاء، {لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا

أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} 641.

. كاذبون، (وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ).

ويلاحظ في هذه الصفات تنطق من الفوقية وبها، لأنها تتحدث عن خروج استهوان أهل الإيمان بالعقيدة الجديدة التي يدعو إليها شعيب رسول الله، حيث كانت هذه الصفات شخصية لأنها عمدت إلى الحكم على الناس دون النظر إلى المواقف والأفكار التي آمن بها هؤلاء، كما إن هذه الصفات لا تنم عن دراية أو رغبة في الدراية بما حدث هؤلاء الذين آمنوا بدعوة شعيب.

أما الصفات الحقيقية لهذا القليل وكما يخبرنا العليم الخبير فتتحدد ب:

. مؤمنون (وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ)

. مرحومون (نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا)

. ناجون .

بالنسبة للصفة الأولى فالنص القرآني دلت على صدق إيمان من آمن مع شعيب لأنهم بقوا على إيمانهم مع إصرار الكافرين على الكفر، ومع التهديد الذي كانوا يتعرضون إليه حيث هددهم الكفار بالنفي من مدين (لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا) الآية هنا تبين أن حديث الكفار كان لشعيب ومن معه لأنها حولت الخطاب من المفرد (يا شعيب) إلى الجماعة (والذين معك) وهذا يدل على تعرض هؤلاء القلة من المؤمنين إلى التهديد لكنهم مع ذلك بقوا على الإيمان الثابت إلى أوصولهم إلى النجاة ثم بعد ذلك إلى مرحلة النجاة من العذاب برحمة من الله عز وجل مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا

جَاءَ أَمْرُنَا نَجِّنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ {642}.

هنا نتساءل:

كيف آمن من آمن؟

آمن المؤمنون بالحقّ الذي يُستدل إليه ببصيرة نافذة وصدر منشرح دون أن يتطلب ذلك عند من يمتلك هذه المواصفات معجزات وخوارق.

لقد رأى المؤمنون في شعيب حقائق كانت حججا عليهم، ومن هذه الحقائق:

#### عقيدته

ساد الشرك في عقيدة قوم شعيب زمنا، حيث كان الناس آنذاك يشركون بالله عزّ وجلّ فيعبدون عددا من الآلهة التي ورثوها من آباؤهم كما يخبرنا المولى الحقّ عزّ وجلّ: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} {643}.

فصلاة شعيب الموجهة بعقيدته الصادقة والواضحة والمجردة من كلّ أثر دنيوي كان من الحجج القوية له في الدعوة والتي كانت مرتكزا أساسيا لمن آمن مع شعيب، فهو لم يدعو لنفسه بل كان يدعو إلى الله عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ

---

<sup>642</sup>هود 94.

<sup>643</sup>هود 87.

مُفْسِدِينَ {644، ولم ينتظر من ذلك أجرا كما يخبرنا العليم الخبير: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {645، ولم يكن على المؤمنين إلا عبادة الله الخالصة ودون أن تشتت هذه العبادة أي مقابل على عكس ما كان يحدث مع معابد آلهة الشرك.

وقبل ذلك؛ فإنّ التوحيد طريقه العقل، فإذا كان الإنسان ذو عقل نافذ تحققت لديه البصيرة التي تجعله يختار الله عزّ وجلّ على من سواه في آية مقارنة ومن أيّ نوع.

ونعتقد أنّ من آمن مع شعيب انعم الله عليه بصفاء النية ورجاحة العقل الأمر الذي أفضى إلى نتيجة موجبة هي الإيمان ثمّ النجاة في الدنيا والآخرة.

وعقيدة شعيب هي عقيدة التوحيد الخالص (لا إله إلا الله)؛ أي لا إله من دونه (لا معبود من دونه) فلا وجود لمن يستحقّ العبادة غيره (لا إله إلا الله).

### بَيِّنَةُ شُعَيْبٍ:

البينة الدلالة الواضحة عقلية كانت أو حسية ومنه سميت شهادة الشاهدين بينة، وقيل: البينة من القول والكون ما لا ينازعه منازع لوضوحه وقال بعضهم البينة الدلالة الفاصلة بين القضية الصادقة والكاذبة، وقال بعضهم البينة ما ظهر برهانه في الطبع والعلم والعقل بحيث لا مندوحة عن شهود وجوده 646.

---

644 العنكبوت 36.

645 الشعراء 180.

646 التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، ج 1، ص 154.

عليه فالبيئة هي:

الدلالة الواضحة

الدلالة القطعية

دلالة فاصلة بين مختلفين

تكون عقلية أو حسية

متوافقة مع الطبع

هنا نتساءل:

ماذا يمكن أن تكون ملامح بيئة شعيب؟

نقول: إنّه من الممكن وعلى الاحتمال أن تكون البيئة مادية، وربما تكون معنوية، لقول شعيب: رأيتم، الرؤيا هنا تحتل أن تكون مادية بصرية لبيئة خص الله بها شعيبا، أو أن تكون الرؤيا قلبية، ولا يمكن الجزم في أحد هذين الاحتمالين لذلك يبقى أن يكون أيا منها واقع، وعلى هذا فيمنك وعلى الاحتمال أن تكون بيئة شعيب تجمع المادية والمعنوية.

وقوله تعالى: { يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } 647 فيه إشارة إلى ما آتاه الله تعالى من العلم والهداية والدين

والنبوة، وقوله: (وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا) إشارة إلى ما آتاه الله من المال الحلال 648.

### - صلاحه وإصلاحه:

من أبرز ما يترك الأثر في النفوس المؤمنة هو حقيقة دعوة الرسول، لأن هذه المبادئ تؤثر أكثر كلما كانت تهدف إلى الحق والخير والصلاح، ودعوة شعيب كانت دعوة إصلاحية بالدرجة الأولى مصداقا لقوله تعالى: { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } 649.

ويلاحظ أنّ شعيبا صلى الله عليه وسلم كان يريد الإصلاح وبدأ بنفسه فكان المصلح الأول في مدين بدليل قوله: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ)، وهذا يعني أن شعيب كان مصلحا، ودعوته دعوة إصلاح للعقيدة والسلوك على حد سواء، وتفصيل ذلك موجود في الحديث عن رسالة شعيب.

- صدقه:

لا نريد هنا، أنّ نسهب في أمر مفروغ منه وهو صدق وإخلاص النبيين فهو أمر قُطع فيه القول بما ثبت منهم من أفعال وأقوال، ولكن نريد الحديث هنا على مسألة صدق شعيب مع قومه، فقد كان صادق القول والفعل على النحو الآتي:

أولا: صدق القول

<sup>648</sup> تفسير الرازي، ج 8، ص 457.

<sup>649</sup> هود 88.

استعمل شعيب أسلوب الحوار الجدلي مع قومه مستخدماً الحجج والبراهين التي تضيفي على أقواله سمة الإقناع بما كانت تحمل من حقائق الدعوة ومبادئها.

وكانت مقولات شعيب ذات اتجاهات محددة هي:

1 - القول العقلي يكون القول عقلياً إذا انطلق من العلم فيكون من التعقل وهو المعنى المقابل للجهل<sup>650</sup>.

يلاحظ في حوار شعيب العقلي ارتكازه على التفكير ونفي الادعاء، فقد كان شعيب يبعد عن أقواله كل ما يمكن أن يجعلها مصدر شك أو ريبة، ويخبرنا الحق عن نص ما قال شعيب لقومه: {وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} 651، وكذلك قوله: {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} 652.

والمراد بالبُعد بُعد الزمن والمكان والنسب، فزمن لوط صَلَّى اللهُ عليه وسلّم غير بعيد في زمن شعيب صَلَّى اللهُ عليه وسلّم، والديار قريبة من ديارهم، إذ منازل مدين عند عقبة أيلة مجاورة معان ممّا يلي الحجاز، وديار قوم لوط بناحية الأردن إلى البحر الميت وكان مدين بن إبراهيم عليهما السلام وهو جد القبيلة المسماة باسمه<sup>653</sup>.

2 - القول العقدي

---

<sup>650</sup>الفروق اللغوية، ج 1، ص 522.

<sup>651</sup>الأعراف 86.

<sup>652</sup>هود 89.

<sup>653</sup>تفسير ابن عاشور، ج 7، ص 186.

تحدث شعيب حديثاً مفصلاً بما يتصل بأمور العقيدة الصحيحة، هنا من المهم التوقف مع عدد من الثوابت من أهمها:

. شعيب دعاهم إلى التوحيد

. قومه يعرفون الله ولكن أشركوا به

. الشرك موروث قديم عند قوم شعيب

لذلك؛ فالقول الدقيق هو أن رسالة شعيب جاءت لتصحيح الانحراف العقدي الذي حصل مع هؤلاء الذين ورثوا انحرافهم العقدي وتمسكوا به واتبعوه وذلك من خلال إعادة إحياء لمبادئ العقيدة الصحيحة التي كانت تملأ الأرض ومن أهم هذه المبادئ:

. (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ).

. (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ).

. (وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ

أَمَّنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا).

. (بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).

. (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ).

. (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) >

. (وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَةَ الْأُولَى).

. (وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ).

3- القول العاطفي

إنَّ إنسانية الرُّسل تشع بالعاطفة الحقيقة والخالصة تجاه النَّاس من المستهدفين بالإبلاغ كما تدفعهم للبحث عن طرق لخلاص النَّاس من العذاب بكلِّ وسيلة، وقد كان لشعيب خطاب عاطفي واضح مع قومه فقد بين لهم خوفه عليهم فقال كما يخبرنا العليم الخبير: {إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ} 654.

هنا بُني نظم الكلام على خوف المتكلم عليهم، دلالة على إحاضه النَّصح لهم وحرصه على سلامتهم، حتَّى جعل ما يُضُرُّ بهم كأنه يُضِرُّ به، فهو يخافه كما يخافون على أنفسهم، وذلك لأنَّ قوله هذا كان في مبدأ خطابهم بما أرسل به.

وفعل الخوف يتعدى بنفسه إلى الشَّيء المخوف منه، ويتعدى إلى مفعول ثانٍ بحرف (على) إذا كان الخوف من ضرر يلحق غير الخائف، والعذاب المخوف ويومه يحتمل أهما في الآخرة أو في الدنيا 655.

ومن عاطفته الصادقة كانت النصيحة وسيلته في التبليغ، النصيحة هي الدعوة إلى ما فيه الصلاح والنهي عما فيه الفساد 656، مصداقا لقوله تعالى: {لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ} 657.

والنَّصح والنَّصيحة كلمة جامعة، يعرَّب بها عن حسن التَّيَّة وإرادة الخير من قولٍ أو عملٍ، ويكثر إطلاق النَّصح على القول الذي فيه تنبيه للمخاطب إلى ما ينفعه ويدفع عنه الضَّر.

---

<sup>654</sup>هود 84.

<sup>655</sup>التحرير والتنوير، ج 5، ص 339.

<sup>656</sup>التعريفات، ج 1، ص 309.

<sup>657</sup>الأعراف 94.

ويلاحظ أنّ السياق المعنوي (نصحت) ركز الدلالة من خلال  
الزيادة في لكم بلام زائدة دالة على معنى الاختصاص للدلالة على أنّ  
النّاصح أراد من نصحه ذات المنصوح، لا جلب خير لنفس النّاصح،  
ففي ذلك مبالغة ودلالة على إحاض النصيحة، وأتّها وقعت خالصة  
للمنصوح، مقصودا بها جانبه لا غير، فربّ نصيحة يتنّفَع بها النّاصح  
فيقصد النّفْعين جميعا، وربّما يقع تفاوت بين النّفْعين فيكون ترجيح  
نفع النّاصح تقصيرا أو إجحافا بنفع المنصوح 658.

ثانيا: صدق الفعل

أمّا الفعل الصادق فتمثل في نوع السلوك الذي اختاره  
شعيب في مسيرة الدعوة، فقد صدق شعيب قومه من خلال قوله  
المخبر عنه في قوله تعالى: { وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ  
إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ  
وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } 659.

أي؛ ما أريد ممّا نهيتكم عنه أن أمنعكم أفعالا وأنا أفعلهما، أي  
لم أكن لأنّهاكم عن شيء وأنا أفعله، فقوله: (أن أخالفكم إلى ما  
أنهاكم عنه)، أي؛ أنّ أفعال خلاف الأفعال التي نهيتكم عنها بأن  
أصرفكم عنها وأنا أصير إليها. والمقصود: بيان أنّه مأمور بذلك أمرا  
يعمّ الأمة وإياه وذلك شأن الشرائع، وفي هذا تنبيه لهم على ما في  
النهي من المصلحة 660.

---

<sup>658</sup>التحرير والتنوير، ج 5، ص 342.

<sup>659</sup>هود 88.

<sup>660</sup>تفسير ابن عاشور، ج 7، ص 184.

ومن هذا نقول: إنّ شعيبا صدق قومه بأفعال الإصلاح التي دعا إليها، بمعنى: أنّه كان هو والذين آمنوا يقومون بأفعالهم الصادقة لينبئ ذلك الآخرين بالصدق بالقول والفعل من شعيب والذين معه، ومن أفعال شعيب:

1 . توحيد الله .

2 . الصّلاة .

3 . لا يبخس النّاس أشياءهم .

4 . مصلح في الأرض .

5 . لا يقعد بكلّ صراط .

6 . لا يصد عن سبيل الله من آمن .

7 . يتغيها عدلا .

8 . ميزانه قسط مستقيم .

كثير كافر:

لقد كان للكافرين من قوم شعيب عدة مواقف يمكن أن نرتبها على النحو الآتي:

1. موقف التعجب، يعدّ التعجب من مقالة شعيب من أوّلى المواقف التي اتخذها قومه، والحقّ إنّ مصطلح التعجب يرد الآن على أسماعنا وقد اعتدناهُ ولكن لمعرفة سبب تعجب قوم شعيب علينا أن نعرف معنى التعجب أوّلا لنفهم مبرر وسبب التعجب، التعجب في

اللغة مشتق من العجب، والعَجَبُ إنكارٌ ما يَرُدُّ عليك لِقَلَّةِ اعْتِيادِهِ،  
أما في الاصطلاح فالتعجب هو انفعال النفس عما خفي سببه<sup>661</sup>.

ولو بدأنا باللغة فإن التعجب مصدره عدم اعتياد الأمر  
لافتقاد نمطية التكرار فيه، فهو جديد على النَّاسِ، هنا نسأل:

. هل كان قوم شعيب بلا عقيدة قبله؟

. هل خلا ذهنهم من المعرفة بالله مطلقا؟

. هل كان شعيب أول الرُّسل؟

الحقّيقة التي نريد تأكيدها أن الأرض استعمرت من قبل  
المؤمنين بالله عزّ وجلّ أوّلا (آدم وأولاده) لذلك فإن أوّل ما كان على  
الأرض من عقائد هي لا إله إلا الله، وهذه العقيدة هي أصل كلّ  
عقيدة، والانحراف عند النَّاسِ حصل بعدما أساءوا فهم حقيقة العقيدة  
الصحيحة فأشركوا بالله عزّ وجلّ دون أن تندثر عقيدة التوحيد لأنها  
الحقّيقة المطلقة فهي ترتبط بالله عزّ وجلّ لذلك لا يمكن أن تخلو  
الأرض من هذه العقيدة في زمن من الأزمان وإن ظهر الكفر  
والإشراك فإننا نرى في الوقت ذاته من يبقى على عقيدته لصحيحة  
يدافع عنها ويدعو النَّاسِ إليها.

من هذا نعتقد أنّ قوم شعيب كان لديهم معرفة بعقيدة  
التوحيد وبأمر السماء، وذلك من خلال قريهم مكانيا وزمانيا من  
رسالات سابقة وربما معاصرة ويؤكد ذلك ما أخبرنا به المولى عزّ وجلّ  
مما ورد على لسانهم مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ  
شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ

---

<sup>661</sup> التعريفات، ج 1، ص 19.

صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي  
رَحِيمٌ وَدُودٌ {662}

وهذه الآية تبين:

. أنهم يعرفون الله عزّ وجلّ بدليل تذكير شعيب (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ).  
رَبِّكُمْ).

. أنّ هناك أخبارا موروثة في العقيدة.

. معرفتهم برسالات سابقة ومعاصرة (قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ  
قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ).

عليه؛ فإنّ قوم شعيب كان لديهم معرفة بالله عزّ وجلّ وورثوا  
عقيدة من السابقين، لكنهم اختاروا أن يرثوا عقيدة آبائهم على أن  
يتركوها من أجل عقيدة التوحيد التي ذكرهم بها شعيب صلى الله عليه  
وسلم.

#### 1 . موقف التكذيب

يقول الحقّ واصفا موقف من كفر من أهل مدين من شعيب  
بالتكذيب مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا  
فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ} {663}.

يحصل التكذيب بالشيء الموجود ولا يحصل للاشياء، بمعنى  
أن المكذب يكذب بما يرى ويسمع ويعقل ولا يُكذب بالاشياء

- فما هو الشيء الذي كذبت به قوم شعيب؟

---

<sup>662</sup>هود 90، 91.

<sup>663</sup>الأعراف 92.

أجابت الآيات عن ذلك بقوله عز وجل:، {قَالُوا يَا شُعَيْبُ  
أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ  
إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي  
وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ  
إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ  
أُنِيبُ} 664.

فلقد كذب القوم رسول الله في:

. عقيدته

. صلاته

. إصلاحه

2. الكفر بالدعوة والإصلاح:

يأتي بعد التكذيب الكفر موقفاً آخر من شعيب ودعوته  
وإصلاحه، وقد اختار الملاء من قوم شعيب أن يكفروا وان يقدموا  
مبررات واهية لهذا الكفر، مجموعة من المبررات التي لا تتعلق بالعقيدة  
بل تتعلق بما يمكن أن نسميه مبررات نفعية أو طبقية، يقول الحق جل  
وعلا: {وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا  
لَخَاسِرُونَ} 665.

(وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا)، (وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)

(وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نُنْظُرُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ)

---

<sup>664</sup>هود 87، 88.

<sup>665</sup>الأعراف 90.

فمبررات الكفر هي:

. بشرية شعيب.

. المستوى الطبقي لشعيب وللمؤمنين.

. ظن الكذب.

كلّ هذه المسائل لا تمس العقيدة التي جاء بها شعيب (وإلى  
مدّينَ أخواهم شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ).

لقد أراد شعيب إصلاح عقيدة قومه وسلوكهم في التعاملات  
الاقتصادية لأنها كانت تعاني من انحرافات واضحة تتمثل في:

أ . الإشراك بالله (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا  
يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)

ب . معصيته عزّ وجلّ (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

ج . عصيان الرسول (وَأَطِيعُونَ)

د . التطفيف بالميزان والمكيال (أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ)

هـ . بخر الأشياء (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

و . إشاعة الفساد (وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

وما بين مبررات الكفر ومبادئ عقيدة هؤلاء يتبين أن هؤلاء  
الكفار لم يكن لهم أيّ أثر جدلي في قضية البحث عن حقيقة صدق  
شعيب سوى الكفر والتكذيب، فقد أصدروا رأيهم وأصرروا عليه  
لاسيما رجال الملاء الذي وصف بأنهم الذين كفروا للإيماء إلى أن  
كفرهم هو الذي أنطقهم بهذا الرد على شعيب، رافضين حتى فهم

مقالات شعيب في العقيدة والإصلاح (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا  
مِّمَّا تَقُولُ).

إن إشارتهم إلى أنهم ما يفقهون كثيرا فيها إيجاء بقلة ما فقهوا،  
وهو في الحقيقة إشارة إلى أنهم كانوا يفقهوا ولكنهم أصروا على كفرهم  
وطغيانهم.

ونقول: لو كانوا قد فقهوا القليل من دعوة شعيب لما عاملوه  
كما فعلوا، بل لكان هذا القليل يسير بهم نحو الكثير، ولكن الاعتقاد  
هو أنهم فقهوا كل ما جاء به شعيب ولكنهم أصروا على الكفر  
والتكذيب فحقّ عليه العذاب.

### 3. السخرية:

كانت السخرية ممّا ظهر من مواقف بعض قوم شعيب على  
الدعوة وما فيها من وعد ووعد وقد ظهرت سخريتهم في قولهم  
لرسولهم: (إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

والسخرية: الاستهزاء، وهو تعجب باحتقار وحمق.

السخرية هنا تبدو من خلال الوصف الدال على ضده، والمثير  
في فكر ملاً مدين هو هذا الحكم المغاير للحقيقة، فالمعلوم فيما نعتقد  
أن الأنبياء والرسل عموما يصدرن في عقيدتهم وفكرهم وسلوكهم عن  
رشد وحلم، ولاسيما شعيب الذي كان رشيدا في تعامله معهم في كثير  
من الأمور ومن أبرزها هو طريقة إجراء الإصلاح، فقد أدخل شعيب  
نفسه معهم في تطبيق الإصلاحات مع أنه لم يكن من المفسدين  
ولكن الرشد الذي يعمل به شعيب هو الذي دفعه لذلك.

المسألة الأخرى التي تتبين من مسيرة شعيب مع قومه هو حلمه عليهم مصداقا لقوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ}. {

فلم يقم شعيب بأي شيء يمكن أن يعكس عدم حلمه معهم، لذلك فالغريب حقيقة والساخر حقيقة هو موقف الملام من شعيب صلى الله عليه وسلم.

#### 4. رفض الحوار:

اجتهد شعيب في تفصيل تبليغ دعوته، فاختر النفقيه بالدعوة ومبادئها، فكان يبلغ في الليل والنهار، في السر والعلن، في الملام وفي السوق، ولكنه لم يلق آذانا واعية إلا في قليل ممن آمن معه، أما كثير الآخريين فقد كذبوا وكفروا، وهؤلاء فصل شعيب القول وصولا إلى التفقيه وذلك لدعوتهم إلى الحق وبرهن لهم بالحجج وهذا ما تبين من لسانهم كما أخبرنا العليم الخبير: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مَّا تَقُولُ).

وكذلك ما جاء في وصف شعيب لموقفهم من الله ودعوته: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ).

والاستفهام إنكاري، أي الله أعز من رهطي، وهو كناية عن اعتزازه بالله لا برهطه فلا يريبه عدم عزة رهطه عليهم، وهذا تهديد لهم بأن الله ناصره لأنه أرسله فعزته بعزة مرسله.

والمراد بالظهري الكناية عن النسيان، أو الاستعارة لأن الشيء الموضوع بالوراء ينسى لقلة مشاهدته، فهو يشبه الشيء

المجموع خلف الظهر في ذلك، فوقَ (ظهريًا) حالًا مؤكّدة للظرف في قوله: (وراءكم) إغراقًا في معنى النسيان لأنهم اشتغلوا بالأصنام عن معرفة الله أو عن ملاحظة صفاته 666.

عليه:

لقد فقه ملاً مدين ما يقول شعيب ولكن قرروا أن يجعلوا ذلك خلف ظهورهم، لا لشيء سوى أنهم نظروا إلى المسألة نظرة تجارية، فقد اعتقدوا إن الإيمان بما جاء به شعيب وإتباع الإصلاح الذي ينادي به سيؤدّي إلى خسارتهم مالياً واقتصادياً، فالمسألة هي إهمال العقيدة والإبقاء على الحسابات المادية الاقتصادية التجارية في الحياة.

#### 5 . التهديد:

استخدم قوم شعيب التهديد والتلويح بالقوّة مع شعيب والذين معه كما يخبرنا العليم الخبير: { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ }، وقولهم له (وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)

فقد قام الكافرون من قوم شعيب بتهديده ومن معه، والتهديد كان على مستويين:

الأوّل: الإخراج.

معنى الإخراج وهو: مصدر أخرج، ويعني: الدفع من الداخل، وقد يعني: الإبعاد والتنحية والإخراج 667.

---

<sup>666</sup>التحرير والتنوير، ج 7، ص 189.

عليه: فإن إخراج الكافرين للمؤمنين من قوم شعيب يم بالسلوك المفضي إلى الدفع بهم خارجا دون هدف ولا غاية سوى إبعادهم عن مدين ظلما، فالإخراج سلوك الكافرين مع من خالفهم العقيدة من المؤمنين.

الثاني: الرجم.

هنا كان التهديد بنوع من العقاب يستخدم لمن يخرج عن العرف عندهم، وقد كانوا ينظرون لشعيب ومن معه على أنهم مجموعة من الخارجين على الجماعة (الملا)، وإنهم اختاروا رأيا يخالف رأي الملا لذلك حقّ عليهم العقاب، ولعلمهم بأن شعيب في دعوته لم يكن ممن يستحقّ العقاب، فلم ينفذوا بل اختاروا التهديد لرغبتهم في أن ينال هذا التهديد من شعيب ومن معه ليعودوا سيرتهم الأولى هذا من جانب.

أما الجانب الآخر الذي دعاهم لعدم تنفيذ تهديدهم فيعود لرهط شعيب ومكانته وتأثيره في مدين، حيث كانوا يرون فيهم مانعا لتحقيق الرجم.

6. التحدي

قال الملا لشعيب مقالة فيها تحدي الجاهل طالبين منه أن يأتيهم بالعذاب إن كان من الصادقين، ويخبرنا المولى عزّ وجلّ عن نص مقالتهم في قوله جلّ وعلا: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} 668.

---

<sup>667</sup>معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 50

<sup>668</sup>الشعراء 187.

هنا يظهر التحدي في منطق هؤلاء، وهو تحدي يكشف عن عدم فهم طبيعة دعوة شعيب بل يكشف أكثر عن عدم دخول الإيمان بالمطلق في قلوب هؤلاء لأنهم تصوروا منكرين أن شعيبا هو الذي يمكن أن يأتي بالكسف من السماء، فأجابهم صلى الله عليه وسلم بجواب صحيح فقال كما يخبر المولى عز وجل: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ 669.

والمعنى: أن إنزال العذاب ليس إلي وإنما هو خلق الله تعالى فيفعله إن شاء كما شاء، (ويا قوم اعملوا على مكانتكم) أي غاية تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، بمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقة لي وسائر ما لا خير فيه.

وأن سألني عاملا على مكاني حسبما يؤيدني الله تعالى ويوفقي بأنواع التأييد والتوفيق، وكأنه حذف على مكاني للاختصار ولما فيه من زيادة الوعيد 670.

### موقف البخسون من رسالة شعيب:

إن من أوليات أصحاب الثروة غير المشروعة من المطففين والمبخرين والمرابين وأمثالهم، أن تكون أولياتهم قطع الصلة بين الأفراد الذين يجري عليهم الظلم الاجتماعي وبين الواقع الاجتماعي الذي يتم فيه حدث الظلم من التطفيف والبخس حتى لا يكون هؤلاء الأفراد امتداد اجتماعي مصلح، يُجمع عليه المجتمع، فيأخذ بالمجتمع إلى الحق والعدل، ولذا: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا

---

<sup>669</sup>هود 93.

<sup>670</sup>تفسير الألوسي، ج 8، ص 348.

شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِيبِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا  
كَارِهِينَ {671}.

فهم أمّا أن يخرجوهم من قريتهم أو يقروهم على ما يفعلون  
حفاظا على هذا الكسب الحرام من أجل المحافظة على الفارق الطبقي  
والاجتماعي كما تفعل اليوم هذه الدول الغنية، بابتداع مصطلحات  
تحافظ على الهوة بين الأغنياء والفقراء، أو بعبارة أدق بين المطففين  
الباخسين الظالمين، وبين من يقع عليهم هذا الظلم تحت مصطلحي:

. الدول الكبرى ذات الغنى الطاعي.

. الدول النامية المبخوسة الحقّ.

إنّ هذه المصطلحات من قبل هؤلاء، ومن قبلهم قوم  
شعيب، إنّما هي المحافظة على سير خطة إفقار العامّة تهدف إلى  
إحداث معاناة معيشية شديدة، تستهلك كلّ الطاقات الذهنية  
والنفسية والمادية للإنسان، ممّا يؤديّ ذلك إلى تفتيت العلاقات  
الاجتماعية نتيجة لهذا الظلم والغبن، فيكون همهم الأكبر تحقيق أكبر  
قدر ممكن من المصالح الشخصية لا نقول من الرّبح، لأنّ الرّبح له  
طرقه المشروعة ووسائله المباحة، وإنّما بالكسب الحرام وهضم حقوق  
الآخرين وبخس أشياء النّاس من أجل زيادة غناهم.

إنّ الغنى الفاحش الذي يقوم على بخس النّاس أشياءهم،  
يؤديّ إلى تكس الأموال بأيدي قلة من أفراد المجتمع الذي يقود  
بالنتيجة إلى الترف المفرط الذي يفقد أصحابه الإحساس الحقيقي  
بغيرهم من البشر، وعندئذٍ أي دعوة إلى الإصلاح ينظرون إليها على  
أنّها إضرار بمصالحهم لأنهم فقدوا ذلك الإحساس بالآخر، وهذا الأمر

---

<sup>671</sup>الأعراف 88.

سيجعلهم يفقدون إحساس البحث عن الحقّ أو معرفته؛ لأنّ الترف أنشأ عندهم معيارا للحقّ وهو المال الذي يستطيعون الحصول عليه بصرف النظر عن الوسيلة.

إنّ رسالة شعيب صلّى الله عليه وسلّم هي رسالة إصلاحية في الدعوة إلى الحقّ ومعرفة حدوده، ولما كانت تحمل رسالة شعيب صلّى الله عليه وسلّم الخطر على مصالحهم، عندما أوقفهم على حقيقة أمرهم من الممارسات الباطلة، الأمر الذي جعلهم يفقدون إدراك الواقع الذي يمارسونه، غير أنّ الواقع الذي يجب أن يكونوا عليه ما تحمله رسالة شعيب من إصلاح في إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل.

إنّ المترفين من أصحاب المال في الكسب غير المشروع لديهم فلسفتهم الخاصة في وعي التصرف الذي يمارسونه وفق القيم الأخلاقية التي يحكمون بها على الأشياء بما تقتضيه مصالحهم، لا وفق ما يقتضيه الحقّ والعدل، فهم لديهم مفاهيم نظرية يقوم عليها التصرف والسلوك، فيبررون:

. علة كلّ تصرف.

. حكمة لكلّ سلوك.

. أساس لكلّ واقع.

. منتهى لكلّ غاية.

. قيمة لكلّ إنسان.

ومن هنا؛ فإنّ أهم مقتضيات الصراع بين رسالة شعيب صلّى الله عليه وسلّم الإصلاحية وبين ممارسات قومه في بخس الناس أشياءهم، تتوقف على تخلص الإنسان من الظلم الناتج عن البخس

الذي يؤدي إلى الفقر، وواقع الغيبوبة النفسية والذهنية التي يعيشها  
الباخسون من أنهم يفعلون في أموالهم ما يشاؤون، وهذه المشيئة ليست  
مشيئة إلهية، وإنما هي مشيئة صادرة عن إنسان يجب أن يتساوى في  
هذه الإنسانية الباخس والمبخوس، فإذا تساوى فإن هاتين الصفتين  
سوف تتلاشيان من المجتمع ويحل محلها الحق والواجب.

ولذا، نجد شعيب صلى الله عليه وسلم يعمل على إزالة  
الأسباب المؤدية إلى الظلم والفقر من المجتمع بوسائل كثيرة منها:

. اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

. لا تنقصوا المكيال والميزان.

. لا تبخسوا الناس أشياءهم.

. لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها.

. لا تقعدوا بكل صراط.

لقد حاول شعيب صلى الله عليه وسلم أن يعيدهم إلى جادة  
الحق والصواب بأساليب شتى منها:

. فطرية: وهي عبادة الله تعالى.

. عقلية: بتعريفهم بالحق والباطل.

. نفسية: بالنهي عن القعود بكل صراط.

فهذه الأمور منبهات للعقل البشري كي يفיק من غيبوبة  
البخس والظلم، إلى صحوة الحق والعدل، وبهذا وقف شعيب صلى  
الله عليه وسلم بوجه هؤلاء ليمنع الترف الباخس والثراء المستعلي،  
بإحقاق الحق وإزهاق الباطل، واستبدال هذه القيم التي وضعها قومه

ميزانا للتعامل مع الناس، بمجموعة إيمانية تتمثل فيها الفضائل الإلهية، قال تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} 672.

نحن لا نقول إن تصور شعيب صلى الله عليه وسلم في مواجهة قومه يطلب منه أن يبين لقومه الغنى الطاغى الذي يسبب الفقر المدقع، وإنما هو يبلغ ما جاءت به من الرسالة السماوية من أسس التعامل الحق الذي يعدل بين الإنسان وأخيه الإنسان.

إن الحق والعدل فضائل من الله تعالى لا يرفضها إلا كافر أو ظالم، ولهذا، اعتراض قوم شعيب صلى الله عليه وسلم على رسالته، باعتبارها خروج على نظام لا يملكون حياله إلا الخضوع له والاستسلام إليه، لما تمكّن من نفوسهم من الظلم والتسلط وبخس الناس حقوقها، ولأن الحق في رسالة شعيب صلى الله عليه وسلم أوضح من الشمس في رابعة النهار، دعاهم ذلك إلى اللجوء إلى أسلوب ماكر فيه:

. الاستهزاء.

. التهكم.

. الاستغراب.

---

<sup>672</sup>الشعراء 177 . 183.

ولذا، { قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا  
أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ } 673.

فهذا النظام الإصلاحي الذي جاء به شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقيد لهم حرية التصرف في أموالهم وفق مشيئتهم على النحو الذي يروونه مناسبا لضمان مصالحهم على حساب حقوق الآخرين: (أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء).

غير أنّ الذي لم يدركوه أن شعيبا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من خلال منعهم بخص الناس أشياءهم، كذلك لا يقر أحدا أن يبخر قومه أشياءهم، ذلك أنّ قومه لما امتلكوا القوّة والقدرة على قهر الآخرين مارسوا فعل البخر، فإذا ذهبت قوتهم وبأسهم، وكان الآخرون أقوى منهم وأكثر غنى، فإن فعل قومه يبيح للآخر أن يبخر قومه أشياءهم طالما هو مقتدر على غرار ما يفعل قومه، ولهذا السبب أراد شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يفهمهم، أنّه لا يرضى لهم ذلك، ولا يرضاه لنفسه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يرضاه لغيرهم عندما قال: { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } 674.

وقد أراد شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يفهمهم أن البخر محرم على جميع الناس:

. أن لا يبخر قومه الناس.

---

<sup>673</sup>هود 87.

<sup>674</sup>هود 88.

. أن لا يبخس النَّاس قومه.

. هو ملتزم بما يأمرهم به.

غير أنّ الذي تأصّل في نفوسهم من البخس والظلم وهضم الحقوق، وما تعود عليهم هذه الممارسات الظالمة من كسب حرام، كانت السبب في تلاشي الإحساس الطبيعي المركوز في النفس البشرية بالرغبة في الحقّ والعدل النظام، ولذا، لجأوا إلى أسلوب يضمنون به تدفق هذه الأموال من البخس بإبعاد الرقيب عن التصرف، قال تعالى: { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ } .

فإخراج المحرض الذي هو شعيب صلّى الله عليه وسلّم من المجتمع واجب بالنسبة لهم، تملية عليهم المصالح المادية التي تتحقّق لهم من خلال البخس، وبلك يمنعون عنهم الضرر في أموالهم، والضرر بالنسبة لهم حاصل من جهتين:

. الأولى: أنّه يمنعهم من البخس.

. الثانية: أنّه ينه الآخريين ويحذرهم من البيع والشراء مع قومه.

فإذا أخرجوا شعيبا صلّى الله عليه وسلّم من قريتهم، فإن ذلك سيكون بمثابة كسب كبير لما كان يسبب لهم من متاعب على الأقل، لأنهم لم ينتهوا إلى ما نهاهم عنه، وبذلك تخلو الساحة من الصوت المعارض الذي يسفّه أعمالهم، وبالتالي فإن الرقيب أو المحرض الذي يعتبر بمثابة الضمير الاجتماعي الحي، قد غيّبوه عن ساحة الصراع.

وأما عودته في ملتهم، فقد قدموا إخراجهم من القرية، وأخروا عودته في ملتهم، وهذا في منتهى الوعي منهم ومعرفتهم بشعيب صلى الله عليه وسلم أنه لن يعود في ملتهم وما كان فيها أصلاً، وكلامهم هذا أقرب إلى المقايضة، لأن إخراجهم من قريتهم أهون عليهم وأسهل من أن يكون على ملتهم، ولذا قدموا الممكن وهو الإخراج، وأخروا غير الممكن وهو دخوله في ملتهم.

وأما تمنى غير الممكن فهو الأقرب إلى نفوسهم، والأفضل لمفاسدهم، لأن الذي كان يدعو إلى عدم البخس تخلى عن ذلك، وهذا يمكن أن يكون دليلاً لهم على صحة ما يفعلون من أن الذي كان يمنعهم ويحرض عليهم ويسقّه أعمالهم وما يفعلون، قد تخلى عن ذلك لما ظهر له صحة عملهم ورجاحة رأيهم في فعلهم بأموالهم ما يشاؤون.

غير أن امتناع المستحيل جعلهم يقولون بداية لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ليقينهم بعدم قدرتهم أن يدخلوه في ملتهم.

ولما لم يتحقق لهم أي واحدة من الأمنيتين:

. هم لم يستطيعوا إخراجهم من قريتهم.

. هو ما كان في ملتهم حتى يعود فيها.

ولذا، لما أعياهم أمره، وأسقط في أيديهم، لجأوا إلى التهديد المقرون بالشفاعة ظاهراً، غير أنّ الذي نعتقده أنّ مثل هؤلاء لا يقيمون للآخر وزناً إلا إذا كان أقوى منهم، فهم لم يتركوا رجمه إلا خوفاً من رهطه، ولذلك لما هابوا رهط شعيب صلى الله عليه وسلم

قالوا: { يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا  
رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ } 675.

وهذا الموقف ليس احتفاء بشعيب كما هو ظاهر، ولا هو تقدير لقومه، لأن الاحتفاء والتقدير عند هؤلاء يقوم على أكبر كسب من متاع الحياة الدنيا، وذلك من غاياتهم التي يريدون تحقيقها، ولذا يعلمون أنهم لا يحتفي بهم وهم على باطلهم، إلا أتباعهم من أهل الباطل، وأما أهل الحق فلا يعباون بما عندهم من متاع الحياة الدنيا، ولهذا فإن أهل الباطل يضيقون ذرعا بأهل الحق، لعدم اغترارهم بما عندهم، ومن هنا ضاقوا ذرعا بشعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبمن آمن له، فشعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذين آمنوا له، علموا أن ثواب الله خير مما يصنع هؤلاء كما قال تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمُ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ } 676

فالنظرة والسلوك والتصرف الميزان يختلف ما بين شعيب والذين آمنوا معه، وبين قومه الذين أصروا على البخس والظلم، وهذا فارق طبيعي بين أهل الحق وأهل الباطل، لأن أهل الحق يزنون الناس وما يملكون، بالإيمان والعمل الصالح والصبر، وهي الصفات التي يترتب عليها رضوان الله وثوابه، وأهل الباطل يزنون الناس بما عندهم من ملك وغنى.

وهذه الصفات الحميدة التي أمر بها الله تعالى وتمسك بها شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذين آمنوا معه أظهرت أن أهل الباطل يضيقون ذرعا بأهل الحق، ويضيقون من نصحتهم وإرشادهم وأمرهم

---

<sup>675</sup>هود 91.

<sup>676</sup>القصص 80.

بالمعروف ونهيههم عن المنكر، ذلك أنّ أهل الباطل من قوم شعيب  
صلى الله عليه وسلم يرون شعيباً ومن معه من المؤمنين أنهم يقيدون  
تصرفاتهم المنكرة التي يتمتعون بها ويطلقون لأنفسهم العنان فيها، إنما  
قيدهم شعيب بقيود الشرع من الحلال والحرام التي تضرّ بمصلحتهم  
من باب أنها تدعو إلى التزام عبادة الله وحده والعدل في الكيل والميزان  
وترك الظلم والفساد، قال تعالى: {وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا  
قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي  
أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ  
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ  
مُفْسِدِينَ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ  
قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي  
أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} 677.

فإن كان الفعل في الأموال وفق مشيئة الإنسان المنفلتة من  
العقل الذي يقبل الشرع والقيود الذي يفرض السلوك والتصرف فهي  
مشيئة شيطانية دون شك.

### الصد عن سبيل الله:

قال تعالى: {وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ  
سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكْتَرْتُمْ  
وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} 678.

إن شعيباً صلى الله عليه وسلم نهي قومه من أن يقعدوا على  
طرق الدين ومناهج الحق، لأجل أن يمنعوا الناس عن قبول عن قبول  
الحق: (وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ). فقلوه صلى الله عليه وسلم: بكلِّ

<sup>677</sup>هود 84 . 87.

<sup>678</sup>الأعراف 86.

صراط، أي جاء النهي عن جميع الأصرطة التي يقعدون بها كي يصدوا  
الناس من مادية كطريق المرور والسابلة، ومعنوية كطريق الهدى  
والرشاد.

فإن كان الصراط هو الطريق الذي يسلكه الناس، فهذا يعني:  
أهم كانوا يجلسون على الطرقات ويخوفون من آمن بشعيب صلى الله  
عليه وسلم.

وكذلك فإن الصراط يحمل معنى مناهج الدين والحق والعدل  
فنهاهم عن ذلك بقوله: (وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ) فهو منع عن  
الاقتداء بالشيطان كما في قوله تعالى: {لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ  
الْمُسْتَقِيمَ} 679. ولكن شعيبا صلى الله عليه وسلم بمنعه قومه  
قعودهم بكل صراط هو أقرب إلى الصراط الشرعي الذي يبين مناهج  
الحق منه إلى طريق السابلة بدليل قوله بعد ذلك: (وَتَصُدُّونَ عَن  
سَبِيلِ اللَّهِ)

فنهاهم عن القعود على صراط الله تعالى وبين لهم دناءة  
أفعالهم التي تترتب على قعودهم كما بينها لهم:

. يوعدون الناس بالتخويف.

. يصدونهم عن سبيل الله.

. يبعثون العوج في تصرفاتهم.

ولذا، نهاهم من الجلوس في الطريق، ومن القعود بكل صراط.

---

<sup>679</sup>الأعراف 16.

وأما الصدّ فقد جاء في لسان العرب: "صدد: الصدّ الإعراض والصدوف صدّ عنه يصدّ ويصدّ صدا وصدودا، أعرض ورجل صادّ من قوم صُدّا وامرأة صاّدة من نسوة صواّد وصداد أيضا، قال القطامي:

أبصارهن إلى الشبان مائلة. . . وقد أراهن عنهم غير صُدّادٍ

ويقال: صدّه عن الأمر يصدّه صدا منعه وصرفه عنه، قال الله عزّ وجلّ: وصدّها ما كانت تعبد من دون الله، يقال عن الإيمان العادة التي كانت عليها لأنّها نشأت ولم تعرف إلا قوما يعبدون الشمس فصدّتها العادة وهي عادتها بقوله: إنّها كانت من قوم كافرين. المعنى صدّها كونها من قوم كافرين عن الإيمان وفي الحديث فلا يصدّنكم ذلك وصدّه عنه وأصدّه صرفه، وفي التنزيل فصدّهم عن السبيل"680.

فالصدّ هي الغاية الرئيسة لقوم شعيب صلّى الله عليه وسلّم، التي يريدون أهل الباطل تحقيقتها من خلال تصرفاتهم لما تحقّق لهم من أهداف تكمن فيها الغايات، وهي الصدّ عن سبيل الله ومحاربة الحقّ وأهله، ونصر الباطل وتثبيته في الأرض، أي تحقّيق كلّ ما يضادّ غايات شعيب والذين آمنوا معه.

وقد أوضح القرآن الكريم في آيات كثيرة منه أن أهل الباطل من قوم شعيب وأمثالهم كلّهم يصدون عن سبيل الله، ولا يقتصر ذلك على قوم شعيب، وإنّما يشمل سلوك الصدّ هن سبيل الله تعالى كلّ من خالف الأنبياء والرّسل صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين يستوي في ذلك:

---

<sup>680</sup>لسان العرب، ج 3، ص 245.

. الكافرين الذين لم يؤمنوا مطلقا

. أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين خالفوا أنبياءهم.

. المشركون الذين اتخذوا مع الله آلهة.

. الوثنيون الذين تفردوا بعبادة أحد المخلوقات.

. المنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

وفعل الصدّ في اللغة يأتي لازما، ويأتي متعديا، فعندما يكون لا يتعدى بنفسه إلى مفعوله، وهذا يعني تطابق الجانب اللغوي مع السلوك البشري الذي يعدي الصدّ إلى الآخرين، ومعناه محاولة الصّدّ أو الذين يصدون منع الآخرين عن الشيء والامتناع عن قبوله، وعندما يأتي متعديا، يكون معناه صرف غيره عن الشيء وعن قبوله، ولا يصرف الإنسان غيره عن الحقّ إلا إذا كان هو نفسه قد انصرف عنه، لأن صاحب الحقّ لا ينصرف عنه ولا يصرف غيره.

إنّ هذا الصدّ الذين وقفنا عليه عند قوم شعيب، نجد كأنهم أسسوا لمن جاء من بعدهم، فهم أول من صدّ الناس عن الفضائل، فكانت سنة سيئة منهم لمن تلاهم من الأقوام، ولذا، نجد هذا الصدّ ليس لدى الكافرين فقط، وإنما عندهم وعند غيرهم.

قال تعالى عن أهل الكتاب: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُوهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} 681.

---

681آل عمران 99.

وقال تعالى عن علمائهم وعبادهم: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } 682.

وقال عن اليهود منهم: { فَظَلَمُوا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا } 683.

وقال تعالى عن المشركين: { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بِطَرًا وَّرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } 684.

وقال تعالى عن المنافقين: { وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا } 685.

وقد قرن الله تعالى الصدّ عن سبيل الحقّ، قرنه بالكفر في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى ووصفهم بأوصاف شتى، وبين لهم العقاب التي يوصلهم إليها صدّهم:

1 . أنّهم موغلون في الضلال ببعدهم عن الحقّ قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا } 686.

2 . أنّ الذين يصدون الناس عن الحقّ، لهم ضعف من العذاب، وذلك أن ينالون عذاب كفرهم، وعذاب الصدّ الذي كانوا

---

682 التوبة 34.

683 النساء 160.

684 الأنفال 47.

685 النساء 61.

686 النساء 167.

يمارسونه على الآخرين قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ} {687}.

3. الذين يصدّون عن الحقّ والعدل والخير، كلّ يعمل يعملونه إنما هو في ضلال قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَاهُمْ} {688}.

4. إنّ أي عمل أو نية أو تصرف أو سلوك يشرع به الصادّون فإنّ الله سيحبطه قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَاهُمْ} {689}.

5. الصادّون الذين يموتون وهم كفار على صدّهم فقد حرم الله تعالى عليهم مغفرته قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} {690}.

وقد بين الله تعالى للناس بعضا من أسباب الصدّ منها، وما يترتب على صدّهم من مقدمات ونتائج.

أمّا المقدمات أنّ هذا الصدّ من الأعمال السيئة التي يقدمونها، قال تعالى:

وقال تعالى: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {691}.

---

687 النحل 88.

688 محمد 1.

689 محمد 32.

690 محمد 34.

691 المنافقون 2.

فهذا الصدّ من أسوأ الأعمال التي تترتب عليه عاقبة لا بدّ أن تكون سيئة، قال تعالى: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} 692.

إنّ الصدّ لدى قوم شعيب وأمثالهم من أجل متاع الدنيا في الحصول على مكاسب غير مشروعة هي غاية يضعها أهل الباطل نصب أعينهم في سباقهم إلى العقول بباطلهم: التمتع بكلّ ما في الحياة الدنيا دون التقيد بشرع الله، والصدّ عن سبيل الله من أجل إبطال الحقّ وتثبيت الباطل، ولكن الله غالب على أمره.

إنّ التمسك بالأهداف والسعي نحوها وصولاً إلى الغايات دفعت بقوم شعيب صلّى الله عليه وسلّم إلى تكذيب نبيّهم، وكذلك أمثالهم يفعلون في تكذيبهم للرسل والكفر بالوحي.

إنّ أقوى وسيلة يتمكن بها أهل الباطل، من الخلاص من التقيد بدين الله، ومن الاستجابة لرسله، عليهم الصلّاة والسّلام، هي: تكذيب أوّلئك الرّسل في دعواهم أنّ الله تعالى بعثهم إلى الخلق لهدايتهم بوحيه، ووصف أوّلئك الرّسل بصد ما يتصفون به من الصفات الحميدة التي أهلتهم لاختيار الله لهم رسلاً إلى النّاس، فيصفونهم بالضلال بدل الهدى، وبالسفه بدل الرشد، وبالجنون بدل كمال العقول، ويجعلونهم محلاً للسخرية والاستهزاء بدلاً من:

. الاحترام.

. التوقير.

. الاعتراف.

---

<sup>692</sup>المجادلة 16.

. التقدير .

وينعتون الوحي الذي أنزله الله عليهم وجميع الكتب السماوية التي نزل بها جبريل من عند الله بأنها أساطير الأولين وبأنها كذب وافتراء .

عندما تحلّى قوم شعيب عن الفضائل، فقد غابت عنهم الحقيقة، وبدؤوا ينظرون إلى الأمور وفق المقياس البشري بما لديه من:

. السلطة .

. القوّة .

. المال .

. حرية التصرف (نفعل بأموالنا ما نشاء).

وهنا اختل لديهم مفهوم العزة الحقيقية الذي ربطوه بمقياسهم الدنيوي القائم على قدرتهم في بخش الناس أشياءهم وقدرتهم على فرض ما يرونه حقًا، ولا ينظرون إلى الحقّ كيف يجب أن يكون.

ولما كانوا يتمتعون بمتاع كثير من متاع الحياة الدنيا أخذتهم العزة بالإثم وظنوا أنفسهم أنهم أعزاء، فأعرضوا عن دعوة شعيب صلّى الله عليه وسلّم استنادا إلى ما يعتقدون أنه يمنعهم من شعيب ومما يدعو إليه.

ومن الملاحظ أن جهلهم من ناحية واستكبارهم من ناحية أخرى دفعهم إلى استضعاف شعيب صلّى الله عليه وسلّم وإلى الإعراض عنه بدعوى أنهم لا يفقهون كثيرا ممّا يقوله لهم، وليس الفقه بمعنى عدم الوعي أو معرفة هذه الأشياء من الحقوق والواجبات التي

تترتب على الإنسان العاقل في إحقاق الحقّ بعدم تطفيف الكيل وإيفاء الميزان وعدم القعود بكلّ صراط، فهم لم يذهبوا إلى هذه المعاني التي يقصدها شعيب صلى الله عليه وسلّم، وإنما ادعأؤهم بعدم فقه ما يقوله شعيب صلى الله عليه وسلّم هو نوع من الاستهزاء الذي يفضي بالنتيجة إلى عدم الإصغاء لأنه لا طائل من وراء دعوته لهم بدليل أنهم: { قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } 693.

ثمّ إنّ شعيبا صلى الله عليه وسلّم لم ييأس منهم على الرغم من غيهم وسخريتهم واستهزاءهم، وإنما استمر في توضيح الحقائق وتبيين الأمور كي لا تأخذهم العزة بالإثم إلى مواطن الهلاك، فأبان لهم أن العزة ليست لقومه أو لرهطه، وإنما هناك من هو أعزّ من القوم والرهط، لأن الذي خلق القوم والرهط وأمرهم أن يعبدوه هو أعزّ منهم ومن رهطه وهو محيط بما يعمل قومه وسوف يعلمون.

### الأوزان والمكاييل:

إنّ القرآن الكريم يخبرنا عن قوم شعيب أنهم كانوا يخسرون المكيال والميزان، فأرسل الله سبحانه نبيه شعيبا صلى الله عليه وسلّم ليعيد تلك الأمة إلى جادة العدل والحقّ والصواب الذي يرضاه الله تعالى لعباده في إيفاء حقوقهم، وينهاهم عن الفساد والإفساد في الأرض ولذا خاطبهم شعيب صلى الله عليه وسلّم قائلا: { وَيَا قَوْمِ

<sup>693</sup>هود 91، 92.

أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا  
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ {694}.

وهنا يجب الانتباه إلى مسألة مهمة في هذا الجانب من إيفاء الكيل والميزان مما نبه عليه الله سبحانه وتعالى، لأنه ربما هناك أنواع من المكاييل وأنواع من الموازين، ومن المعروف أن المكيال حجم معين يُكتال به وفق سعر معين متفق عليه لكل مادة تدخل الكيل، وكذلك الوزن لبعض الأحجام بميزان يستوفي الوزن المقابل للمادة الموزونة وفق سعر متعارف عليه.

وعليه:

. فإنّ هناك مكيال صحيح مطابق للمتعارف عليه ومكيال ناقص عنه.

. هناك أوزان مطابقة للمتعارف عليه وأوزان ناقصة.

ولذا؛ فإنّ البخس في الكيل والميزان يكون في أكثر من طريقة وأكثر من اتجاه.

فإن كان المكيال صحيحا والأوزان صحيحة وأنقص البائع من المكيال أو الوزن فقد بخس المشتري مرة واحدة.

وإن كان المكيال والميزان هو أقل من المتعارف عليه ووفّي المشتري فيه فقد بخس مرة واحدة أيضا لعدم مطابقة العرف.

أمّا إذا كان المكيال والميزان غير مطابق للمتعارف عليه، ولم يوفّ البائع للذي يشتري منه فقد بخسه مرتين:

---

<sup>694</sup>هود 85.

. مرة لأن الكيل أو الميزان غير مطابق للمتعارف عليه فهو ناقص.

. ومرة ثانية عندما أنقص من كيله أو ميزانه الذي هو بالأصل غير مطابق للمتعارف عليه من حيث التوفية.

فالمطلوب عدم إنقاص حجم المكيال عن المعهود والمتعارف على ما يساوي السعر الذي يقبل به المجتمع، وكذلك الأوزان يجب أن تكون وافية مضبوطة قبل أن يوزن بها، وليس المراد إيفاء ما يكال أو يوزن فقط، وإنما:

1 . إيفاء الكيل والميزان.

2 . إيفاء ما يُكّال أو يوزن.

وقد أكد الله تعالى على ذلك في سورة الإسراء بقوله تعالى:  
{ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } 695.

. فالأمر بإيفاء الكيل غير الأمر بإيفاء المكيال.

. والأمر بإيفاء الوزن غير الأمر بإيفاء الميزان.

فالله سبحانه وتعالى بتقرير واضح في هذه الآيات ضرورة تحقق العدل في المكيال وآلة الكيل، وفي الموزون وآلة الوزن، حتى لا يأتي آتٍ ويوفي الكيل أو الميزان الذي اتخذه لنفسه كما يفعل قوم شعيب ولذا أكد الله تعالى على الوزن بالقسطاس المستقيم الذي يستقيم له الحق ويرضاه الناس بتوفية حقوقهم مقابل ما يدفعون من أثمان للبضائع التي

---

<sup>695</sup>الإساءة 35.

يشترونها سواء أكانت هذه البضائع تدخل ضمن الكيل الذي يكتال به أو الميزان الذي يوزن به إنصافا للبائع والمشتري.

وهذا ليس خاصا في قوم شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما هذه قضية إنسانية عامّة تستغرق الزمان والمكان، وما كانت سيرة قوم شعيب إلا تشريعا إنسانيا في هذا المجال وعبرة لمن ييخسون الأكيال والموازين ولا يزينون بالقسطاس المستقيم.

فالأكيال والموازين ضرورية لقيام العدل بين الناس وإحقاق الحقّ فيما بينهم، وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحاب المكيال والميزان: "إنكم قد وليتم أمرين هلكت فيهما الأمم السالفة قبلكم" 696.

### رسالة شعيب لحلّ المشكل الاقتصادي

تمثل المشكّلة الاقتصادية محور الاهتمام لدى الإنسانية على مرّ العصور، كما أنّها تمثل اهتماما بالغاً لدى علماء الاقتصاد في الوقت الراهن، وهي أهم محور من محاور اهتمام الدول عند معالجتها لقضاياها الاقتصادية.

فالمشكّلة الاقتصادية مرتبطة بوجود الإنسان على الأرض، وهي من العوامل المؤثرة في المسيرة التاريخية للإنسان، ولذا فإن أحد أنبياء الله المرسلين وهو النبي شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قامت دعوته لقومه على تأكيد إصلاح الجانب الاقتصادي وأهمية هذا الإصلاح في الاقتصاد المرتبط بسلامة العقيدة، وما مجيء قصّة شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا التفصيل في الجانب الاقتصادي إلا تأكيد على أهميته في حياة الإنسان ومسيرته التاريخية كي يكون خليفة وفق ما أراد الله

---

<sup>696</sup> سنن الترمذي، ج 5، ص 113.

تعالى أن يجعله في هذه الأرض، لذلك نرى أهمية إبراز نقاط الخطأ ومواقع الغبن في التعامل التجاري الذي أنكره شعيب صلى الله عليه وسلم على قومه، وهذا الإنكار انصب على التصرفات والسلوك المتمثلة في عملية البخس في التبادل التجاري وأكل أموال الناس بالباطل من خلال التأثير في عملية التوزيع التي تمثل أهم جوانب المشكلة الاقتصادية، حيث قال الله سبحانه وتعالى مخبرا عن واقع الممارسة الخاطئة في البيع والشراء لدى قوم شعيب صلى الله عليه وسلم وسلوكياتهم الاقتصادية المرتبطة بسوء التوزيع القائم على البخس في الكيل والميزان وأكل أموال الناس بالباطل الذي يؤدي إلى تفاقم المشكلة الاجتماعية وما ينتج عنها من مضاعفات في الفقر والمرض وانقسام في المجتمع إلى طبقات تستعبد بعضها بعضا، قال تعالى:

{وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَتْ لِلَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} 697.

إنّ هذه الآيات توضح بشكل جلي لما كان يمارسه قوم شعيب صلى الله عليه وسلم من بخس للحقوق وغصب لأموال الناس، تبين تأثير عدم العدل في التوزيع وفي التبادل التجاري القائم

على الظلم والقهر في أكل أموال الناس بالباطل، وأن ذلك من أسباب سوء الأوضاع الاقتصادية للفرد والمجتمع، فقد وصف نبي الله شعيب صلى الله عليه وسلم واقعه باعتباره تاجرا يلتزم بأوامر الله بأن الله قد رزقه رزقا حسنا بسبب التزامه بما يأمر به قومه من العدل في التعامل من البيع والشراء والوزن بالقسطاس المستقيم الذي يرضي البائع والمشتري ويرضى عنه الله تعالى.

إن المشكلة الاقتصادية في المجتمع الإنساني تتمثل في جوانب

عديدة منها:

1 . الجانب العقدي الذي يحمل الفضائل الإلهية والقيم الأخلاقية، هو ضابط الأمان في جميع العمليات التجارية القائمة على الاقتصاد الذي يقرر نوعية حياة الإنسان مستقبلة المعاشي، في أخذ الحقوق وأداء الواجبات بما يمنع البخس والظلم والإسراف والبخل، وإنما يكون بين ذلك قواما، فالله تعالى أباح البيع والشراء وحض الناس على الأكل والشرب وأخذ الزينة بالشكل الذي يضمن الحقوق ويؤدي الواجبات دون ظلم أو بغي أو بحس أو رباكي تستقيم حياة البشر بالشكل الذي يضمن لهم الخلافة التي أرادها الله تعالى في إعمار الأرض وإصلاحها وعدم الإفساد فيها، ذلك أن الإضرار بالإنسان في بخسه حقوقه هو نوع من الإفساد الذي نهى الله تعالى عنه، ولهذا فإن الله تعالى سنّ السنن للبشر ووضع لهم القوانين التي تمنع التظالم فيما بينهم عندما أباح لهم الطيبات من الرزق الحلال في الطعام والشراب والزينة، ومنعهم عن الفواحش والمظالم ما ظهر منها وما بطن، قال تعالى: { يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ {698}.

2 . ندرة الموارد الطبيعية وقتلتها ومحدوديتها، وبالتالي فإن المشكلة في هذا الجانب تتمثل في الاختيار بين ما ينتج وما لا ينتج لاختلاف وكثرة حاجات الإنسان، وكيفية تخصيص الموارد المتاحة للاستخدام، أي تحديد الموارد التي يمكن استخدامها وأسلوب الإنتاج الذي ينبغي اتباعه وبالتالي فإن المشكلة تمتد لدراسة نظرية الائتمان على هذه الموارد الذي يحكمه الجانب العقدي المرتبط بالفضائل، ومن ثم نوعية السلع وكمياتها وأولويات إنتاجها والتبادل المنصف المنطلق من الحق والعدل

3- الطريقة التي يتم بها توزيع الدخل العام على عناصر الإنتاج المختلفة، أي نمطية ونوعية توزيع عناصر الإنتاج على أفراد المجتمع، وأنصبة عناصر الإنتاج من ذلك الدخل على أساس العمل الذي يؤديه كل فرد من أفراد المجتمع في تحقيق هذا الدخل، فهذا الجانب من المشكلة الاقتصادية يتعلق بتحديد مصادر الدخل الفردية وقواعد اكتسابها وطرق توزيعها، وكذلك تحديد أنصبة عناصر الإنتاج في الدخل وهي الربح للأرض والأجر للعمل والعائد على رأس المال والربح المنظم الذي يحكمه القسطاس المستقيم.

4- الأهمية النسبية لعناصر الإنتاج ودور كل عنصر وأهميته في العملية الإنتاجية، والأهمية النسبية مرتبطة بالمفهوم الفلسفي الذي

---

<sup>698</sup>الأعراف 31.33.

يعتنقه المجتمع، فإن للنظام الاجتماعي بما يحتويه من تنظيمات اقتصادية تأثيراً في تحديد مقدار الإنتاج ونوعه سواء أكان من حيث مدى اتساع وضيق حرية التملك أم حرية العمل والتصرف التجاري والسلوك الاقتصادي وطريقة الاستهلاك، ثم التأكيد على الدور المهم في تشجيع التقدم الفني والتقني لتحسين وزيادة الإنتاج بقصد الاستفادة من عناصر الإنتاج الأساسية المتمثلة في الموارد الطبيعية ورأس المال والقوى العاملة.

إنّ هذه الجوانب من أهم الأمور التي يودّي عدم الأخذ بها إلى تفاقم المشكّلة الاقتصادية على مستوى البشر وليس على قوم شعيب صلّى الله عليه وسلّم، لأنّها تتجاوز الزمان والمكان والوطن وتبقى قائمة ما لم يأخذ بأسباب انتهائها، ولذا فإن لها الدور الأكبر في الصراع بين مختلف الأقسام والأمم الشعوب والمجتمعات، إضافة إلى أنّها من العوامل المسببة لنشوء الصراعات التي تؤدي إلى الصدام والحروب، الأمر الذي ينتج عنه انهيار حضارات ونشوء أخرى.

إنّ وجود المشكّلة الاقتصادية هو جزء من سنة الله الكونية، وابتلائه وامتحانه للبشر حتى:

. يتميز الخبيث من الطيب.

. يبيّن الصالح من الفاسد.

. المؤمن من الكافر.

ولا يظن أحد أنّ المشكّلة الاقتصادية هي مسألة دنيوية فقط، فالإسلام عندما عالج المشكّلة الاقتصادية عند قوم شعيب صلّى الله عليه وسلّم، وصولاً إلى محمّد صلّى الله عليه وسلّم عندما بين أنواع الملك المباح مثل:

. البيع .

. الشراء .

. الهبة .

. الهدية .

. العطاء .

وأقر الزكاة والصدقات والكفالة والدين والشهود وما إلى ذلك مما يدخل في المعاملات الاقتصادية، فإن المشكّلة الاقتصادية هي من الظواهر الاجتماعية المرافقة للبشرية على مدى وجودها، ومن السنن الإلهية المصاحبة لوجود الإنسان على الأرض وجزء من امتحان الله تعالى له في حياته الدنيا الذي يحدد مصيره في الحياة الآخرة.

إن النقص والندرة في الموارد الطبيعية جزء من إرادة الله الكونية، كما أنها أحيانا تكون نوعا من العقاب الإلهي لطغيان الإنسان في الأرض وإفساده فيها.

لقد حدد الله في كتابه العزيز العلة لوجود هذه الظاهرة، أي ظاهرة ندرة الموارد وقتلها بأثامها تعود إلى طبيعة الإنسان التي خلقه الله عليها تلك الطبيعة المتمردة الطاغية التي تستغني عندما تشبع، يقول الله تعالى موضحا هذه الحقيقة التي تكمن في النفس البشرية إلا من رحم ربي: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾<sup>699</sup>.

---

<sup>699</sup>الشورى 27.

ويقول تعالى واصفا طبيعة النفس البشرية عندما تصل إلى الرفاه وتحقق متطلبات وحاجات الإنسان، بأنها تصبح طاغية مستبدة، حيث قال تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ} استغنى {700}.

كما أنّ المجتمع الذي يستغني فإنه يمارس ما يمارسه الفرد، ذلك أنّ المجتمع هو عبارة عن مجموع أفرادها كما هو حال قوم شعيب صلى الله عليه وسلم، فعندما ينعم الله تعالى على عباده بالنعم الوفيرة، ويعرضون عن الشكر بعدم أداء الحقوق للخالق والمخلوق يجازيهم الله تعالى على قدر ذنوبهم، بحيث أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة في قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافِرَ} {701}.

فالله سبحانه وتعالى خلق الأرض وقدر فيها أقواتها بحيث أن كل إنسان له من الرزق في هذه الأرض ما يسد حاجته وزيادة، قال تعالى: {قُلْ أَنتَ كُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ} {702}.

وتقدير الأقوات من الله تعالى هو حل للمشكلة الاقتصادية التي اختلقها الإنسان بتعديه على حقوق الآخرين من البخس والظلم

---

<sup>700</sup>العلق 6، 7.

<sup>701</sup>سبا 15، 17.

<sup>702</sup>فصلت 9، 10.

والقهر والغصب، وما إلى ذلك من امتلاك أشياء الآخرين بطرق لم تقرها العقيدة ولم يشرعها الشارع إضافة إلى نهيها عنها، لأنه ما جاع فقير إلا بما متّع به غني والله تعالى سائل الأغنياء عن ذلك.

غير أنّ الكسب الحرام ليس وحده سببا لهلاك الأقاليم والأمم، إذ ربما أمم كثيرة يسود في مجتمعاتها العدل والحقّ وصرّة المظلوم وما إلى ذلك من الأخلاق، لكن هذه الأخلاق ما لم ترتبط بالفضائل، فإن الله تعالى يجزيهم الجزاء الأوفى، لأنه قبل الحقّ والعدل يجب أن يرتبط هذا الحقّ والعدل بالعدل المطلق والحقّ المطلق للذات الإلهية ولا يكون ذلك إل بالإيمان وشكر نعم المنعم فقد قال الله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} 703.

إنّ الندرة في الموارد الطبيعية حكمة اقتضتها المشيئة الإلهية، فالنقص في الموارد يولّد الحافز على عمران الأرض واستمرارية البشر عليها إلى ما يشاء الله تعالى، وذلك بالعمل حسب الطاقات والإمكانات الفعلية والعقلية الموزعة بين البشر، ممّا يؤدّي إلى قيام عنصر العمل بدوره في الاستفادة من الموارد الطبيعية، ومساهمته في استخراج الكنوز المودعة في باطن الأرض وظاهرها، ولا يتم ذلك إذا انعدمت المشكّلة الاقتصادية وزالت من الوجود.

لقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم هذه الحكمة بأنها جزء من سنة الله الكونية وآية من آيات ربه في تكوين الصراع بين الخير والشر وبين الفضيلة والرذيلة، وإظهار الحقّ من الظلم، وقبل كلّ ذلك من أجل استكمال مسيرة الحياة بين البشر، لأنه لو كان جميع النّاس

---

703 النحل 112.

أغنياء أو متساوون في الغنى لتعطلت الحياة، فكانت حكمة الله تعالى من التفاوت بين البشر مدعاة للحفاظ على استمرار الحياة، قال تعالى: {أَهُمْ يُقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} 704.

إنَّ الله سبحانه وتعالى بعث الرُّسل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ أجمعين ليس فقط من أجل دعوة التوحيد وعبادة الله تعالى وإن كان ذلك رأس العقيدة وعمودها في الدنيا والآخرة، ولكن هناك مستلزمات لا تقوم العبادة إلا بوجودها مما يقوي على طاعة الله تعالى وعبادته، ولذا جاءت رسالات الرُّسل بالمنهج الذي يمكن للإنسان عند اختياره له تحقيق الرخاء والحصول على رغد العيش وكفايته، فقد تكفل الله بتوفير احتياجات الإنسان المرتبطة بمقومات وجوده، حيث تكفل الله بإشباعها، هذا المنهج الذي أوضحه الله تعالى من خلال رسالات أنبيائه ورسله يكون سببا موجبا لكفاية الاحتياجات، هو إيمان الإنسان بالله:

. عقيدة.

. وقولا.

. وعملا.

. وفعلا.

---

704 الشورى 32، 33.

. وسلوكا.

وتشريعا.

غير أنّ انحراف المجتمعات الإنسانية عمّا بيّنه الله تعالى لخالقه من خلال مناهج العقيدة يعتبر سببا في تحقيق النقص في الإنتاج سواء أكان ذلك بسبب تسليط الله لبعض مخلوقاته بإفساد وتحطيم الإنتاج، لأسباب يقصر عقلنا عن إدراكها وهذا بيّن في قوله تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} 705.

فهذا التدافع بين الناس في الحروب والصراعات والمنازعات يؤدّي إلى شحة في الموارد لأنها تستخدم في غير الوجه الذي يجب أن تكون فيه، ولكن من جانب آخر في حكمة الله تعالى، يكون هذا التدافع سببا في عدم إفساد الأرض.

وأما بسبب المعصية التي تنتزع به بركة الخير والرزق الذي يبسطه الله لعباده، أو تكون المعصية سببا في عدم حصوله، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} 706.

إنّ المعالجة للمشكلة الاقتصادية التي جاءت بها رسالة شعيب صلى الله عليه وسلم لا تنفصل عمّا جاء به إخوته من الأنبياء صلى

---

<sup>705</sup>البقرة 251.

<sup>706</sup>الأعراف 96 . 99.

الله عليهم وسلّم أجمعين، والأسلوب الذي يأمر باتباعه لتجنب الوقوع في المشكّلة بالشكل الذي يخل بتوازن المجتمع، يقوم على معالجة جميع جوانب المشكّلة الاقتصادية بشكل متكامل بحيث تتكاتف جميع العناصر المؤثرة في التنظيم الاجتماعي بالعمل في تناسق وتكامل لتحقيق المجتمع الفاضل الذي تسير الحياة فيه وفق منهج الله الذي أوضحه سبحانه في كتابه على بما أنزله على الأنبياء والمرسلين صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين، فإذا تحقّق هذا الأمر باليسر وفق ما أمر به الله تعالى على الوجه الذي بيّنه جميع الأنبياء والمرسلين صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين عقيدة وتشريعا، فإن المشكّلة الاقتصادية بمختلف جوانبها لا تصبح معوقا لاستقرار الفرد وتحقيق الغاية التي من أجلها خلقه الله وأهبطه إلى الأرض، ليصلحها وليعمرها فترة زمنية محددة، ولا يفسد فيها ويسفك الدماء بغير حقّ أو يأكل أموال الآخرين بالباطل، فإذا أخذ الإنسان ما آتاه الله تعالى، ينتهي به المطاف إلى الحياة الأخرى التي لا نصب فيها ولا تعب، وإنما هي دار جزاء على ما قدمه خلال الفترة الزمنية التي مكثها في الأرض.

إنّ المنهج الذي جاء به شعيب صلّى الله عليه وسلّم لقومه، والأسلوب الذي عالج به حل المشكّلة الاقتصادية التي كان قومه يمارسونها بما لا يرضي الله تعالى، وما جاء به الأنبياء من بعده عندما تفاقمت المشكّلة الاقتصادية على تقادم الزمن ومرور الأيام، أصبح هناك معطيات أخرى غير التي كان يمارسها قوم شعيب، فكانت المعالجات الأخرى هي متمّات لرسالة شعيب اقتضتها المرحلة الزمنية حال ظهورها، ولذا من أجل الحل الاقتصادي المرضي للحقّ فإن ذلك يقتضي الأخذ بجميع كليات النظام الاقتصادي وجزئياته من المنظور

الذي بيّنته العقيدة على أيدي الأنبياء والمرسلين صلى الله عليهم وسلّم أجمعين.

إن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الخلق من ضمنهم المخلوق العاقل هو هذا الإنسان، لم يترك له الحبل على الغارب في التصرف بما خلق له من رزق وقدر في الأرض أقواتها، وإنما أعطاه مع ذلك منهجا متكاملا في التعامل مع رزقه ورزق غيره في تنظيم المجتمع من الناحية الاقتصادية، كي لا يهلك بتصرفاته المحكومة بنزواته الحرث والنسل والزرع والضرع، وإنما جعل الله تعالى لكلّ شيء قيد وشرط في الحقوق والواجبات وصولا إلى الخلافة التي تعمر الأرض وتصلحها من أجل الذات ومن أجل الآخرين.

### الحماية الاقتصادية:

إنّ المبدأ الاجتماعي الذي يجب أن يكون عليه الناس في المعاملات الاقتصادية هو الذي قرره الله سبحانه وتعالى بما أوحى إلى شعيب والأنبياء من بعده صلى الله عليهم وسلّم أجمعين، ولو لم يكن ذلك عامّا في الناس كافة لما جاء في الرسالة الكافة مع نبي الكافة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، قال تعالى: (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ) فهذه الآيات ليست من الوصايا من شاء أخذ ومن شاء ترك، وإنما هي قرارات من الأوامر والنواهي: أن أوفوا الكيل إذا كتّم للناس، أو اكتلّم عليهم لأنفسكم، وأوفوا الميزان إذا وزنتم لأنفسكم فيما تتباعون، أو لغيركم فيما تبيعون، فليكن كلّ ذلك وافيا تامّا بالعدل لكم أو عليكم، ولا تكونوا من المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ينقصون الكيل ويبخسون الوزن وهم الذين توعدهم الله عزّ وجلّ بالويل والهلاك. وهذا النهي مفهوم من الأمر بالإيفاء فهو مقابل له ولازم الأخذ به لأنّ الإيفاء

يستلزم عدم النقص بأي حال من الأحوال والنقص يستلزم عدم الإيفاء. وقد توعد الله تعالى المطففين بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ 707

إنَّ الله سبحانه وتعالى بيّن خلقه بوضوح لا لبس فيه مدى الذنب الذي يرتكبه المطففون والمبخسون بالتأكيد على الميزان الذي يعطي كلّ ذي حقّ حقّه، ومن عظمة الميزان عند الله تعالى قابل وضعه برفع السماء حيث قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ 708

فهذا تنبيه وتحذير وإرشاد إلى أن الإيفاء لا يكفي أن يكون من طرف واحد، بل لا بدّ أن يكون من الجانبين في حالة الأخذ والعطاء في البيع والشراء.

والتأكيد على إيفاء القسط والوزن والكيل دون لبس لكلا الطرفين في البيع والشراء، يدل على أنه يجب على الإنسان أن يرضى لغيره ما يرضى لنفسه، وهذا ما قرره السنة النبوية، حيث قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" 709

وقد تواتر الأمر بإيفاء الكيل والميزان في كلام الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم، وهذا يعني أن الأمر لا يخص قوما دون قوم أو أمة دون أمة، وقد كان الخطاب عامًا في مواضع كثيرة، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا

---

<sup>707</sup>المطففين 4.1.

<sup>708</sup>الرحمن 9.7.

<sup>709</sup>سنن الترمذي، ج 9، ص 429

الْكَيْلِ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ  
تَأْوِيلًا {710.

وقوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا  
الْمِيزَانَ} {711.

وعندما يتتبع المرء الآيات التي أخبرت عن الأمم السابقة  
ويتأمل فيها بوعي وتدبر وتفكير، يجد أن الله عزّ وجلّ قد قصّ على  
هذه الأمة في الرسالة الخاتمة التي جاء بها النبي الخاتم صلّى الله عليه  
وسلّم، فيما قصّ من أنباء الأمم لتحصل العبرة ويكتمل الوعظ بما  
حدث لتلك الأمم بسبب مخالفة الحقّ الذي أمر به الله تعالى،  
ولاسيما ما يتعلق بحقوق النّاس، ومن أجل عدم إيفاء الكيل وعدم  
الوزن بالقسطاس المستقيم الذي أمر به الله عزّ وجلّ، أهلك قوم  
شعيب صلّى الله عليه وسلّم، ودمر مساكنهم وأبادهم بما كان من  
ظلمهم وفسادهم، وكان أمره عزّ وجلّ جزاء وفاقا لتكبرهم وعنادهم،  
طففوا الكيل وعموا وصموا عن سماع الحقّ، ولم يكتفوا بذلك بل  
اتهموا الذين يتبعون شعيبا صلّى الله عليه وسلّم بالخسران، فكانت  
عاقبتهم أن أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر قال تعالى: {وَقَالَ الْمَلَأُ  
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ فَأَخَذْتَهُمُ  
الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} {712

فكان عاقبة ذلك الخسران المبين، فهم يظنون أنهم لن يبعثوا  
ليوم عظيم، ولكن الله سبحانه وتعالى وهو الحقّ العدل سيبعثهم مع

---

<sup>710</sup>الإسراء 35.

<sup>711</sup>الرّحمن 9.

<sup>712</sup>الأعراف 90، 91.

الخلائق جميعا، ويكونون موقوفين على أعمالهم محاسبين عليها، فيجزون الجزاء الأوفى بما كانوا يعملون.

إنّ إيفاء الكيل أو إيفاء الميزان هو القسط عينه، فلماذا كرر ذلك؟

التعبير القرآني ليس فيه زيادة ولا نقصان، وكلّ كلمة فيه وكلّ حرف له ضرورة وجوده في تأدية المعنى أو توجيهه أو توضيحه، ولذا يُفهم من إيفاء الكيل والميزان أن يعلم البائع أن الواجب عليه أن يؤدي الحقّ لصاحبه كاملا غير منقوص، فلا يطمع في استبقاء شيء منه وإن قل، وليعلم المشتري أن له أن يأخذ حقه كاملا من غير طمع في الزيادة وإن قلّت، وهذا عين القسط وتمام الإيفاء.

## النبي

### شُعيب من السُّنَّة

شعيب عليه الصَّلَاة والسَّلَام نبي من أنبياء الله الذين اصطفاهم لتبليغ ما أرسلوا به لأقوامهم وشعوبهم وأمهم وللكافة؛ فكان شعيب عليه السَّلَام نبيا من أنبياء العرب الكرام، في قصته ما هو قطعي كونه قد ورد نصًّا قرآنيا، وهناك ما عليه اختلاف وبخاصة:

هل هو الذي زوّج أحد ابنتيه إلى موسى عليهما الصَّلَاة والسَّلَام؛ أم أنّه غير ذلك؟؛ فالذين استقرأوا التاريخ لا يرونه من زوّج ابنته لموسى عليه السَّلَام كون موسى لم يكن في زمن شعيب.

والذي يهمننا أنّ شعيب نبيا لقومه الذين كانوا يعبدون آلهة من دون الله وكانوا مفسدون في الأرض؛ فبعث شعيب نبيا لهم داعيا لعبادة الله وحده، ومحدرا قومه من الفساد في الأرض، ولكنّ الكفر ظلّ في معظم قومه.

كان النبي شعيب خطيبا بليغ القول له من الحجّة ما له، وقد بدأ دعوته إلى عبادة الله الواحد، ونبذ الأصنام، ثمّ نها قومه عن فساد السّوق، وما يرتكبونه من مظالم؛ حيث شاع بينهم تطفيف الميزان.

شعيب عليه السَّلَام هو رسول الله لأهل مدين، وكان يُعرف بخطيب الأنبياء، وأهل مدين هم عرب ويسكنون أرض (مَعان) في الأردن قريبا من قُرى لوط عليه السَّلَام. وفي عهد شعيب عليه السَّلَام، ظهر في مدين قوم يعبدون الأيكة، وهنا قال ابن كثير: "كان أهل مدين كفارا يقطعون السبيل، ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهي الشجرة من الأيكة، حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوأ

النّاس معاملة، يبخسون المكيال والميزان، ويطفّفون فيما يأخذون بالزائد، ويدفعون بالناقص؛ فبعث الله فيهم رجلا منهم، وهو رسول الله شعيب عليه السّلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن بخس النّاس أشياءهم، وإخافتهم في سبلهم وطرقاتهم، فأمن به بعضهم، وكفر أكثرهم، حتى أحلّ الله بهم البأس الشديد"713

ويقال أنّ مدينة مدين التي بعث إليها شعيب نبيا قد كانت من القرى المزدهرة في التجارة، ولكنّ الحياة الدنيا غرّت القوم؛ فكانوا يبخسون في المكيال والميزان ويُطفّفون فيهما، ويأكلون المال الحرام، ويقطعون الطرق، ويعترضون القوافل، ويشيعون في الأرض فسادا وظلما. ومن علامات طغيانهم أنّهم لم يكتفوا فقط بالجحود والتكبر والعصيان وإنكار نعم الله عزّ وجلّ وإيذاء شعيب عليه السّلام، بل أنّهم سألو شعيبا أن يطلب من الذين آمنوا أن يتركوا الدّين والعبادة حتى يؤمنوا بالله، ولكنّ شعيب لا يساوم في دين الله جلّ جلاله؛ فكفر أكثرهم وآمن القليل منهم، فتناول عليه من كفر به وبرسالته، فهددوا شعيب بالقتل لولا شأن قبيلة عليه السّلام، ممّا استوجب غضب الله سبحانه وتعالى، فانزل الله بهم أنواع من العذاب، حيث أصابهم حرّ شديد، ومنع الله عنهم هبوب الرّياح، ولم ينفعهم ماء ولا ظل، فتركوا بيوتهم وما يمتلكون وفرّوا حيث لا فرار ينجيهم من غضب الله جلّ جلاله. وفي تلك البرية التي فرّوا إليها أظلتهم سحابة سوداء، فاجتمعوا حولها ليستظلوا تحتها، فلمّا اكتمل عددهم، أرسلها ترميهم بشهب وشرار، واهترت بهم الأرض، ونزلت عليهم صيحة من السّماء فأزهقت وأهلكت الأرواح، وفي المقابل انجى الله شعيبا ومن معه من المؤمنين.

---

<sup>713</sup> منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، 1، ص 219.

قال تعالى: ﴿وَالِى مَدِينِىنَ اَحَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مَا لَكُمْ مِنْ اِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ اَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْاَرْضِ بَعْدَ اِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ مَنْ اٰمَنَ بِهِ وَتَبْغَوْهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا اِذْ كُنْتُمْ قَلِيْلًا فَكَثَرْتُمْ وَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِيْنَ وَاِنْ كَانَ طَآئِفَةٌ مِنْكُمْ اٰمَنُوا بِالَّذِي اُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوْا فَاصْبِرُوْا حَتّٰى يَخُصَمَ اللّٰهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِيْنَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِيْنَ اسْتَكْبَرُوْا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا اَوْ لَنَعُوْدَنَّ فِيْ مِلَّتِنَا قَالَ اَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِيْنَ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلٰى اللّٰهِ كَذِبًا اِنْ عُدْنَا فِيْ مِلَّتِكُمْ بَعْدَ اِذْ نَجَّانَا اللّٰهُ مِنْهَا وَمَا يَكُوْنُ لَنَا اَنْ نَعُوْدَ فِيْهَا اِلَّا اَنْ يَشَاءَ اللّٰهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلٰى اللّٰهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَاَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِيْنَ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اَتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا اِنَّكُمْ اِذَا لِحٰسِرُوْنَ فَاَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَاصْبَحُوْا فِيْ دَارِهِمْ جَاثِمِيْنَ الَّذِيْنَ كَذَّبُوْا شُعَيْبًا كَاَنْ لَمْ يَغْتَوْا فِيْهَا الَّذِيْنَ كَذَّبُوْا شُعَيْبًا كَاَنُوْا هُمْ الْحٰسِرِيْنَ فَتَوَلّٰى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ اَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّيْ وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ اٰسٰى عَلٰى قَوْمٍ كٰفِرِيْنَ} 714.

تحتوي هذه الآيات الكريمات ملخص قصة النبي شعيب وقومه، والتي تركزت على الآتي:

. أمر شعيب لقومه بأن يعبدوا الله وحده.

. إعلان شعيب للبيئة التي جاء بها.

. الأمر بإفاعة الكيل.

- . الأمر بإفءاء الميزان.
- . النهي عن البفس.
- . النهي عن الفساد في الأرض.
- . النصح بالإيمان.
- . النهي عن قطع الطرق.
- . النهي عن الصدّ عن سبيل الله.
- . النهي عن التمسك بالانحراف اعوجاجا.
- . التذكير بفضل الله عليهم.
- . التنبيه بالعاقبة.
- . الأخذ بالصبر.
- . انقسام أهل مدين بين مؤمن وكافر.
- . تهديد الكفرة لشعيب عليه السلام بين أن يكفر ومن آمن معه وبين خروجهم من القرية..
- . تحدي شعيب لقولهم.
- . ترك شعيب الأمر وفقا لمشيئة الله تعالى الذي شاءه نبيا يدعو الكافرين إلى الإيمان دون أن يأخذه شكّا في رسالته.
- . توكل شعيب على ربّه جلّ جلاله.
- . سأل شعيب ربّه أن يفتح بينه وبين قومه بالحقّ.
- . التهديد بالخسارة للذين آمنوا مع شعيب.

. إنزال العقاب الشديد بالكافرين الظلمة.

. الخسران كان نتيجة لما قدّمت أيدي الكفرة الظالمين.

. عدم تحسّر شعيب على ما أصاب الكافرين من عذاب

شديد.

مَدِينٍ كَلِمَةً تُطْلَقُ عَلَى الْقَوْمِ وَعَلَى الْقَرْيَةِ، وَمَدِينٌ قَرْيَةٌ تَقَعُ فِي  
جَنُوبِ الْأَرْضِ قُرْبَ الْعَقَبَةِ، وَهُمْ أَيْضًا أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ  
الْأَصْنَامَ، وَيَزْتَكِبُونَ الْمَعَاصِي، وَأَظْهَرَهَا بَحْسُ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ، وَالتَّعَرُّضُ  
لِعَايِرِي السَّبِيلِ، لِسَلْبِهِمْ وَالاعْتِدَاءُ عَلَيْهِمْ 715.

وعليه كان شعيب رسولا إلى قوم مدين الذين جاهروا بالكفر  
وعبدوا غير الله جلّ وعلا؛ فهم كانوا يعبدون الأيكة وهي نوع من  
أنواع الشجر، يتقربون إليها بأنواع من العبادات كاللّدعاء والتبرّك بها  
وهي لا تفيدهم في شيئا، ولهذا بعث لهم الله تعالى شعيبا نبيا مرسلا:

بينما لما نسبهم الله عزّ وجلّ إلى قبيلة مدين ذكر نبيّه شعيبا  
بالأخوة لهم لأنّ المقام مقام ذكر أخوة النّسب والقبيلة فقال جلّ  
وعلا: {وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ  
إِلَهِ غَيْرِهِ} 716؛ فدعاهم عليه السلام إلى عبادة الله وحده وترك ما  
هم عليه من الشرك والكفر بالله تعالى. وقد اشتهر قوم شعيب،  
بتطيف الميزان والمكيال ويخسون الناس أشياءهم؛ أي كانوا يحتالون  
في التزيّد في الكيل والنقصان منه فيخدعون المشتري إذا كانوا باعوه  
ويخدعون البائع إذا اشتروا منه شيئا؛ فدعاهم شعيب عليه السلام أن  
ينتھوا عمّا هم عليه من شرك وظلما؛ فسلك شعيب شتى الطرق في

<sup>715</sup> الإنسان بين العبودية لله والعبودية للعبيد، ص 152.

<sup>716</sup> الأعراف 85.

هداية قومه كما فعل إخوانه من الرّسل؛ فكان أسلوبه يجمع بين الترغيب والترهيب وبيان فضل الله عزّ وجلّ عليهم فيما هم فيه من رغد العيش فقال {وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} {717}؛ فذكّرهم عليه السّلام بفضل الله عليهم ولكنّهم لم يتعظوا. فقد كان قومه يتحكمون في طرق التجارة الموصلة بين شمال الجزيرة وجنوبها، وبين مصر والشام وبلاد العراق؛ فكانوا يفرضون على المارة من النّاس ما شاءوا من المعاملات التجارية الجائرة، سعيا إلى جني الرّبح الفاحش، دون مراعاة لما يقع على غيرهم من الظلم والغبن، وقد شاعت فيهم هذه المعاملات حتى صارت عندهم أمرا متعارفا عليه، إلى أن بعث الله إليهم شعيبا رسولا أمر بطاعة أمر الله جلّ جلاله ومذكّرا لهم بما جرى على من سبقهم من المفسدين في الأرض؛ ولكنّ هذا التذكير بالنعم والتخويف من النقم لم يزددهم إلا عنادًا وسخرية بشعيب ودعوته والمؤمنين الذين اسلموا وجوههم لله تعالى. وفي النهاية كان النصر حليفا لشعيب ولمن آمن معه من المسلمين حيث فتح الله على الكافرين الظلمة بابًا من أبواب جهنم، فاشتد الحرّ؛ فلم ينفعهم ظل ولا ماء.

### دعوة شعيب:

لقد برز في قصّة شعيب أنّ الدّين ليس قضية توحيد وألوهية فقط، بل هو أسلوب حياة النّاس أيضا، فشعيب عليه السّلام بعد الدعوة إلى التوحيد بدأ ينبّه على ما يخالف أمر الله العادل؛ فكانت دعوته حلّ للمشاكل الاقتصادي كما يعرفها الاقتصاديون في هذا العصر. ومن هنا كانت قضية المعاملات الاقتصادية والأخلاقية محيّرّة لنبي الله شعيب، لما فيها من مظالم ومفاسد وآلام حيث كان القوم

<sup>717</sup> الأعراف 86.

ينقصون المكيال والميزان، ويظلمون الناس؛ فالناس سادت الرذيلة بينهم وهي لا شكّ أنّها تمسّ المروءة والشرف، ذلك لأنّ أهل مدين كانوا يعتبرون بنس الناس أشياءهم نوعاً من أنواع المهارة في البيع والشراء. وفي التفسير جاء قوله تعالى: {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ} 718 ف(أشياءهم) هنا جاءت بمعنى الجمع وليس المفرد، وهي جمع الشيء؛ ومن ثمّ فالأشياء التي تؤلم الناس كثيرة منها (المادي ومنها المعنوي) أي أنّها ليست مقصورة على البيع والشراء فقط، بل تدخل فيها الأعمال، أو التصرفات التي تسيء للأخلاق الكريمة. ولهذا جاء التّهي محمّماً لارتكاب المظالم التي تكسر النفس وتهمها من الدّاخل. ولذا ينبغي احترام وتقدير واعتبار النفس الإنسانية نفسياً وأخلاقياً وحياتياً من حيث العمل وحرية التنقل وعدم الاستغلال أو الإكراه.

قال تعالى: {وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} 719، أي وما أنا عليكم، أيّها الناس، برفيق أراقبكم عند كيلكم ووزنكم، لتوفوا الناس حقوقهم ولا تظلمون، بل ما دمت فيكم فما علىّ إلاّ البلاغ، وها قد أبلغتكم. أي علىّ حمل مسؤولية التبليغ، وعليكم حمل مسؤولية الإيمان أو الكفر؛ فالأنبياء مبشّرين ومنذرين وأمّرين بالمعروف وناهين عن المنكر، أمّا من بعدهم فالمسؤولية تقع على أعناق من أهدى أو من ظل؛ ولذلك فمن أهدى فلنفسه ومن ظلّ فلنفسه، وهذا الأمر يذكرنا بقول الله تعالى لنبيه محمّد عليه الصّلاة والسّلام: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} 720. ولأنّ أمر الناس يتعلّق بهم أفراداً وجماعات ومجتمعات، لذا فإنّ كان الأمر متعلّقاً بفردٍ واحدٍ فمشاورته فيه لا تزيده إلاّ رُشداً

<sup>718</sup> الأعراف 85.

<sup>719</sup> الأنعام 104.

<sup>720</sup> آل عمران 159.

كما أنّها تحمّله عبء المسؤولية، وإن كان الأمر يتعلّق بالزوجين فللزوجة أمرٌ مشتركٌ لا ينبغي إنفراد أحد الزوجين بالأمر المشترك على حساب الآخر وحرّيته واعتباره وكرامته وحقوقه وواجباته ومسؤولياته، وهكذا إن كان الأمر يتعلّق بالنّاس كما هو حال أمر الوطن الذي يتعلّق أمره بكلّ المواطنين؛ فيجب إشراكهم قراراً وتنفيذاً ورقابةً مع وافر المشاورة التي بها تتمّ ممارسة الحقوق بإرادة، وأداء الواجبات بوعي، وحمل المسؤولية وتحمل ما يترتّب عليها من أعباءٍ جسام.

فإذا كان هذا الحال في زمن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام الذي أمره الله تعالى أن يشاور من يتعلّق الأمر بهم؛ فكيف إذن بحال الأمر من بعده، قال تعالى: {وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ} 721 أي في حياتك يا رسول الله شاورهم في الأمر، أمّا من بعد حياتك فأمرهم شورى بينهم، أي كلّ من يتعلّق الأمر بهم ينبغي أن يكون أمرهم بينهم شورى، حيث لا إكراه في الدّين ولا تغييب ولا إقصاء. والشورى هنا لم تكن خاصّة بالمسلمين، بل هي الحلّ؛ فمن شاء الحلّ؛ فعليه بها ديمقراطية بلا مكاره.

ومن هنا، كان الاختلاف والخلاف في معظمه بين من يحكم من، وبين من يأخذ بما أنزلت به الرّسالات الخالدة ارتقاءً، وبين من يتخلّى عنه دونيّة وانحداراً، وبين من يرى الحرّيّة حيث لا إكراه، وبين من يرها تمدّداً خارج الحدود، وبين من يراها لا تكون إلّا وفقاً لما يفيد الأنا، أو طائفته، أو قبيلته، أو حزبه، أو مدينته، وفي المقابل هناك من يرى الحرّيّة عدالة يستظلّ الجمع تحت مظلتها حقوق تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسؤوليات تُحمّل، وبين هذا وذاك لا يزال بنو آدم مختلفين،

---

721 الشورى 38.

وسيظلون إلا من رحم ربك، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً  
وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} 722.

ولأنَّ الاختلاف لن ينتهي بين بني آدم، إذا؛ فسيظل بينهم  
حيثما بقوا على أرض الاعوجاج دُنيا، ولا استغراب أن يخالف البعض  
بعضا، ولا استغراب أن يتصادم البعض مع البعض، ولكن الاستغراب  
أن لا تُصحَّح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة تُصلح المعوجَّ  
وتدفعه تجاه الحلِّ دون هيمنة ولا حرمان؛ ولهذا فلا ينبغي أن يُلغى  
الاختلاف، بل ينبغي أن يلاحق الاختلاف حلاً حيثما حلَّ.

وعليه:

في زمن الرِّسالات والأنبياء الكرام كما هو زمن النبي شعيب  
عليه وعلى جميع الأنبياء الصّلاة والسّلام كان الحلُّ يتنزّل على الأقوام  
والأمم والكافة من السّماء، أمّا في الزّمن الذي بعد رسول الكافة؛ فلا  
نبي ولا رسالة بعد الرّسالة الخاتمة، كلُّ شيء قد أنزل، وبقي الأمر بين  
النّاس شورى، سواء أكان أمر النّاس سلماً أم حرباً، أم سياسة  
داخلية، أم سياسة خارجية؛ فما يتفق عليه من يتعلّق الأمر بهم يُقدّر  
ويحترم ويعتبر؛ فيقر ويؤخذ به عملاً وفعلاً وسلوكاً، وفي المقابل لا  
يؤخذ بما يخالفه لكونه معوجّاً.

ولذلك؛ فالاختلاف والحصام والجدال والصّدام في زمن  
الرّسل، قد تأسّس على الفضائل الخيرة التي لا تستمدّ إلاّ ممّا أنزل من

عند الله، حيث {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} 723، و{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} 724، و{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ} 725.

فهذه الفضائل ارتقاء جاءت إنسانية، وستظل بين من يأخذ بها ارتقاء إنسانية، ذلك لأنها فضائل طي الهوة التي تُختلق من الحين والحين بين بني آدم علّة.

وعليه؛ فبعد اختتام الرسائل والرّسل، أصبح للقيم الاجتماعية تقدير ومكانة إلى جانب تلك الفضائل الإنسانية الحيرة. أي: أصبح للخصوصيّة الاجتماعية أهمية ومكانة، ولتنوّع اللغات أهمية ومكانة، ولما يختاره ويقرّه النَّاس أهمية وضرورة، ومن ثمّ، أصبح للدساتير والقوانين المنفّذة لها أهمية مقدّرة بين الأمم والشّعوب، ولذلك فالأخذ بالقيم الحميدة يؤكّد أهمية تلك الفضائل الحيرة في ترسيخ قيمة الإنسان وحفظ كرامته من خلال عدم إكراهه بأيّة علّة، ومن خلال مشاورته في كلّ أمر يتعلّق به وبمصيره، وفي المقابل من يغفل عن أهمية ذلك، سيجد نفسه شريكاً في كلّ ما يؤدّي إلى الفتن والانقسامات والصّدّامات المؤلمة التي لا تكون إلّا على أيدي المعوجين عمّا يجب أن يكون بين النَّاس محبّة ومودّة.

### شعيب نبي صلح:

جاءت رسالة شعيب عليه الصلّاة والسّلام لقومه كلّها إصلاح (إصلاح دينهم وديناهم) أي إصلاح الأخلاق والاقتصاد، قال تعالى: {وَأِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا

---

723 البقرة 256.

724 الشورى 38.

725 الكافرون 6.

تَبَحَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ  
خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ  
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَتَرْتُمْ  
وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ {726.

ثم قال: قال شعيب عليه السلام: { إِنْ أُرِيدَ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا  
اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ } 727 وذلك لأن الله سبحانه وتعالى  
لا يكلف نفسا إلا وسعها حيث لا إمكانية فوق الاستطاعة. وهنا  
قال الشاعر:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرُهُ ..... هَلَا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ  
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِيذِي السِّقَامِ مِنَ الضَّنَا ... كَيْ يَشْتَفِيَ مِنْهُ وَأَنْتَ سَقِيمٌ  
لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ .... عَارَ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ  
فَأَبْدَأَ بِنَفْسِكَ فَاهْتَمَّ عَنْ عَيْهَا ... فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ  
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ مَا تَقُولُ وَيُفْتَدَى ... بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ  
وَلَمَّا جَلَسَ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ الْوَاعِظُ أَتَتْهُ امْرَأَةٌ مِنَ الصَّالِحَاتِ فَأَنْشَدَتْهُ:  
يَا وَاعِظًا قَامَ لِاخْتِسَابٍ ..... يَزُجُّرُ قَوْمًا عَنِ الذُّنُوبِ  
تَنْهَى وَأَنْتَ الْمُرِيبُ حَقًّا ..... هَذَا مِنَ الْمُنْكَرِ الْعَجِيبِ  
لَوْ كُنْتَ أَصْلَحْتَ قَبْلَ هَذَا ... عَيْنِكَ أَوْ ثُبَّتَ مِنْ قَرِيبِ  
كَانَ لِمَا قُلْتَ يَا حَبِيبِي ... مَوْقِعَ صِدْقٍ مِنَ الْقُلُوبِ  
تَنْهَى عَنِ الْعَمَى وَالْتِمَادِي ..... وَأَنْتَ فِي النَّهْيِ كَالْمُرِيبِ  
وَقَالَ آخَرُ:

726 الأعراف 85، 86.

727 هود 88.

وَعَزَّزَ تَقِيَّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتَّقَى ... طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهُوَ سَقِيمٌ<sup>728</sup>

قَالَ الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّهُ جَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: " يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، قَالَ: أَوْ بَلَغْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَرْجُو. قَالَ: إِنْ لَمْ تَخْشَ أَنْ تَفْتَضَحَ بِثَلَاثِ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَافْعَلْ. قَالَ: وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: { أَتَأْتُمِرُونَ النَّاسَ بِالْبُرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ }<sup>729</sup> أَحْكَمْتَ هَذِهِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَالْحَرْفُ الثَّانِي. قَالَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: { لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ } (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ }<sup>730</sup> أَحْكَمْتَ هَذِهِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَالْحَرْفُ الثَّلَاثُ. قَالَ: قَوْلُ الْعَبْدِ الصَّالِحِ شُعَيْبٍ، عَلَيْهِ السَّلَامُ: { وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَأَكُمُ عَنْهُ }<sup>731</sup> أَحْكَمْتَ هَذِهِ الْآيَةَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَابْدَأْ بِنَفْسِكَ<sup>732</sup>.

### شُعَيْبُ نَبِيِّ مُتَحَدِّي:

النبي شعيب عليه الصلاة والسلام مع أنه نبيا ليين الجانب، لكنّه نبي قوي الإرادة، يجنح لقومه بالكلمة الطيبة والتواضع التام بغاية التبليغ والهداية، وفي المقابل لم يقبل منهم المساومة على رسالته العادلة؛ فقد خيره قومه بين العودة إلى الكفر أو الخروج من قريتهم، فرفض والتحدّي يملاً قلبه إيمانا<sup>733</sup>، قال تعالى: { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ

<sup>728</sup> لوامع الأنوار البهية، 2، ص 432.

<sup>729</sup> البقرة 44.

<sup>730</sup> الصف 2، 3.

<sup>731</sup> هود 88.

<sup>732</sup> تفسير ابن كثير ت سلامة، 1، ص 249.

<sup>733</sup> الولاء والبراء في الإسلام، ص 376.

عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ {734}.

وعليه فإنَّ شعيب بقدر ما يرفع رأسه وصوته في مواجهة طواغيت البشر من المملأ الذين استكبروا من قومه بقدر ما يخفض هامته، ويسلم وجهه في مواجهة ربه الجليل، الذي وسع كل شيء علما. فهو في مواجهة ربه، لا يجزم بشيء أمام قدره، ويدع له قياده وزمامه، ويعلن خضوعه واستسلامه<sup>735</sup>: قال تعالى: {إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ {736}.

### شعيب خطيب الأنبياء:

شعيب نبيا عربيا صريح اللسان قوي الحجّة، وكان خطيبا حسن البيان؛ فعن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شعيبا قال: "ذاك خطيب الأنبياء"<sup>737</sup> وذلك لحسن مراجعته قومه فيما يراؤ بهم.

وعن يَعْقُوبُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ إِذَا ذَكَرَهُ يَعْنِي شُعَيْبًا قَالَ: ذَاكَ حَاطِبُ الْأَنْبِيَاءِ الْحُسَيْنِ مُرَاجَعَتِهِ قَوْمَهُ فِيمَا يُرَادُهُمْ بِهِ، فَلَمَّا كَذَّبُوهُ وَتَوَعَّدُوهُ بِالرَّجْمِ وَالنَّفْيِ مِنْ بِلَادِهِ وَعَتَوْا عَلَى اللَّهِ، أَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ فَبَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَدْيَنَ يُقَالُ لَهُ: عَمْرُو بْنُ جَلْهَاءَ لَمَّا رَأَاهَا قَالَ:

<sup>734</sup> الأعراف 88، 89.

<sup>735</sup> الإنسان بين العبودية لله والعبودية للعبيد، ص 158.

<sup>736</sup> الأعراف 89.

<sup>737</sup> تفسير الطبري، جامع البيان ت شاكر، 12، ص 567.

يَا قَوْمِ إِنَّ شُعَيْبًا مَّرْسَلًا فَذَرُوا ... عَنْكُمْ سَمِيرًا وَعِمْرَانَ بَنِي شَدَادٍ

إِنِّي أَرَى غَيْمَةً يَا قَوْمُ قَدْ طَلَعَتْ ... تَدْعُو بِصَوْتِ عَلَى صِمَانَةَ الْوَادِي

وَإِنَّكُمْ إِن تَزُورُوا فِيهَا ضُحَى غَدٍ ... مَا فِيهَا إِلَّا الرَّقِيمُ بِمَشِي بَيْنَ الْأَنْجَادِ 738

وعن بي ذر رضي الله عنه عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ

أَنَّ أَنْبِيَاءَ الْعَرَبِ أَرْبَعَةٌ: "هُودٌ، وَشُعَيْبٌ، وَصَالِحٌ وَنَبِيُّكَ، يَا أَبَا

ذَرٍّ" 739

هو (شعيب بن سيكيل بن يشجر بن مدين أحد أولاد

إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة والتسليم) وأمه بنت لوط عليه

السلام.

### التسليم بالمشيئة:

قال الله تعالى حاكياً قول شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ {قَدْ افْتَرَيْنَا

عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا

أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رُئُونَا وَسِعَ اللَّهُ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ

تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} 740.

هكذا هو شعيب عليه السلام مسلم أمره لربه العزيز، وهو قد علق

عودته إلى ملتهم على مشيئة الله تعالى، وهذا تأدب بالغ من شعيب

بأن رد المشيئة لله وجدّه مع علمه الأكيد بأن الله تعالى لن يشاء لهم

العودة إلى الكفر بعد إذ هداهم إلى الإيمان وهو أعلم بما سيكون منهم

بظهر الغيب. وفي المقابل الكفرة لا يرون مشيئة غير مشيئتهم؛

فيأخذون عنها، ويضلون ضالين كما قال تعالى على لسانهم: {قَالُوا يَا

<sup>738</sup> تفسير ابن أبي حاتم - محققا، 9، ص 814.

<sup>739</sup> تفسير الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، 3، ص 48.

<sup>740</sup> الأعراف 89.

شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَنْتَزِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا  
مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ { 741.

لجأ شعيب عليه السلام إلى الله بأن ردّ المشيئة إليه وهو يعلم  
من يستحقّ الهداية فيهديه ومن يستحقّ الضلالة فيضلّه وسع سبحانه  
وتعالى كلّ شيء علماً؛ فالمشيئة صفة له تعالى، وكذلك العلم صفة له  
جلّ جلاله، وقد توسّل شعيب بهما إلى الله تعالى وتوكلّ عليه في تثبيته  
على الحقّ الذي بعثه به إلى قومه؛ فبعد أن توسّل بربّ المشيئة (العليم  
الحكيم) الذي وسع كلّ شيء، وبالتوكلّ عليه والتقرّب بهذا التمجيد  
والتعظيم رفع الدعاء إليه تعالى: (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ) أي  
لا يستطيع أحد أن يحوّل قلوبهم إلى الحقّ والإيمان والإسلام إلا هو  
تبارك وتعالى؛ فإن قدر الله إيمانهم وعلم منهم ما سيختارون من الهدى  
فهذا هو المطلوب. وإن كان يعلم منهم أنّهم سيظلون في عنيتهم  
وكبريائهم على الحقّ فكان دعاءه أن يحكم بينهم (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ  
قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) أي افتح علينا بالنصر عليهم وانتقم  
لنا منهم وعاملهم بما يستحقّون (وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ)، أي وأنت خير  
من ينصر عباده المؤمنين، على من كفر بك واستكبر عن عبادتك.

ولهذا كان إجماع المسلمين على سؤال الله التوفيق والاستعادة  
من الخذلان وما سألوهُ إِلَّا مَا هُوَ بِيَدِهِ وَقَادِرٌ عَلَيْهِ؛ "قَالَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ فَهُوَ تَعَالَى خَالِقُ الْعُضْوِ الْمُتَحَرِّكِ وَالْقُوَّةِ فِيهِ  
وَالْحَرَكَةُ النَّاشِئَةُ مِنْهُ وَخَالِقُ الْعَبْدِ وَاخْتِيَارُهُ وَلَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ خَلْقِهِ  
وَقَدْرَتِهِ فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ وَبِهِ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ وَالتَّوْفِيقُ هُوَ خَلْقُ قُدْرَةٍ

الطاعة والخذلان وخلق قدرة المعصية، ولذلك فالموفق لا يعصى إذ لا قدرة له على المعصية وكذلك القول في نقيضه "742

### أبنت النبي شعيب:

النبي موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين سأل ربه عز وجل بقوله: { رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } 743 أي سأل موسى ربه ولم يسأل الناس، وفي سؤاله التأدب التام تعظيماً لله تعالى؛ ففطنت ابنتا النبي شعيب فبعد العودة إلى أبيهما، شعيب عليه السلام، أخبرتاه بأمره، قال شعيب: ينبغي أن يكون هذا جائعاً، ثم قال لاحدهما: اذهبي ادعيه؛ { فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ فَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } 744، وهنا فابنة النبي شعيب عليه السلام هي كريمة الشأن حيث جاءته (تمشي على استحياء) وهي واضعة ثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء حراجة ولاجة. قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فقام معها موسى، فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فإني أكره أن يصيب الريح ثيابك "745

<sup>742</sup> مرهم العلل المعضلة في الرد على أئمة المعتزلة، ص 164.

<sup>743</sup> القصص 24.

<sup>744</sup> القصص 25 . 28.

<sup>745</sup> فتح القدير للشوكاني، 4، ص 193.

ويقال أنّ البئر الذي وردت إليه ابنتي النبي شعيب وتقابلتنا عليه مع النبي موسى هو ذلك البئر الذي يتدفق ماءؤه في بطن جبل مدين جنوب الكرك.

### حبّ الله وتوحيده:

أنبياء الله عليهم الصلّاة والسّلام هم أحبّاء الله جلّ جلاله، فهم المصطفون الأخيار، وهم المرسلون الكرام، وهم بقدر حبّهم لله يدعون النّاس إلى حبّ الله تعالى. وفي الحديث أنّ شعيبا عليه السّلام بكى من حبّ الله وهو يتأمّل معجزاته وآياته العظيمة "يا شعيب، ما هذا البكاء؟ أشوقا إلى الجنّة أم فرقا من النّار؟ قال: إلهي وسيدي! أنت تعلم، ما أبكي شوقا إلى جنتك ولا فرقا من النّار، ولكن اعتقدت حبّك بقلبي، فإذا أنا نظرت إليك فما أبالي 746، ولهذا كان شعيبا مصرّا في دعوته على أن يعبد قومه الله تعالى:

وَقَالَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: { يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ } 747 وقال تعالى: { وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ } 748

وعليه فالأنبياء أرسلوا لدعوة التوحيد، توحيد الله تعالى ولا شريك له، ومن هنا كان شعيبا داعيا قومه لتوحيد الله وعبادته واحد أحد لا شريك له، ومن هنا؛ فالتوحيد المطلق لله تعالى من خلال:

1 - اليقين التام بأنّه لا إله إلا الله مصداقا لقول الله تعالى: { إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي } 749.

<sup>746</sup> كنز العمال، 12، ص 480.

<sup>747</sup> الأعراف 85.

<sup>748</sup> هود 88.

2 - الاعتراف بتفرد الله بصفات الكمال، والإقرار بتوحيده بصفات العظمة والجلال وإفراده وحده بالعبادة؛ فيقول الإنسان: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} 750 والتوحيد الذي هو الأسّ الأول للعقيدة ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ. توحيد الأسماء والصفات: وهو اعتقاد انفراد الله جلّ جلاله بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة، والجلال والجمال التي لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، وذلك بإثبات ما أثبتته الله لنفسه، مصداقا لقوله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 751.

- والعبد المؤمن بالله ربّا واحداً أحد موحّداً له في أسمائه وصفاته وإلهيته وربوبيته يقول مؤتمرا بما جاء في الكتاب الكريم: {هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا} 752، وينزّهه بما قال جلّ جلاله: {سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} 753، ويرتقي في التوحيد مخلص الوجه والقلب لله جلّ جلاله: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ

749 طه 14.

750 الفاتحة 5.

751 الحشر 22-24.

752 الكهف 38.

753 الزمر 4.

يُؤَلِّدُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}754، وهذا بإثبات ما أثبتته الله لنفسه بشأن التوحيد.

- يقرّ بما أثبتته له رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جميع الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله من غير نفي لشيء منها ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، فعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ كَرِيزٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ"755.

- ومن التوحيد نفي ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النقائص والعيوب، وعن كل ما ينافي كماله.

ب . توحيد الربوبية: أن يعتقد المسلم أن الله هو الرب المنفرد بالخلق والرزق والتدبير.

والله سبحانه أنزل الكتب وأرسل الرُّسُلَ؛ لِيُعَبِّدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وليبيِّنَ حَقَّهُ عَلَى عِبَادِهِ، ويذكر للعباد ما هو موصوف به سبحانه من أسمائه الحسنى وصفاته العلا، ليعرفوه جَلَّ وَعَلَا بِأَسْمَائِهِ وصفاته وعظيم إحسانه وشأنه، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، وما ذاك إِلَّا لِأَنَّ تَوْحِيدَ الرَّبُّوبِيَّةِ هُوَ الْأَسَاسُ وَالْأَصْلُ لِتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ؛ فَلِهَذَا بُعِثَتِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَنْزِلَتْ الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِبَيَانِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، وَعَظِيمِ إِحْسَانِهِ، وَبَيَانِ اسْتِحْقَاقِهِ، وَهَذَا وَجِبَ التَّعْظِيمِ لِلَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهَا صِفَتُهُ، {قَالَتْ

---

<sup>754</sup> الإخلاص 1-4.

755 موطأ مالك ج 2 ص 150.

رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ {756، لا شك في الله فهو الله لا إله إلا هو، وصدق الله إذ أخبر عن حال نبيه صلى الله عليه وسلم العابد لله على وجه الكمال: {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبَّنَا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ} 757.

وهذا يدخلنا في النوع الثالث من التوحيد وهو توحيد الله بالعبادات أي بالتوجه له وحده؛ فهو الله لا شريك له الواحد الأحد المعبود الحق، الفرد الذي لم يلد ولم يولد.

ج . التوحيد بالعبادة (توحيد الإلهية): فلا معبود بحق إلا الله، ولا توجه بنية ولا فعل ولا عبادة إلا لله الواحد الأحد مصداقا لقوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} 758، فالعبادة عبارة عن الإتيان بالفعل بالمأمور به على سبيل التعظيم للأمر الذي أمنا به إلهنا واحدا خالقا للكون قادرا على مقدرات لا نهاية لها، عالما بعلم لا نهاية له، غنيا عن كل الحاجات، الذي أمر العباد ببعض الأشياء وهي خير لأنفسهم وسمّاها (المعروف)، ونهاهم عن بعض الأشياء وهي شرّ لهم وسمّاها (المنكر)، فوجب على الخلائق طاعته والانقياد لتكاليفه لأنفسهم لا له، لأنّه سبحانه لا يزيد في ملكه بطاعة طائع ولا ينتقص من ملكه بمعصية عاص، فعطائه أمر (كن) ومنعه أمر (كن) وكلامه حقّ مطلق، وله من في الأرض وما فيها ومن في السموات وما فيها ولا يقتصر ملكه

<sup>756</sup> إبراهيم 10.

<sup>757</sup> الأنعام 161-164.

<sup>758</sup> الفاتحة 5.

على السموات والأرض، بل هذا من ملكه ولا يعلم مقدار ملكه إلا هو، قال الله تعالى: {وَلَيْتُنَّ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} 759.

وقال الله في الحديث القدسي: عن أبي ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله: يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته عليكم محرماً، فلا تظلموا العباد، يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار، فاستغفروني، فإني أغفر لكم الذنوب جميعاً ولا أباي، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وبناتكم وإنسكم، وصغيركم وكبيركم، كانوا على قلب أفجركم، لم ينقص من ملكي شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم، وبناتكم وإنسكم، وصغيركم، وكبيركم، سألوني فأعطيت لكل رجل منهم مسألته، لم ينقص ذلك مما عندي شيئاً، كراس المخيط يغمس في البحر" 760.

فكلمة (إياك نعبد) على إيجازها فإنه لا يمكن القيام بلوازمها إلا بعد معرفة التكاليف المتصلة بها وبيان أنواع الأوامر والنواهي المترتبة عليها، لأن جميع ما صنف في كتب الفقه يدخل فيه تكاليف الله، ولأن الإيمان بـ(إياك نعبد) والعلم بأنها ليست لنا فحسب بل لكل مكلف من ملك وبن وإنس، فيدخل فيها كل التكاليف التي كلف الله بها ملائكته في السموات منذ خلق الملائكة وأمرهم بالاشتغال

<sup>759</sup> لقمان 25-28

<sup>760</sup> مصنف عبد الرزاق - ج 11 ص 182.

بالعبادات والطّاعات، فهي مشتملة على التكاليف المتوجهة لأعمال الجوارح، والتكاليف المتوجهة لأعمال القلوب، وهي التي تشتمل عليها كتب الأخلاق، وكتب الفقه، وإذا اعتبر الإنسان مجموع هذه التكاليف وجميع هذه التصانيف وعلم أنّها بأسرها داخلة تحت قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) علم حينئذٍ أنّ الأمر الذي اشتملت هذه الآية عليه جدّ خطير؛ فهو كالبحر الخضم الذي لا تصل العقول والأفكار إلّا إلى القليل منه. والحمد لله ربّ العالمين.